محمود درويش يتذكر في أوراقي

أكتب لأنني سأعيش

.indd 1 29/07/2019 12:13:03

محمود درويش يتذكر في أوراقي

أكتب لأنني سأعيش

د. شربل داغر

.indd 3 29/07/2019 12:13:03

- **محمود درويش يتذكر في أوراقي... أكتب لأنني سأعيش**
- تأليف : د. شربل داغر
- الطبعة الأولى : 2019
- الترقيم الدولي : 978-9948-36-167-1
- إذن الطباعـة :

- حقوق الطبع محفوظة :

ـ مؤسسة سلطان بن علي العويس الثقافية

ص.ب : 14300 -دبي -الإمارات العربية المتحدة

هاتف : 2243111 - 009714 ، فاكس : 2217839 - 009714

www.alowais.com- Email : info@alowais.com

- تنفيذ وإخراج : وليد الزيادي
- تصميم الغلاف : فراس علي
- المطبعة : جولدن سيتي - الشارقة

.indd 4 29/07/2019 12:13:03

• استهلال :

هـذه ليسـت سـيرة محمـود درويـش (1941 - 2008)، لا التامـة ولا الجزئيـة، عـلى الرغـم مـن دهشـة أي نـاشر، وأي متابـع للحيـاة الثقافيـة العربيـة، إذ يتحقـق مـن أن "شـهرة" درويـش، المتبوعـة بموتـه الصـادم منـذ نيّـف وعشر سـنوات، لـم تنتـج سـيرة واحـدة لـه، وبـأي لغـة كانـت. مـع ذلـك، يجـد القـارئ عـشرات الكتـب عنـه (بـين حـوارات ودراسـات نقديـة). ولكـن مـن دون سـيرته، إلا في شـذرات موزَّعـة هنـا وهنـاك (مـن دون أن تكون مدققـة بالضرورة)، أو في مسلسـل تلفزيونـي عـن حياتـه شـابه الكثـير مـن المغالطـات. وقـد يكـون إقـدام الصحفـي المـصري سـيد محمـود، في السـنة المنصرمـة، عـلى إعـداد ملـف موثـق عـن إقامـة درويـش في القاهـرة ابتـداء مـن العـام 1971، بـادرة طيبـة وموثقـة، وتبـشر بالخـير. أمـا عمـلُ الكاتبـة الفلسـطينية امتيـاز دياب

.indd 5 29/07/2019 12:13:03

المتأخر، فيدخل في العمل التوثيقي الضروري والمفيد[1]، فقد أقدمت على جمع وثائق غير معروفة، بل مجهولة (ما يزيد على 400 وثيقة)، منها رسائل عديدة لدرويش ولرفاقه ومسودات قصائد تعود إلى ما قبل مغادرته إلى موسكو، كانت في عهدة المحامي والسياسي الفلسطيني محمد ميعاري...

هذا ما يصحُّ في غير درويش أيضًا، مِمن اشتهروا قبله، مثل نزار قباني. وهو ما يصحُّ في "مشاهير" السينما والغناء، من أمثال: محمد عبد الوهاب، وأم كلثوم، وفيروز، وعبد الحليم حافظ وغيرهم الكثير، فلا تجد عنهم سيرًا مضبوطة.

يجد القارئ بعض الكتب "الخفيفة"، أو بعض الدراسات "الجادة"، ولكن من دون أن تبلغ كتابة السيرة، كما نلقاها في الآداب الأجنبية، وفي "نجاحات" دور نشر عالمية عديدة: هذا يحتاج إلى مبحث خاص، من دون شك، إذ إنه يطاول عادات الكتابة، والتوثيق الإخباري، وكتابة السير والمذكرات واليوميات وغيرها، ما يشير إلى تعطل أكيد، أو إلى مصاعب بين إفصاح وبوح واعتراف

1) امتياز دياب: "ميلاد الكلمات"، وزارة الثقافة الفلسطينية، ونون للأفلام والنشر، رام الله، 2019.

.indd 6 29/07/2019 12:13:03

(مــن قبــل "النجــم") وبــين احتيــاج القــارئ إلى مثــل هــذه "الشــهادات" الموثقــة. ومــن يتابــع أخبــار وســائل الاتصــال الاجتماعــي يتحقــق مــن انتشــار هائــل لحكايــات وأخبــار عــن "النجــوم"، مختلقــة أو مشــتهاة أو مبتــورة مــن ســياقاتها في جوانــب كثــيرة منهــا؛ وهــي تَــرُوج وقابلــة للتعميــم والانتشــار، ولا تُعْــرَض بالمقابــل إلى أي فحــص أو نقــد أو تصويــب أو اســتدراك.

بعــض هــذه الشــهادات أصــاب ويصيــب درويــش نفســه، حتــى إننــي وجــدتُ صعوبــة في الحصــول عــلى ســيرة مضبوطــة لــه، و"مأذونــة" (إن أمكــن القــول)، عــلى الرغــم مــن وجــود عــدة مؤسســات تحمــل اســمه في رام اللــه. وكان عــليَّ، في غــير موضــع، الوقــوع عــلى معلومــات متضاربــة تخــص، لا "غرامياتــه" وحســب، وإنمــا تواريــخ أساســية في حياتــه، أو في نــشر كتبــه وغيرهــا. أمــا المــادة الصحفيــة الموثقة عنــه، فقــد وجدتُهــا في مقــال متوســع لجريــدة "الغارديــان" البريطانيــة[2].

لهــذا أعيــد التأكيــد أن هــذا ليس بســيرة محمــود درويش، ولــم أطمــح إلى كتابتهــا، عــدا أننــي – لــو أردتُ – لــما أمكننــي

2) في 8 حزيران-يونيو من سنة 2002، في ترجمة تكفلت بها جريدة "الدستور" الأردنية، ونشرتها في 28 حزيران-يونيو من السنة 2002.

.indd 7 29/07/2019 12:13:03

كتابتهـا، لضعـف أكيـد في صدقيـة بعـض مـا هـو متـداول عـن محمـود درويـش. وقـد يكـون درويـش مسـؤولًا بنفسـه عـن بعـض هـذه الحـال...

مـع ذلـك أكتـب، اليـوم، أن كتابـي هـذا قـد يكـون تعويضًا عمـا لـم أقـوَ عـلى إنجـازه، معـه، في باريـس في منتصـف الثمانينيـات، عندمـا اتصلـتْ بـي دار نـشر فرنسـية (Pub-lisud)، واقترحـت عـليَّ كتابـة سـيرته. هـذا مـا باشرتُـه مـع درويـش في جلسـات؛ ومـا بقـيَ منـه لا يتعـدى بعـض الأوراق المخطوطـة التـي عـثرتُ عليهـا في محفوظاتـي (وأنشرُهـا في البـاب الثالـث والأخـير مـن كتابـي).

لهـذا أطلقـتُ عـلى كتابـي هـذا تسـمية مناسـبة لِمـا أصابنـي، إذ وجـدتُ درويـش يسـتفيق في كلماتـي، بعـد أن راحـت الصـور والذكريـات والكلمـات تكـرُّ مـن تلقـاء نفسـها، مـن موادعهـا الدافئـة. كانـت أشـبه بـ"ـوديعة" مِمـا انفجـر مـن مياهـه الجوفيـة بمجـرد مـا أن عـدتُ إلى أوراقـي القديمـة، ومـا أن دونـتُ عباراتـي الأولى في هـذا الكتـاب. يُضـاف إلى ذلـك مجموعـة مـن الحـوارات أجريتُهـا مـع درويـش بـين العـام 1979 والعـام 1986، وأعيـد نشرهـا في الكتـاب.

.indd 8 29/07/2019 12:13:03

بـل يمكننـي التصريـح بـأن هـذا الكتـاب اتخـذ خطتـه الكتابيـة بعـد وقـت، إذ باشرتُـه مسترسـلًا، متابعًـا التدفـق الداخـلي، غـير أننـي مـا لبثـتُ، بعـد وقـت، بعـد كتابـة عـشرات الصفحـات، أن عـدتُ ونظمـت وأضفـت وحذفـت، وأقمـتُ ترتيبًـا داخليًّـا لـه مـا بلـغ حالـة الكتـاب الحاليـة.

هـذه الرغبـة الخافيـة عنـدي تلاقـت، هـي بدورهـا، مـع توجّـه مؤسسـة العويـس، ورغبتِهـا في إصـدار كتـاب عـن درويـش: كأننـا كنـا عـلى موعـد، و... معـه.

وطى حوب، 1 حزيران-يونيو 2019

.indd 9 29/07/2019 12:13:03

الباب الأول:

سَجِّلْ، صوتِي صوتان

.indd 11 29/07/2019 12:13:03

اتَّجَهَ إلى الكتاب

موت الأصدقاء، موت الكبار، مفاجيء دومًا، حتى وإن كان متوقعًا. فكيف إن كان بحجم غياب محمود درويش!

موتُه قد يناسب صورته شاعرًا، إذ مات، مثلما عاش، في ذروة النشيد: "العاشق" صرعَه قلبه، ولم يمت أبدًا في مقعد الشيخوخة الهزاز. إلا أن موته لا يناسبه إنسانًا، ما دام أنه بقي – على الرغم من احتراساته الطبية الأخيرة – ذوّاقة بكل معاني الكلمة، ولأنواع المباهج كلها.

أيام قليلة تفصل موته عن موت ألكسندر سولجنتسين، من دون أن تفصل بين معاني الحياة والكتابة بينهما، على الرغم من كل التباينات الظاهرة. هو مثل الروسي غادر وطنه لكي يعود إليه؛ وهو مثله عاد إليه، وإن اختلف طعم العودتَين.

.indd 13 29/07/2019 12:13:03

عـاد سولجنتسـين لكـي يوقـف السرعـة الجنونيـة التـي دارت بهـا "العجلـة الحمـراء" في بـلاده، كمـا لـو أنـه يريـد تصحيـح التاريـخ بالروايـة. فيمـا عـاد درويـش في نـوع مـن الوفـاء لتاريخـه، لكـي يكـون عـلى مقربـة أكـثر مـن العائدِين، بـل لكـي يكـون أكـثر إنصاتًـا لوجيـب قلبـه الداخـلي: عـاد بعـد أن دونـت قصيدتـه صفحـات وصفحـات مـن كتـاب فلسـطين.

مـن يرثـي درويـش، هـو الـذي كان يتكفـل بمراثـي طيـور الياسـمين وليمـون الآهـات وعزلـة الذهـب؟

الأعيـاد بدورهـا لا تصلـح لمحمـود درويـش، ولا أريـد لـه مثـل هـذا. لا أحتفـظ بتواريـخ ميـلاده وموتـه، لكننـي أتذكـر مـا هـو أبقـى منهـا: مـا يجمعنـي، مـا يجمعنـا بـه، دومًـا، في كل يـوم، في كل لحظـة تنبثـق مـن القصيـدة بالامتنـان لمـا كانـه.

مـا قـام بـه في حياتـه وشـعره يتعـدى أصلـه وميـلاده. أعـرف أن المناسـبات لحظـة للتذكـر، وهـي مناسـبة لتجديـد اللقـاء بمـن غـاب، لأن ميـلاد صديقـي الراحـل درويـش هـو ميـلاد كل قصيـدة كتبَهـا. وهـو مـا أخبرنـي بـه، ذات يـوم، حـين كان يحدثنـي، في باريـس، عـن مفاجأتـه المدهشـة بعـد

.indd 14 29/07/2019 12:13:03

أيام وأيام على اجتراح قصيدة ما كانت تولد بين يدَيه... يومها داعبتُه بالقول في إشارة إلى الحالة الاجتماعية "الزوجية": "إنها من بنات أفكارك"، فأجابني: "أنا مثلك، يا شربل، لو كان لي أن يكون لي أولاد، وأن أختار، لاخترتُ مثلكَ البنت، لا الصبي".

أتذكر هذا وأقول أيضًا إن المناسبة لا تناسبه، لأنه حي يعيش كل يوم، ويولد ألف مرة في اليوم الواحد، في عيون قرائه الكثيرين في العالم.

حدث هذا في صيف العام 1973، في كبرى ساحات برلين الشرقية (المشطورة حينذاك بين بلدَين)، "ألكسندرا بلاس"، بعد الظهر.

كنتُ قد التقيتُ بمحمود درويش للمرة الأولى، قبل هذا اليوم بعدة أسابيع، في سهرة في بيروت. أخبرتُه، ليلتها، عن تحفزي للسفر، في أول رحلة في حياتي. ما كنتُ أعلم، حينها، مقدار الصعوبة في بلوغ مقصد الرحلة. ذلك أنه كان عليَّ، مثل أصدقاء كثيرين فوق السفينة (أمين معلوف وطارق متري وأنور الفطايري وغيرهم)، أن نعبر المتوسط فوق باخرة روسية إلى ميناء في رومانيا، ومنه عبر القطار وصولاً إلى منتهى الرحلة،

.indd 15 29/07/2019 12:13:04

للمشاركة في "مهرجان الشباب العالمي" في برلين الشرقية.

كنتُ متحرقًا للوصول، أشبه بمن يقف أمام بوابة الوصول على مدى أيام وأيام، من دون أن يصل. وهي الصورة التي تبدو - على ما أتحقق الآن - في خلفية كتابي الشعري: "ترانزيت".

ما أن وضعتُ حقيبتي الخفيفة في غرفة الفندق، حتى سارعتُ إلى الوصول إلى الساحة الموعودة، التي أشار لي صديقي، ورفيق الرحلة، فؤاد حمّاد، بالذهاب إليها - هو الذي احتاط من مفاجآت السفر بأن تدبرَ القراءة عنها قبل القيام بها.

كانت الساحة فسيحة بحجم حيرتي وتوتري. آلاف من الوجوه بألف لون ولون تعبرُها في مسارات يصعب تبينُها أو تحديدُها. صرتُ أمشي فيها من دون وجهة، من دون أن أطلب شيئًا منها سوى المشي، سوى أن أكون فيها، مع هذا الجمع المبهم والحيوي. فإذا بي أقع على محمود درويش أمامي، قبالتي، تمامًا، وجهًا لوجه، ما لا أقوى على تجنبه: أيُعقل هذا، يا محمود؟! ألا يحق لي السفر؟! ألا يحق لي أن أقع على مجهولِين ومغمورِين؟! بادرته مصعوقًا بما يَجري لي، ويُفقدني دهشة الرحلة،

.....indd 16 29/07/2019 12:13:04

التـي كانـت مكتنَـزة ومحفوظـة مثـل عطـر في زهـره. كان عليـه أن يشـارك، في عـداد الوفـد الفلسـطيني، في احتفـال تنظمُـه دولـة ألمانيـا الشرقيـة للاعـتراف بمنظمـة التحريـر الفلسـطينية ممثـلًا شرعيًّـا ووحيـدًا للشـعب الفسـطيني...

كان قبالتـي منـذ ذلـك اليـوم، عـلى تقلّـب الأيـام والمـدن والمواقـف والخيـارات.

ذلك أن الجوار معه يوافق، بل يتنزل مثل الحوار.

اسـتوقفَني شـعرُه منـذ قصيدتـه: "سرحـان يـشرب القهوة في الكاقيتيريـا"، وكنـتُ أُقبـل عـلى مجموعاتـه المتتاليـة في السـنوات المتأخـرة، عـلى الرغـم مـن مجانبتـي لأسـلوبها، فيمـا كانـت تتباعـد صلتـي بقصائـد كان لكتابتـي أن تتفاعـل معهـا. وهـو مـا تمثـلَ في عـدد مـن دراسـاتي عنـه، ولا سـيما دراسـة اشـتقاق المتكلـم لخطابـه في القصيـدة.

إذا كانـت بداياتـه اقتربـت مـن نـزار قبانـي وعبـد الوهـاب البياتـي، فـإن هـذا الشـاعر، الذي تبـع جيـل "الـرواد" زمنيًّا، مـا لبـث أن اسـتدركَهم، حتـى إنـه بـدا أكـثر مـن "خلاصـة" لهـم، قبـل أن يتفـرد عنهـم بقصيـدة باتـت عنوانًـا لنفسـها، وعلامـةً دالـة عـلى مـا تُقيمـه بعـد قيامـه.

.indd 17 29/07/2019 12:13:04

إذا كان درويش من أشدِّ الشعراء العرب ذكاءً (بكل معاني الكلمة)، واحترافًا، فإنه كان خصوصًا - بخلاف عديدِين من أقرانه الراكِنين إلى موروثهم ونتاجهم - شديد التنبه للمشهد الشعري، لمجرياته، ولا سيما للمجدِّدين فيه، وفي نطاق القصيدة بالنثر تحديدًا. هذا ما تمثَّلَ في أكثر من وجه في القول الشعري: منها وأولُها، من دون شك، مقادير الاستبطان الذي باتت تقوم عليه قصيدته؛ وهو استبطانٌ بات يُسائل الذات فلا يُغنِّيها أو يكتفي بحاصلها. هذا ما اتضح في صورة أظهر في إيقاعاته، التي باتت في "جدارية"، على سبيل المثال، كما لو أنها من معين النثر فيما لم تفارق "تفعيليتها" أبدًا، ما يُظهر تمكنه الشديد من أدواته، ومن قدرته على التطويع والتفنن والتجويد بها. وهذا من دون أن يبتعد عن عبارته المضيئة، ولا عن جمهوره المتعاظم، هنا وهناك وأينما كان. في ذلك لم "يُصالح" درويش بين جمهورَين وأسلوبَين، بل سعى إلى إفادة قصيدته من توصلاتِ غيرها، حتى بات شعره الأخير أشبه بذروة اللقاء، وبتجدده. وهو في ذلك كلاسيكي قبل ميعاد امتحان الزمن لشعره.

.indd 18 29/07/2019 12:13:04

عندمـا زارنـي...: هـذه "العندمـا" فجائيـة، مثـل زيـارة محمـود درويـش الأخـيرة لي.

زارنـي برفقـة نايلـة، قريبتـي المراهقـة: أتـتْ مـع دفترهـا الصغـير، الـذي وضعـتْ فيـه نصًّـا بعنـوان: "علَّمنـي الشـعر"، طالبـةً منـي شرحَ بعـض الأمـور الصعبـة، المندَسَّـة بـين الكلمـات. مـا أن دعوتُهـا إلى القـراءة اسـتوقفتْني في النـص عبـارات عـن بيـاض الصفحـة، وأخـرى تتحـدث عـن أن البـئر تحولـت، بفضـل الشـعر، إلى جـرَّة، والبحـر إلى سـماء مقلوبـة وغيرهـا. سـألتُها: مـن أعطـاكِ هـذا النـص؟ أجابتْنـي: مُدرِّسـة العربيـة (في مدرسـة "الجمهـور"، الحازميـة، ضاحيـة بـيروت الشرقيـة). فقلـتُ: لمـن هـو؟ لـم تحسـن نايلـة الإجابـة.

عندمـا عـدتُ إلى قـراءة النـص مـن جديـد، اسـتوقفَني فيـه الحديـث عـن الجـد الـذي علَّـم الفتـى حكايـات الثقافـة المبكـرة، فتذكـرتُ عـددًا مـن الجلسـات في باريـس مـع درويـش، بعـد انتقالـه الثانـي إليهـا، جـرى فيهـا تـداول بعـض حكايـات طفولتـه: عـن هربـه المبكـر مـن البيـت، وعـن ضياعـه في الطريـق إلى عـكا، وعـن "قسـوة" الوالـد مقابـل "حنـو" الجـد، وعـن شـاعر كان يقـول الشـعر في الـبراري،

.indd 19 29/07/2019 12:13:04

أو حين يحلُّ خلسة في بيوت الفلسطينيين ليلاً، إذ كان من "الطُّفّار" (كما نسميهم في لبنان، أي الهاربين من العدالة)...

هذه المرة زارني من دون موعد، كما في المرة الأولى، في العام 1973 على الأرجح، حين حلَّ ضيفاً عليَّ وعلى أصدقائي المُضْربين، فوق رصيف، أمام وزارة التربية الوطنية (الأونيسكو، بيروت)، قرب كليتي الجامعية، في نوع من "التضامن" مع الجيل المطالب بفسحة تحت شمس الوطن. وهي الزيارة التي لم ينقطع وصلُها بين مدن وبلدان عديدة، في لبنان أو بغداد أو باريس أو تونس أو المغرب أو القاهرة أو عَمّان وغيرها الكثير...

اعتدتُ على لقاءات متجددة دومًا معه، ولا سيما على مجلسه المفيد والممتع دومًا. وهو أشدُّ ما أفتقدُه، اليوم، أي ذلك الحضور اللمّاع والمشرِق والفَكِه، حتى في أحلك لحظات التأزم الفلسطيني الداخلي، كما في السنوات الأخيرة. وهي جلسات كانت تجمعنا في صالون بيته، أو على طاولة في مطعم... أو جلسات أخرى كانت تجمعني به، وحدنا، في بيته الباريسي، في بيته في ضاحية تونس الراقية، أو في بيته في عبدون بعمّان، حيث

.indd 20 29/07/2019 12:13:04

كان محمود لا يتأخر، هنا وهناك، عن "تمرير" بعض الأخبار عن حياته الخاصة: عن زوجته الأولى أو الثانية، وعن أكثر من حبيبة مِمن كنتُ أعرف... أو عن قصة "غرامه" بالمطربة نجاة الصغيرة. أو أخباره أو تعليقاته عن سلوكات الراحل ياسر عرفات، أو عن تبرمه من بعض الشعراء أو المثقفين – "المنافقين" (حسب لفظه) – مِمن كانوا يوالون "القضية"، أو شخصه، الاعتبار العالي فيما كان يشكُّ في إخلاصهم. أو عن جمعي له ولسميح القاسم، في مطعم لبناني في باريس، لطي صفحة خلاف قديم بينهما...

ما كان درويش يستقل طائرة، حتى كان يركب في غيرها. ومع ذلك، كان يخشى ركوبها، مثلما انفضح أمره معي، ذات رحلة متجهة بنا إلى باريس: أمضى الدقائق قبل الإقلاع - الطويلة والقلقة نفسيًّا - في شرح الأسباب الميكانيكية المؤدية إلى تحطم الطائرة: عند الإقلاع، أو عند الهبوط، إن لم تعمل دواليبها بشكل صحيح. فكان أن تفرستُ في وجهه: لعلك تخاف من ركوب الطائرة؟ نظر إليَّ بين الامتعاض والابتسام، مثل من يعترف بحاله من دون أي لفظ.

.....indd 21 29/07/2019 12:13:04

هنـاك مـا أقولُـه في كتابـي عنـه، وهنـاك مـا لـم أقلْـه. منهـا دعاباتـه الكثـيرة عـن هـذا أو تلـك، عمـن أطلـقَ عليـه تسـمية: مارلـين مونـرو (وهـو رجـل)، وهيغـل (وهـو صحفـي)...

امتنعـت عـن ذكـر أسـماء، ولا سـيما لسـيدات، مجهولات أو شهيرات...

امتنعـتُ عـن ذكـر اعتـذاره لي عـن فِعلـة ارتكبَهـا في حقي، مـن دون أن يُفصـح عنهـا، عندمـا سـألتُه عنهـا في مكالمـة هاتفيـة أجراهـا معـي في العـام 1986...

امتنعـتُ عـن ذكـر حـوارات طريفـة، جمعتْنـي بـه وبالشـاعر سـميح القاسـم في باريـس. وعمـا رواه لي، في طائـرة، عمـا جـرى بينـه وبـين شـاعر عربـي كان يُمثِّـل بلـده في الاجتمـاع العـام لاتحـادات الأدبـاء العربيـة... أو مـا قالـه في أحـد المغنـين لشـعره...

أذكـر هـذا - وهنـاك غـيره - مـدركًا أنـه لا يحـق لي، أو لـم أسـمح لنفـسي بروايتهـا، مـا دام أنـه مـا كان ليجيزهـا في حياتـه.

أخبـار عديـدة مِمـا أتذكـره ولا أكتبـه... حتـى اليـوم عـلى

.indd 22 29/07/2019 12:13:04

الأرجح، متسائلاً ما إذا كان يصحُّ نشرها، من دون اتفاق مسبق بيني وبينه، وأنا أتحقق من هذا الكم البالغ من الأخبار والشهادات (المختلقة، في بعضها، أو التي راجت ربما من درويش نفسه) التي تتصل به منذ موته الفاجع.

هذه المسؤولية تقع على عاتقي...

يصعب عليَّ ذلك لأنني أفتقد في غياب محمود الصديقَ قبل الكاتب. أفتقده يعاتبني عن نقدي للحرب "الأهلية" بين الفصائل الفلسطينية، التي بدأت في شوارع بيروت وطرابلس (في الثمانينيات من القرن الماضي) قبل غزة ورام الله... أفتقدُه يُمرِّر "القفشات" الضاحكة عن هذا وذاك، أو يسألني – كما في لقاء القاهرة الأخير - ما إذا كان الشاعر اللبناني الفلاني "منعَ" زوجته من السفر وحدها.

هذا ما حصل لي قبل ذلك مع الصديق سمير قصير (وهو صديق درويش بدوره)، حيث إنني أتهربُ، حتى اليوم، من النظر إلى صورته، التي تلوِّن بعض جدران بيروت منذ واقعة اغتياله. وهذا ما يحدث لي، اليوم، مع محمود درويش، إذ لا أقر، بمعنى ما، بهذا الغياب

.indd 23 29/07/2019 12:13:04

الصـادم.

الكاتـب الـذي كان عليـه محمـود ألقـاه، أدرسُـه، أكتـبُ عنـه نقديًّـا. أمـا الصديـق، فهـل يكفـي مجيئـه في حقيبـة نايلـة المدرسـية، ومعـه نصـه المسـتل مـن كتابـه: "في حـضرة الغيـاب"؟ أيكفينـي القـول، أو العـزاء، إن مـا خلَّفَـه لي ولغـيري كثـير، يمدُّنـا بعمـر طويـل لـه بيننـا، وبعدنـا؟ أيكفينـي القـول إن العيـش مـع الأصدقـاء يسـتديم – إذ يغيبـون - بإشـارات أخـرى، أشـبه بنجـوم تنـير غيرهـا في الليـل، أو بهـالات ضـوء تظلـل قاماتنـا مـن دون أن نلمسـها؟

هكـذا، لا يمـوت الأصدقـاء وإنمـا يعيشـون إلى جانبنـا، في المقعـد الـذي يبقـى دافئًـا، حـول طاولـة الشراكـة، نتبـادل أطبـاق البهجـة والأسى والصخـب والخفـة، مـن دون رحيـل أو بـكاء، في ذروة النشـيد: يسـتديمون، عـلى أن الكتـاب هـو "بيتنـا الأخـير".

لـم يغـبْ عنـي حتـى وفاتـه: عـلى اتصـال وتباعـد. عـلى جـوار وحـوار. عـلى تواصـل واختـلاف، لا سـيما في الشـعر.

محمـود درويـش حمـلَ محمـود درويـش معـه. بقـي لي،

.....indd 24 29/07/2019 12:13:04

لنـا، اسـمُه، وصـورٌ متطايـرة، ومشـاهد وأقـوال متشـظية في الزمـن.

لـكلٍّ منـا محمـودُ درويشِـه. لـكلٍّ منـا صـورُه الهاربـة، المتطايـرة، عنـه. لـكلٍّ منـا سـيرتُه معـه وعنـه.

لـم يغـبْ عنـي بعـد وفاتـه بدليـل أنـه يسـتفيق في كلماتـي:

اتَّجهَ إلى الكِتاب.

.indd 25 29/07/2019 12:13:04

آه من وطن في جسد!

وطـن محمـود درويـش ليـس "حقيبـة"، إلا أنـه "مسـافر" دائـم. بـين بيوتـه الكثـيرة، وبـين صـور البيـت الطفـولي والصـور السريعـة في المنـافي والمطـارات والفنـادق.

مسافر دائم، من دون أن يعود - حتى لو عاد.

يعـود، وحسـب، إلى المطـارات، وإلى بيـوت الإيجـار، بيوتـه... المؤقتـة. عـرف بيوتًـا عديـدة ابتـداء مـن بيـت الجـد في الـبروة، في الجليـل الأعـلى، منـذ الرحيـل، بـين موسـكو والقاهـرة، في بـيروت كمـا في تونـس، مـن دون أن يسـتقر، مـن دون أن يقـوى عـلى القـول، مثـل رفيقـه الدائـم، المتنبـي:

على قلقٍ، كأن الريح تحتي

أوجهها يمينًا أو شمالًا.

.....indd 27 29/07/2019 12:13:04

هـذا مـا دفعَـه، في منتصـف الثمانينيـات، في باريـس، إلى العمـل عـلى كتابـة سـيرة بيوتـه، وفـق أسـلوب يقـترب مـن بـوح السـيرة وسرد الروايـة. هـذا مـا أخبرنـي بـه؛ وهـو مـا يُعلـم بـه صديقـه سـميح القاسـم في رسـالة (في 22 - 9 - 1986): "سـأبدأ في هـذا الخريـف بكتابـة الكتـاب الـذي يلاحقنـي هاجسـه منـذ أربـع سـنوات، كتـاب البيـوت التـي عشـت فيهـا، في الوطـن والمنفـى، منـذ البيـت الأول إلى الآن. هـو شيء مـن سـيرة البيـوت الذاتيـة". ثـم يتابـع: "أكـثر مـن خمسـة وعشريـن بيتًـا، ولا بيـت لي، ولا عنـوان لي"[3].

لكننـي لـم أعلـم، بعـد ذلـك، شـيئًا عـن "مصـير" هـذا الكتـاب، بينمـا علمـتُ انصرافـه – حينهـا – إلى إنهـاء كتـاب آخـر: "ذاكـرة للنسـيان" (1987)، الـذي حكـى فيـه أيامـه، في شـقته ببـيروت، أثنـاء حصـار بـيروت (1982). وهـو يُخـبر صديقَـه القاسـم، في الرسـالة عينهـا المذكـورة أعـلاه، عـن الكتـاب الجديـد: إنـه "كتـاب مجنـون" (حسـب لفظـه).

بيـت الـبروة أول هـذه البيـوت، ومدخـلُ بوابتها الرئيسـية. هـو بيـت المولـد (في العـام 1941) والطفولـة، الـذي تكوَّنـت فيـه صـور العالـم الأولى. وهـو، أيضًـا، البيـت المحظـور بعـد

3) "محمود درويش/سميح القاسم: الرسائل"، دار العودة، 1990، بيروت.

.indd 28 29/07/2019 12:13:04

الاحتلال الصهيوني لأرض فلسطين. صورة هذا البيت لم تفارق درويش: بسرعة يخطُّ سطرًا في منتصف الورقة: البيت من فوق، وساحة البيت من تحت، في كتلتَين مستطيلتَين متقابلتَين؛ في البيت تتوزع الغرف بين الجد والأب والأم والأولاد الثمانية، وفي الساحة كراسٍ وشجرة ودجاج.

يكتب درويش، في رسالة إلى الشاعر سميح القاسم في 3 - 5 - 1986 (نُشرت لاحقًا في كتاب: "الرسائل"): "تعرف كيف تسللنا من لبنان، حين أدركَ جدي أن الرحلة ستطول، وأن عليه أن يلحق بالأرض قبل أن تطير. وحين وصلنا لم نجد غير الخراب. فقدْنا حقَّ الإقامة وفقدنا حقَّ الأرض. وحين مارستُ طقس الحج الأول إلى قريتي الأولى ـ البروة، لم أجد منها غير شجرة الخروب والكنيسة المهجورة، وراعي أبقار لا يتكلم العربية الواضحة، ولا العبرية الجارحة: من أنت، يا سيد؟ فأجاب: أنا من كيبوتس (مستوطنة) يسعور. قلتُ: أين كيبوتس يسعور؟ قال: هنا. قلتُ: هنا البروة. قال: أين هي؟ قلتُ: هنا تحتنا. حولنا. فوقنا. هنا في كل مكان. قال: ولكنني لا أرى شيئًا، ولا حتى حجارة. قلتُ:

.....indd 29 29/07/2019 12:13:04

وهـذه الكنيسـة... ألا تراهـا؟ قـال: هـذه ليسـت كنيسـة. هـذا إصطبـل للأبقـار. هـذه بعـض آثـار رومانيـة؟ قلـتُ: ومـن أيـن أتيـت، يـا سـيد؟ قـال: مـن اليمـن. قلـتُ: ومـاذا تفعـل هنـا؟ قـال: عائـد إلى بـلادي. ثـم سـألني: ومـن أيـن أنـت؟ قلـتُ: مـن هنـا... عائـد إلى بـلادي".

"بيتـي جـدي"، يؤكـد لي محمـود درويـش[4]. "هـو الـذي ربّانـي. أبـي في الحقـول، يقلـب المزروعـات وأشـجار الزيتـون ويُعنـى بهـا؛ وجـدِّي في البيـت، تحـت الشـجرة، يسـتقبل الـزوار في "ديوانـه"، أو يدعونـي، فَرِحًـا، إلى قـراءة جريدتـه بصـوتٍ عـالٍ، أو يأخذنـي لزيـارة الخـوري، عنـد الـدكان، في حـي النصـارى". كان يسـتمع درويـش لحكايـات عنـترة، أو لسـيرة أسـلافه الذيـن هاجـروا مـن الضفـة الغربيـة إلى هـذه القريـة، التـي تقـع عـلى تلـة صغـيرة في وسـط عـكا. أو يسـتمع لسـيرة اندحـار بونابـرت وقواتـه أمـام أسـوار عـكار، عـلى الرغـم مـن حصـار السـنتَين. "جـدي هـو عائلتـي، خاصـة وأننـي كنـتُ أعـرف شـيئًا مـن القسـوة مـن أمـي، حوريـة، وشـيئًا مـن الإهمـال مـن أبـي، سـليم. أمـا جـدِّي فقـد كان يغمرنـي بحنانـه، بـل كنـتُ أشـعر بأنـه كان يُوليني سـلطانه، حتـى إنـه لـم يكـن ينهرنـي أبـدًا عندمـا كنـت

4) راجع الحوار في الباب الثالث من هذا الكتاب.

.indd 30 29/07/2019 12:13:04

أتدخـل، خاصـة في "الديـوان"، في مناقشـات الكبـار".

كانـت عـكا نهايـة العالـم، وصعبـة المنـال. لا ينقطـع درويـش عـن تذكـر رحلتـه الأولى إليهـا، كمـا كتبَهـا في "يوميـات الحـزن العـادي"، أو كمـا رواهـا عـلى مسـامعي. قـام بهـا بمفـرده، وهـو لـم يتجـاوز بعـد الخامسـة مـن عمره: "سـافر جـدي وأمـي إلى عـكا لـشراء بعـض الحاجيـات... حـين علمـتُ بالأمـر قـررتَ اللحـاق بهمـا مشـيًا عـلى الأقدام. سرتُ فـوق الطريـق المسـتقيم مـن دون أن أحيـد عنـه، مـن دون أن يربكنـي الخـوف. كان الضيـاع سـهلًا، أمـا العـودة إلى القريـة فقـد كانـت أصعـب. بحثـتْ القريـة عنـي في ذلـك اليـوم في الآبـار وغيرهـا قبـل أن تجدنـي".

كان الخـروج الأول مـن البيـت، و"عـلى إثـره ضربتْنـي أمـي، وجـدِّي أطعمنـي الحلـوى". إلا أن الصبـي كـرر المحـاولات، بعدهـا، إلى القـرى المجـاورة، مثـل قريـة أمـه: الدامـون.

العـودة إلى البيـت كانـت مشـكلته منـذ طفولتـه، حتـى إنـه وجـدَ نفسـه غـير مـرة بعيـدًا عـن البيـت بعـد حلـول المسـاء. الصبـي المدلـل، الصبـي الشـقي، الصبـي المنطلِـق... كيـف لا، وقـد لـوى رِجلَـه، وأدخـلَ سـكينَ فـرمِ التبـغ في

.indd 31 29/07/2019 12:13:04

ركبتـه، قبـل أن يبلـغ الرابعـة مـن عمـره!

يتذكـر درويـش سـيرة البيـت الأول؛ وهـو بهـذه الطريقـة يحـاول جديـدًا في بحثـه الدائـب عـن المـكان، بوصفـه مكانًـا للتذكـر أو للبنـاء. فقـد تسـاءل في شـعره غـير مـرة: "إلى أيـن أذهـب؟"، كمـا أكـد أيضًـا: "أنـا الأرض في جسـد". ذلـك أن الشـاعر يبحـث عـن المـكان، بعـد أن جـرى إبعـاده عـن مـكان الأهـل والأسـلاف. كمـا لـو أنـه، في تفسـيرٍ دينـي، توراتـي، يُميِّـز بـين "الجنـة" وبـين ضيـاع آدم وحـواء بعيـدًا عنهـا، وطلبًـا للعـودة إليهـا. تسـتعيد الذاكـرة صـور المـكان الأول، المـكان الطفـولي، لكـي تُؤبِّـده مثـل مرجـع، تُقـاس عـلى أساسـه الصـور، ومثـل بعـض المعانـي، تقـاس عـلى أساسـها الأفـكار. ألا يؤكـد درويـش:

إن الجداول باقية في عروقي

وإن السنابل تنضج تحت ثيابي

وإن المنازل مهجورة في تجاعيد كفي[5].

5) محمود درويش: "موت آخر وأحبك"، مجموعة "المحاولة رقم 7"، في: "الأعمال الشعرية الكاملة"، المجلد الأول، 1964 - 1982، مؤسسة محمود درويش، رام الله، الأهلية للنشر والتوزيع، عَمان، دار الناشر، رام الله، 2014، ص 540.

.....indd 32 29/07/2019 12:13:04

إذا كان البيت الطفولي يصوغ المشهد التأسيسي لرؤيتنا، فإن هذا البيت يتخذ قيمة مضاعفة مع درويش. فهو البيت – المرجع، وهو البيت الممنوع أيضًا. أي أن الحنين إليه لا يتخذ فقط شكلًا رومنسيًا، بل يتخذ أيضًا شكلًا كفاحيًّا، هو "العودة" بوصفها كسرًا للحظر والمنع. خطاب شعري ملتبِس، مشدود إلى صورة البيت الطفولي الماضية، وإلى صورة وطن جديد. هكذا تلتبس صورة المكان، حتى إنه يقول في إحدى قصائده:

وليس الأمام أمامي

وليس الوراء ورائي

كأن يديكَ المكان الوحيد

كأن يديكَ بلد (م. ن.).

لا أثر لبيت محمود درويش في البروة، بل في شعره، ذلك أن الإسرائيليين هدموه مثل غيره، "بل أخذوا حجارة البيوت أيضًا لتعمير بيوتهم بها. انتقموا من القرية بعد أن جابهتْهم. المقاتلون الفلسطينيون حرروا القرية بعد أسبوع على احتلال الإسرائيليين لها في العام

.indd 33 29/07/2019 12:13:04

1948، وشربوا الشاي في أباريق الإسرائيليين الساخنة، والمتروكة...".

وجد الطفل، مع أبيه وأمه، أن قريتهم، مثل 400 قرية فلسطينية، باتت مدمرة، مُفرَغة من سكانها، وبُنيت مستوطنات فوق رمادها. وجدوها، إذ رحلوا عنها، وأمضوا أشهرًا بين جزين والدامور وبيروت (في لبنان)، ثم لا تلبث عائلته أن عادت بشكل غير شرعي إلى أرضها، إلى بلدها. هكذا عاش درويش، مع غيره، لاجئًا في بلده!

"اختار جدي العيش فوق تلة تُطلُّ على أرضه. وظلَّ إلى أن توفي، يراقب المهاجرين (من اليهود) يعيشون في أرضه، التي لم يكن قادرًا على زيارتها" (حسب حديث درويش إلى "الغارديان" البريطانية المذكور أعلاه).

تسللتْ عائلته إلى أرضها، إلى قريتها، لكنها لم تنعم بإقامة شرعية بسبب هربها وتسللها من جديد: كانت العائلة غريبة-غائبة-حاضرة، مُنعت عنها الجنسية الإسرائيلية، فحصلوا على بطاقات هوية. لم يحصل درويش، مثل أفراد أسرته، على جواز سفر: كان "مقيمًا"، ولم يكن "مواطنًا" في الدولة الناشئة.

.....indd 34 29/07/2019 12:13:04

كان عـلى درويـش أن يعيـش منـذ السادسـة مـن عمـره مـا سـيكتبه لاحقًـا:

"آه من وطن في جسد!".

أيـن هـو محمـود درويـش؟ أفي قـبره الـذي بـات محجـةً لـزوار كـثر في رام اللـه؟ أفي المتحـف الـذي يحمـل اسـمه؟ أفي "مؤسسـة محمـود درويـش"؟ أفي الترجمـات التـي لا تتوقـف لشـعره في غـير لغـة (مـا فـاق العشريـن لغـة) ودار نـشر، حتـى إنـه بـات الأكـثر ترجمـة بـين الشـعراء العـرب إلى لغـات العالـم؟ أفي الأطروحـات والكتـب والدراسـات العديـدة التـي تُراجـع شـعره وتفحصـه وتتبـين وجوهًـا خافيـة في شـعريته؟ أفي مـا يسـتثيرُه شـعرُه مـن أنشـطة وإنتاجـات وأغنيـات وأعمـال فنيـة هنـا وهنـاك؟

هنـاك درويـش الـذي مـضى في صـورة فجائيـة بلغتْنـي، ذات مسـاء صيفـي، في قريتـي، مـن دون أن أصـدِّق مـا طالبتْنـي بـه صحفيـة أردنيـة: أن أتحـدث عنـه بعـد غيابـه.

كان مهـدَّدًا بالمـوت، ولـم تكـن العمليـة الأولى لقلبـه. في مـرة سـابقة، حـدث هـذا أثنـاء انتقالـه مـن باريـس إلى فيينـا، عـلى مـا علمـتُ، أثنـاء إقامتـه الباريسـية الثانيـة.

.indd 35 29/07/2019 12:13:04

كان ذلك في العام 1984، عندما وصل إلى عاصمة النمسا لأمسية، فإذا به ينتقل إلى المستشفى: هذا ما أخبرتْني به صديقة تونسية انتقلت من باريس إلى فيينا لمتابعة عمليته الجراحية عن قرب. ثم عملية ثانية له، في العام 1998، وهي الأصعب، قبل العملية الثالثة، والقاتلة[6].

الغياب "يصنع" الأسطورة، بل يصوغها بما يصعب تعديلها. هناك سيرة تشارف الأسطورة لدرويش، ما يصعب قبوله عند عارفيه، وما يصعب استدراكه، حتى لو تأكد الشهود والعلامات والدلائل. سيرة درويش تصبح في عهدة محبيه، مثل... كارهيه. سيرة واقعة في التداول، ما يطلبه الجمهور منه، ما يرى إليه فيه على أنه منه.

6) ينشر الشاعر يوسف عبد العزيز معلومات عن أيام درويش الأخيرة في عَمان، قبل انتقاله لإجراء العملية الأخيرة، وما صاحبها: يوسف عبد العزيز: لوَّحْنا بأمل، كان درويش يرانا"، مجلة "البيت" (بيت الشعر في المغرب)، عدد خاص عن محمود درويش، العدد 32، خريف 2018، الدار البيضاء، ص ص 169 - 174.

.indd 36 29/07/2019 12:13:04

بين اسمه وهالته

شـهدتُ العديـد مـن أمسـياته: في الأونيسـكو ببـيروت أكـثر مـن مـرة، ومنهـا المـرة الأولى، إذ انتقلـتُ مـن كليتـي القريبـة، "كليـة التربيـة"، إلى المبنـى الشـهير. كانـت القاعـة مليئـة، والجمهـور متأهـب بقـوة في ذلـك الزمـن "النضـالي" المشـبوب، لسـماع عـدد مـن الشـعراء (بلنـد الحيـدري، خليـل حـاوي، محمـد الفيتـوري، ودرويـش نفسـه)، بدعـوة مـن "اتحـاد الكتّـاب اللبنانيـين" (في ولايـة سـهيل إدريـس). فجـأة، أثنـاء تـلاوة درويـش قصائـده، يقـف أحدهـم في الصالـة، ويطالبُـه بإلقـاء قصيدتـه "بطاقـة هويـة"، أي: "سَـجِّلْ أنـا عربـي". في الدعـوة اسـتفزازٌ لـم يخـفَ عـلى نباهـة درويـش، إذ سـبقتْ تلـك الأمسـية مقـالات (خاصة في مجلـة "الحـوادث" اللبنانيـة، وجريـدة "الدسـتور" الأردنيـة وغيرهـا)، وكلامٌ في المجالـس، "يُخـوِّن" درويـش عـلى فعلتـه:

.indd 37 29/07/2019 12:13:04

مغـادرة فلسـطين إلى خارجهـا، فـردَّ درويـش عـلى السـائل بنـبرة عاليـة وحـادة: "سَـجِّلْ، أنـتَ".

هـذه الواقعـة سـتصبح خبـرًا، بـل سـؤالًا يتكـرر في أكـثر مـن مقابلـة صحفيـة معـه. الأكيـد هـو أن درويـش لـم يكـن بالممالـئ دومًـا لجمهـوره؛ وقـد كان يعـرف حـق المعرفـة أنـه جمهـور "مسـيَّس" في أحـوال عديـدة: جمهـورٌ يناقشـه ويحاسـبه بوصفـه "منـدوبَ جـرحٍ"، أي غـير مالـك بالتـالي لسـيرته، ومواقفـه.

كان "ابـن القضيـة"، فيمـا كان يشـارك، مـع يـاسر عرفـات وغـيره، في صناعـة، في صياغـة هـذه القضيـة. ألـم يقـلْ في لقـاء صحفـي: "يشرفنـي أن ينظـر إلى صوتـي الشـخصي كأنـه أكـثر مـن صـوت، أو أن "أنـاي" الشـعرية لا تمثـل ذاتـي فقـط، وإنمـا الـذات الجماعيـة أيضًـا"[7].

هـذا مـا كان يَظهـر في انتقـادات تصيـب تصرفاتـه، مثلمـا حـدث تحـت أنظـاري في فنـدق بسـيط في أصيلـة، عنـد حلولـه فيهـا ضيفًـا عـلى "موسـمها" الثقـافي في مطلـع الثمانينيـات: كان هـذا الفنـدق حينهـا ("مرحبـا") الفنـدقَ

7) عبده وازن: "محمود درويش: الغريب يقع على نفسه"، رياض الريس للكتب والنشر، بيروت، 2006، ص 70. .

.indd 38 29/07/2019 12:13:04

الوحيد في المدينة الساحلية المغمورة. غرفٌ بسيطة للغاية، ومتلاصقة، ويُفضي شُبّاكُ الواحدة منها على الأخرى في بعض الأحوال. بدا على درويش التذمر، فما كان من الكاتب بهاء الدين الطود (الذي استقبلَه في مطار طنجة القريب، واصطحبَه إلى أصيلة) أن ردَّ عليه بالقول: ولكنك شاعر ثوري، أستاذ محمود! فامتقعَ وجهُ درويش، وردَّ عليه: إن كنتُ شاعرًا ثوريًّا، أيتوجب عليَّ النوم في غرفة مثل هذه! هذه الواقعة انتقلتْ بدورها، واتسعت خارج أصيلة، وبلغتْ أبعد من طنجة، حيث جرى إنزاله في فندق مناسب.

ذلك أن درويش، بالنسبة للأقربين قبل الأبعدين، كان جارًا، وزميلًا، ورفيقًا، ومنافسًا، فكيف ينتقل من رتبة إلى أخرى في أعين من عايشوه ورافقوه من موقع الندِّيَّة في أحوال قليلة! وهو ما كان يُصيبه في جمهور كان يعرفه عن بعد، ولكن تضيء طلتَه هالةُ "الثورة" و"القضية". كان درويش، في ذلك، يرفض ويتذمر، أو يتبرم من آثار "الصورة الدرويشية"، التي أفاد منها، وشارك في صنعها بالضرورة.

ما هو جدير بالانتباه في حياة درويش هو أنه لم

.indd 39 29/07/2019 12:13:04

يسكن أي "مخيم"، حتى في الشهور القليلة التي حلَّتْ فيها عائلته أثناء "النكبة" في جنوب لبنان. وهو ما عرفتُه منه، عندما طلبَ من إدارة العلاقات العامة في جامعتي (في دعوتها له لتكريمه) ترتيب زيارة له إلى جزين (جنوب لبنان). سألتُه: جزين؟ وما علاقتك بها؟ فأخبرَني أن عائلته حلَّتْ فيها لبعض الوقت إثر "النكبة"...

غير أن حياته انقلبت تمامًا بمجرد حلوله في القاهرة، ثم في بيروت وغيرها، حيث بات يقيم في فنادق فخمة (بدعوات رسمية في الغالب)، أو في شقق مدفوعة من قبل منظمة التحرير، أو من شخصية فلسطينية متبرعة (كما في شقته الأخيرة في عبدون بعَمان). هذا بينما يعيش غيره من شعراء "المقاومة" وفنانيها عيشَ "المخيمات"، مثل ناجي العلي، الذي تعرفتُ إليه في نهايات العام 1974، عندما عملتُ في جريدة "السفير" (عند انطلاقتها): كان يصل من صيدا، من مخيم عين الحلوة، يوميًّا، حاملًا معه، إلى مكتب صاحب الجريدة ورئيس تحريرها، طلال سلمان، عدة رسوم، ويترُك له حرية اختيار أحدها للنشر. كان صامتًا، بعكس درويش،

.indd 40 29/07/2019 12:13:04

ومتجهـمَ الوجـه، بعكـس بشاشـة درويـش. كان درويـش يكتـب عـن "القضيـة"، بـل صوتهـا الأعـلى، فيمـا كان يتباهى الشـاعر أحمـد دحبـور بلقـب: "شـاعر المخيمـات"، ويرسـم العـلي حنظلـة، وهـو يُديـر ظهـره لمـن يـرى إلى رسـمه اليومـي...

كان لفلسـطين اسـم يـكاد أن يكـون وحيـدًا قبل سـتينيات القـرن المنـصرم: أحمـد الشـقيري، رئيـس منظمـة التحريـر الأول، الـذي اشـتهر بقولـه بلـزوم رمـي اليهـود في البحـر. اشـتهر بـه، مـن دون أن يصدقـه أحـد غـير إذاعـة إسرائيـل، التـي اسـتعارت قولـه وراحـت تـردده... حتـى اليـوم. مـا شـاع عـن الفلسـطيني حينهـا مـن صـور، كانـت صـورة: "الكوفيـة"، مرفقـة بصـورة: يـاسر عرفـات، قبـل أن يذيـع "صـوت" درويـش.

كان أكثر من صوت. بات صورة بعيدة لكيان...

كان بـين الفلسـطينيين، والعـرب، مـن يحتاجـون إلى "نجـم"، مثـل غيرهـم في الشـعوب العربيـة، إذ تدبـروا – ويتدبـرون – "نجومًـا" لهـم. لهـذا لـم يكـن درويـش شاعـرًا، ولا "صـوتَ قضيـة" قيـد الـصراع والتشـكل، وإنمـا بـات اسـمًا يلمـع بأكـثر مـن أنـوار الشـعر وفلسـطين.

.indd 41 29/07/2019 12:13:04

هـذا مـا جعـل الكثيريـن ينسـون أنـه كان لدرويـش حيـاة متنقلـة، ووظائـف مهنيـة مختلفـة، وأنـه كان يعمـل منـذ العـام 1973 في مؤسسـات منظمـة التحريـر الفلسـطينية، في "مؤسسـة الأبحـاث الفلسـطينية" (بـيروت) التـي تـرأس تحريرهـا لسـنوات، أو في مجلـة "الكرمـل" التـي أسسَـها وأدارهـا بـين بـيروت وقـبرص وبـاريـس ورام اللـه، وفي عضويـة المجلـس الوطنـي الفلسـطيني ثـم في عضويـة اللجنـة التنفيذيـة للمنظمـة وغيرهـا لسـنوات معـدودة. بينمـا عمل، قبـل ذلـك كلـه، في حيفـا، محـررًا ومترجمًـا في صحيفـة "الاتحـاد" ومجلـة "الجديـد" التابعتَين للحـزب الشـيوعي الإسرائيـلي ("راكاح")، قبـل أن يصبـح مشرفًـا عـلى تحريـر المجلـة، عـدا أنـه شـارك في تحريـر جريـدة "الفجـر".

مـا يسـتوقف، في مسـيرته المتنقلـة هـذه، هـو أنـه سـعى إلى التفاعـل الإيجابـي مـع كل مدينـة أقـام فيهـا، فينتقـي منهـا مـا يـروق لـه: اسـتعذبَ في بـيروت الكثـير، إذ كانـت – كمـا لكثيريـن مـن الأدبـاء العـرب – "المدينـة" التـي جعلتْهـم يكتشـفون معنـى المدينـة: المنفتحـة والمتجاوبـة، بـل الصانعـة لهـالات ثقافـة ومثقفـين.

في السـنوات التـي حـلَّ فيهـا في بـيروت، كانت شـخصيات

.indd 42 29/07/2019 12:13:04

وشخصيات أدبية عربية قد توطنت فيها، بعد أدونيس، ونزار قباني، وتوفيق صايغ، وبلند الحيدري، وغالي شكري وغيرهم، فيما يحلُّ فيها صيفًا جبرا إبراهيم جبرا ونجيب المانع من بغداد، ويمضي فيها الشاعر محمد الفيتوري السوداني-الليبي شهورًا طويلة... بل ستتشكل تجربة بيروت لكثيرين من الشعراء الشباب فرصة للتحلّق حول درويش، مثل: نوري الجراح السوري وأمجد ناصر الأردني وغسان زقطان الفلسطيني وغيرهم، فيما كان سليم بركات قد وصل قبلهم، وأقام في الضاحية الفقيرة، في النبعة، قبل أن يلتحق بدرويش في سنوات تالية، بعد الخروج من بيروت في اتجاه قبرص. وهو ما سيصيب درويش في باريس بعدها، مع: إلياس صنبر الفلسطيني، وفاروق مردم بك السوري، وكاظم جهاد العراقي وغيرهم.

لكن طباع درويش، مثل سلوكه، تتعدل في كل مدينة. هذا ما احتفظَه من بيروت، ولا سيما من باريس، في مطاعمها خصوصًا، ولا سيما "شي أندره"، في "شارع ماربوف"، حيث عملنا معًا في مجلة "الوطن العربي" لبضعة شهور. مذاق المطعم الفرنسي لن يفارقه، مثل

.indd 43 29/07/2019 12:13:04

دروس مكتَسبة، في حياته التالية، حتى إنه، ذات غداء، في مطعم "الأنتركونتيننتل" في عَمان، استعاد حديث المطعم الفرنسي الشهير وأطباقه المميزة ونبيذه الفاخر.

ما يستوقف في بيوته الكثيرة - وقد عرفتُ بعضها بين باريس وتونس وعَمان - أنها ما كانت تختلف، في ترتيبها الداخلي، عما كانتْه غرف الفنادق نفسها. دائمًا نظيفة ومرتبة، وتجد زينتها في أمكنتها المعتادة من زيارة إلى أخرى من دون تبديل. ولا تستوقف الزائر مثلي غير لوحة لكمال بلاطة وأخرى لمنى السعودي في صالونه الباريسي، أو لوحات للفنان التونسي علي بلاغة، الذي كان يستأجر بيته الجميل في سيدي بو سعيد.

كان يبادر العينَ مباشرة أن لا وجود لطفل، أو لسيدة، وإنما لعاملات أو عمال مختفين أو غائبين، ممن يتدبرون تنظيف البيت مرة تلو مرة. حتى إنه – في باريس أو عَمان – كان يعدُّ لي القهوة بنفسه... حتى حين التقيتُ، ذات يوم، بزوجته المصرية، بدتْ، في جلوسها إلى جانبه على الكنبة، في زيارة للشقة بدورها.

كان يعتني بأزهار البيت الموضوعة في الشرفة في الغالب، على ما رأيتُه، ذات مرة، أو على ما أخبرني في

.indd 44 29/07/2019 12:13:04

سردِ واقعة. هذا ما يتضح في شعره، إذ إن المكان يبقى "خارجيًّا" بمعنى من المعاني، فيما يستعيد مكانية طبيعية ونباتية للقرية الفلسطينية المفقودة. حتى حين يتحدث عن مدن مختلفة – ويردُ بعضها بأسمائه في شعره – تشعر بأنه عابر فيها، عدا أنه مشغول بمكان آخر، هو الغائب عن حياته ونظره (قبل إقامته الأخيرة بين عَمان ورام الله).

هو العابر، إذًا، في بلدان ومدن ومطارات، من دون أن يصل. عابرٌ، على أن له بوصلة موجودة في عقله قبل قلبه، وتقوده في اتجاه فلسطين، من دون خريطة، أو دليل. أينما يكون، تقوده عيناه، مثل قصائده، إلى حيث له أن يكون، ولو في "حالة حصار"، بعد عودته إلى رام الله. تتعدد الرحلات والإقامات من دون أن تكون بيروت "خيمته الأخيرة". هكذا باتت له "عائلة" أخرى، متَّسعة، في منظمة التحرير، تتنقل معه في العمل والإقامات، رابطًا، هنا وهناك، أطراف صداقات ما كنتُ أتبين غير جانبها السياسي، أو المهني... فقد وجدتُ، في غير موضع، عند ذكر هذا الكاتب، أو ذلك الفنان، أو تلك الصحفية، أنه يتشكك منهم، ويسخر من "إخلاصهم": أخ... لص.

.indd 45 29/07/2019 12:13:04

هـذا مـا بلـغ نقاشًـا حـادًا بينـي وبينـه، في خصـوص شـعراء وكُتـاب لبنانيـين، عندمـا انتقدَهـم في افتتاحيـة مجلـة "الكرمـل"، منـددًا بمواقفهـم المتجاوبـة مـع انتخـاب بشـير الجميّـل رئيسًـا للجمهوريـة، غـداة الاجتيـاح الإسرائيـلي. إلا أن نقـده الـلاذع كان يُخفـي حينهـا، وخصوصًـا، تبرمَـه الشـديد ممـا آل إليـه حضـور القصيـدة بالنـثر وفاعليتهـا في المشـهد الشـعري العربـي، حتـى بين الشـعراء الفلسـطينيين أنفسـهم.

ليـس لهـذا الـكلام مـن جـدوى أكيـدة، إن لـم يُـدرس تمامًـا حقيقـة "مجتمـع" منظمـة التحريـر، أي كيـف قامـت وانتظمـت معالـم علاقـات عـلى قـدر واسـع مـن التواصـل واللحمـة، مـن دون... إنترنـت أو هواتـف جوالـة. درويـش عضـو في هـذا المجتمـع الـذي يتشـكل تبعًـا للأوضـاع والظـروف، بـين تركّـز في بـيروت، وتقطّـع في تونـس، ثـم اجتمـاع جديـد ومختلـف فـوق أرض "السـلطة الوطنيـة" في الضفـة الغربيـة وقطـاع غـزة.

هـذا مـا يتأكـد منـه الـدارس عندمـا يراجـع القصائـد العديـدة التـي خـصَّ بهـا عـددًا مـن "رفـاق النضـال"، مـن ماجـد أبـو شرار إلى عـز الديـن القلـق ومعـين بسيسـو وإدوارد

.....indd 46 29/07/2019 12:13:05

سعيد وغيرهم، مرورًا بكثيرين غيرهم، مِمن عَرفهم، وارتبطَ بهم، حتى باتوا له أقرب إلى "الأخوة" (على نسق: الأخ أبو عمار، الأخ أبو أياد...) في تلك العائلة الممتدة. ما كانت تتضح دومًا صلات درويش – الأكيدة – بتلك العائلة، ولا موقعه – الأكيد، هو الآخر – فيها، إلا في "مناسبات" بعينها: عندما أعاد صياغة خطاب ياسر عرفات الشهير فوق منبر الأمم المتحدة؛ عندما تحدث عن "غصن الزيتون بيد"، وعن "البندقية باليد الأخرى". أو عندما شارك في صياغة البيان التأسيسي لدولة فلسطين...

كان شديد السرِّيَّة من هذه الناحية، لدرجة أنني علمتُ بانتخابه عضوًا في قيادة منظمة التحرير الفلسطينية، إثر عودتي إلى المجلة، بعد أن أخبرني زملائي في القسم السياسي بالخبر، من دون أن أخبرهم بالطبع أنني كنت أحتسي القهوة عنده في ذلك اليوم... كان متكتمًا، قليل الكلام في الشأن السياسي، من جراء التدابير الاحترازية، "الأمنية" بطبيعة الحال، التي صاحبت الكثير من رفاقه، بعد "اختراقات" إسرائيلية معروفة، أدت إلى اغتيال أكثر من قائد منهم، في روما، أو

.....indd 47 29/07/2019 12:13:05

ضاحيـة تونـس، أو قبلهـا في منطقـة فـردان في بـيروت... بـل تحققـتُ غـير مـرة، معـي أو مـع غـيري، مـن أنـه كان يَـروي مـا ليـس صحيحًـا، أو مـن بـاب الخشـية أو الصيانـة. وقـد يكـون بعـض الالتبـاس والتداخـل والتبايـن بـين عـدد مـن أخبـاره عائـدًا لـه بالـذات. هـذا مـا يجعـل صـور درويـش جزئيـة بالـضرورة؛ ولهـذا قـد يكـون لـكلٍّ (مـن معارفـه والمقرَّبـين منـه) محمـود درويشـهم.

بـات في "مجتمـع" آخـر، وتباعـدت أو تغـيرت علاقاتـه السـابقة، أو مـا كان عليـه. ففي أمسـية عقدها في الأونيسـكو، ببـيروت (صيـف 2001)، أخبرَنـي درويـش بعدهـا: كان في القاعـة الكبـيرة أحـد أقربائـي. جلـسَ في الصـف الأمامـي، بعـد أن وصـل باكـرًا لكـي لا ينازعـه أحـدٌ عـلى مقعـده... ضحـكَ درويـش، يومهـا، وقـال لي: أتظننـي ابـن عائلتـي حقًـا؟ مـن دون أن يسـتنكر ذلـك، أو يرفضـه، بـل مـن قبيـل التأكـد ممـا أصبـح عليـه، إذ بـات – في ظنـي – مملـوكًا مـن "صـورة" درويـش نفسـها: الصـورة التـي "صنعَهـا" بنفسـه لنفسـه، وعـن نفسـه، مـن دون أن ينفـكَّ عنهـا. كيـف لا، وقـد قلـتُ عنـه، في تلـك الزيـارة، في حفـل تكريمـه في جامعتـي، في البلمنـد: قلـة هـم الشـعراء الذيـن حفظنـا أبياتهـم قبـل

.....indd 48 29/07/2019 12:13:05

أسمائهم، وأسماءَهم قبل وجوههم (...). محمود درويش واحد من الندرة النادرة في عالم العربية، الذي خرجَ من البيت ليعود على جناحَي قصيدة (...). هو الذي خرجَ من العيش اليومي، المعهود، المستكين والمنصاع، إلى مخاطر المغامرة، وشكوك المعنى، وعصف التجارب، مراهنًا فيها على معنى آخر للحياة، للوطن، للإقامة في الوجود. ألا يكتب كذلك: أنتَ منذ الآن غيرك؟

كان يُخيل إليَّ، في أحيان كثيرة، أن محمود درويش هو "الناطق الرسمي والوحيد" باسم: محمود درويش. ويخيل إليَّ أيضًا أنه بقدر ما كان يسعى إلى "حشد" جمهور له، في نوع من التماهي معه، والتطلع إلى الأداء عنه، كان "يقترح" على جمهوره ما يراه مناسبًا لصورة قيد الصياغة: صورة فلسطين، في التوجه إليها، بين تذكّرها وحفظها وتدوينها، وبين رسمها بألوانِ أفقِ انتظار وتوثّب.

أين تقع المسافة بينه وبين "أنواته" – إذا كانت عديدة؟ بينه وبين اسمه؟ أكان يعمل "في خدمة" محمود درويش؟ أكان يشتغل لرسم صورته، لإشاعتها، لتأبيدها؟

ذلك أنني أتذكره في آخر ليلة في القاهرة، قبل عودتي

.indd 49 29/07/2019 12:13:05

في اليـوم التـالي إلى بـيروت، وهـو إلى الربـاط: كان ذلـك بعـد إعـلان فـوزه بجائـزة المهرجـان الشـعري الأول الـذي نظمتـه وزارة الثقافـة المصريـة، بـإدارة جابـر عصفـور، الأمـين العـام للمجلـس الأعـلى للثقافـة: بعـد إعـلان النتيجـة – وفـوز درويـش بالجائـزة – اختفـى كثـيرون مـن الشـعراء والنقـاد والصحفيـين مـن الفنـدق، في نـوع مـن التهـرب أو التحـاشي، بعـد أن "زعـل" الشـاعر سـعدي يوسـف مـن حلولـه "ثانيًـا" بعـد درويـش، و"اعتكـف" في غرفتـه؛ واكتشـفتُ، مـع غـيري، في اليـوم التـالي، أنـه لـم يسـافر مـع درويـش – كمـا كان مقـررًا إلى الربـاط -، بـل عـاد إلى لنـدن. تفاجـأ درويـش لغيـاب كثيريـن، مِمـن لـم يتلـقَّ منهـم عبـارة تهنئـة، كمـا أسرَّ إليَّ أثنـاء العشـاء مـع بعـض الأصدقـاء في الفنـدق. بقـي درويـش، في بقيـة هـذه الليلـة، يناقـش صحفيـة سـورية كانـت شـديدة الاقتنـاع، بـل الترويـج، إلى كـون عصفـور قـد "رتّـب" الجائـزة لدرويـش، بدليـل أسـماء الشـعراء والنقـاد العـشرة التـي اجتمعـت في لجنـة التحكيـم، برئاسـة صـلاح فضـل.

سـأعود مـرة أخـرى إلى تفاصيـل وقائـع الجائـزة؛ مـا يعنينـي الوقـوف عنـده، هنـا، هـو أن درويـش صرف فـترة مـا بعـد العشـاء لمناقشـة الصحفيـة في "توهماتهـا"، حسـبما

.indd 50 29/07/2019 12:13:05

قال لها في حضوري. لم أتابع معه الحوار، غير المجدي في نظري، وانتقلتُ إلى جلسة أخرى، فيما كنتُ أتابع درويش، من طاولة مجاورة، وهو يتابع الجدل معها. كان له هذا الإصرار مع صحفية كان يعرفها حق المعرفة، ويتنبه لِما قد تثيره عنه، هنا أو هناك. بينما كنت أعرف منه، أو أستمع عنه، أنه لم يكن يمتثل إلى تلك الجلسات "الصبورة" مع غيرها. بدليل ما واجه به أحد الكتّاب الفلسطينيين المرموقين، في إحدى جلسات "المؤتمر العام" لاتحاد الكتّاب والصحفيين الفلسطينيين، عندما شرع هذا الأديب بالحديث عن "عالمية" الأدب الفلسطيني، معولًا على "سمعة" درويش، وطامعًا بالاستفادة من عائد هذه "العالمية". فكان أن ردَّ درويش عليه بحدَّة وسخرية، على ما أكد لي بنفسه، عندما سألتُه عما بلغني عن تلك الواقعة: أتعتقد فعلًا أننا بلغنا "العالمية"؟ أتعتقد أن أدبنا يتوجه حقًّا إلى الإنسانية؟ لا، لعلنا نكون، في أدبنا، في صورتنا عن أنفسنا، أشبه بمن شُبِّهَ له ولنا.

درويش لم يكن بـ"دبلوماسية" نزار قباني، ولا بـ"نميمة" عبد الوهاب البياتي، ولا بـ"صمت" أدونيس "المتعالي"، وإنما كان أقرب إلى المناضل، إلى الحزبي، الذي

.indd 51 29/07/2019 12:13:05

يـردُّ ويناقـش ويسـاجل. كان فاعـلًا ومؤثـرًا، وكان يسـتثير الخلافـات أيضًـا، فـلا ينعـم دومًـا بصـورة "إجماعيـة" عَمـا كانَـه، عَمـا يصـير عليـه، لتقدمـه السريـع في جـادة الشـعر العربـي الحديـث.

كثـيرون ممـن سـبقوه مـن شـعراء مـا كانـوا ليقبلـوا بنجوميتـه، وبألمعيتـه الشـعرية المتصاعـدة، فتلقاهـم يواجهونـه صراحـة، مثـل البياتـي، أو يتجنبـون الحديـث عنـه، في نـوع مـن التعـالي الضمنـي، كمـا مـع أدونيـس. أمـا مـع الأجيـال الشـعرية التـي تلتـه، وصاحبتـه، فكانـت العلاقـات متباعـدة وخلافيـة، مـع عـدد كبـير مـن شـعراء القصيـدة بالنـثر، قبـل أن "يتقبلـوه" ويُقـرُّوا بشـعريته، بدليـل الحـوارات الكثـيرة التـي خصَّـه بهـا شـعراء مـن أمثـال: سـامر أبـو هـواش، ونـوري الجـراح، وعبـاس بيضون، وسـيد محمـود، وعبـده وازن، وحسـين بـن حمـزة وكاتـب هـذه السـطور وغيرهـم.

.indd 52 29/07/2019 12:13:05

العاشق الدائم والزوج ... المستحيل

كان ذلك، ذات غروب، في "فندق الرشيد" في بغداد، عندما سمعتُ درويش يقول، بعد أن تناول سماعة الهاتف: "... أهلا بكِ". قمتُ طالبًا مغادرة جناحه، فكان أن قال لي: "لا، أرجوكَ. ابقَ معي... لن يطول الحديث معها".

بعد قليل، فتحَ درويش الباب من جهة الصالون، حيث كنا نجلس، وإذا بصبية ذات ضفيرة ممتدة على ظهرها، وعينَين تبرقان بأكثر من الكلمات المتعثرة فوق شفتَيها، تقف مقابلنا. ارتبكتْ بمجرد دخولها إلى الغرفة، بمجرد السلام بالأيدي بينها وبين... شاعرها الحبيب. دعاها إلى الجلوس. ترددتْ. تعثرتْ في مشيتها، ثم جلستْ، بعد أن سوَّتْ قعدتَها، وشدَّتْ بفستانها على

.indd 53 29/07/2019 12:13:05

ركبتَيها. كان درويش شديد البرودة، بينما كنت أراقب من دون كلام ما يجري أمام ناظري. راحت الصبية الفلسطينية، التي كانت تدرس الهندسة الكهربائية في بغداد، تتقاذف جملًا من بين شفتَيها، بعد أن حفظتْها وكررتْها في صدرها، إلا أنها ما أن طلبت استعادتها حتى تعثرت فيها، فكانت تأتي الجملة مقطوعة من طرفها، أو تأتي هذه قبل تلك...

قالت الصبية ما في صدرها، إلا أن التماع عينيها، وارتباك أصابعها، وارتجاف ساعدَيها فوق حضنها، كانت تشي بأكثر مِما تقوله الكلمات والحركات.

قالتْ ما عندها، ما في جعبتها، و... انتظرت. شكرَها درويش على كلامها، من دون أي إضافة مزيدة. ارتبكتْ الصبية، بعدما ران الصمت بينها وبينه. وقفتْ، واستأذنتْ بالخروج. رافقَها درويش في اتجاه باب الصالون. قلتُ في نفسي: المشهد ناقص! قبل أن تخرج الصبية، وتغلق الباب وراءها، عادت على أعقابها، بل استدارت، فيما كان درويش يستعد للاستدارة لكي يعود إلى جلسته السابقة، وبادرتْه بجملة لم تُعدّ لها قبل الموعد، لكنها أدارتها في صدرها قبل شهور وسنوات، وحدها مع

.indd 54 29/07/2019 12:13:05

نجمِهـا: لـو كان لي أن أختـار زوجًـا لي، لاخترتُـكَ.

قلتُ في نفسي: اكتملَ المشهد.

كان ذلـك في باريـس. التقـتْ عيناهـا بعينَيـه في بيتـي، في عشـاء نظمتُـه زوجتـي وأنـا، إثـر خـروج درويـش سـالمًا مـن بـيروت غـداة الاحتـلال الإسرائيـلي لهـا. كانـت مدعـوة إلى العشـاء بحكـم كونهـا جارتنـا في بنايـة مقابلـة لبنايتنـا في الدائـرة الثالثـة عـشرة في باريـس، وبحكـم كونهـا تكتـب الشـعر بدورهـا، ولكـن بالفرنسـية. علمـتْ بحديـث العيـون بعـد شـهور، عندمـا طالبتْنـي جارتنـا (بـدل ذكـر اسـمها) باللقـاء معًـا خـارج بيتـي أو بيتهـا، وهـو مـا كان، في مطعـم: اختـارت – وهـي مـن عائلـة تونسـية برجوازيـة – مِمـا لهـا أن ترويـه مـن قصـة غرامهمـا. كانـت مرتبكـة، ووميـض عينَيهـا لا يتوقـف عـن اللمعـان، وإن يتخللـه أحيانًـا خفـوت مريـب. تحادثنـي، فيبـدو عليهـا أحيانًـا كمـا لـو أنهـا تحـادث نفسـها، كمـا لـو أنهـا تريـد إقناعـي بمـا تقولـه، إذ تقولـه لي مـن دون غـيري، وللمـرة الأولى. كانـت أكيـدة ومـترددة في آن. تسـعى إلى التقـدم، لكنهـا تطلـب التأكـد مـن خطواتهـا.

كانـت رقيقـة مثـل بطلـة رومنسـية ملتاعـة في روايـة لتولسـتوي.

.indd 55 29/07/2019 12:13:05

كنـتُ أسـتمع إلى مـا تقولـه متقطعًـا مـن دون أن أعلـم المقصـود مـن سردهـا هـذه الأخبـار المتطايـرة عـلى مسـامعي عَمـا جـرى لهـا معـه منـذ العشـاء في بيتنـا. لـم أعلـق. لـم أوقفْهـا. تركتُهـا تحكـي، مـدركًا صعوبـة مـا تقولـه إذ تقولـه. وإذا بالجملـة الصاعقـة تُنهـي كلامهـا المتعـثر والمتمـادي: هـل تعتقـد أن درويـش سـيتزوجني؟

راعنـي ذلـك الموقـف، وحـرتُ جوابًـا عـلى مـا تطلبُـه منـي. سـألتُها: مـا الـذي دعـاكِ إلى التوجـه صوبـي؟ فأجابـتْ بتصميـم مثبتـةً نظرهـا في وجهـي – لأول مـرة في تلـك الجلسـة: لأننـي عرفـتُ، في أحاديثـي مـع محمـود، أنك أعدتُـه إلى رشـده، عنـد تـأزم علاقتـه بزوجتـه رنـا، وتسـارعِها صـوب الطـلاق. كنـتُ بـين المسـتمع والمتشـكك مِمـا كانـت ترويـه. كانـت جملتهـا الأخـيرة أقـرب إلى إفشـاء سر، وهـو مـا لا يتحـدث بـه درويـش لهـذا أو لتلـك مـن العابريـن والعابـرات في حياتـه.

لـم يتكـرر هـذا الحديـث مـرة ثانيـة. لـم أسـتعدْه، أو تسـتعدْه معـي، في جلسـة تاليـة، عـلى الرغـم مـن لقاءاتنـا معًـا، أو مـع درويـش. فقـد دعانـي إلى عشـاء معهمـا، في (قمـرت)، في ضاحيـة تونـس ذات الألـق المتوسـطي. تنبهـتُ،

.....indd 56 29/07/2019 12:13:05

في عشـاء المطعـم البحـري - وكنـت أجلـس قبالتهمـا -، أن يـده اليـسرى كانـت تختفـي مـن عـلى الطاولـة، في الوقـت الـذي تختفـي فيـه يدُهـا اليمنـى بدورهـا، في حـوار لطيـف مـا كان يخفيـه البريـق في عيونهمـا الثابتـة في وجهـي.

لـم يكـن الوقـت كافيًـا بعـد العشـاء، وبعـد الانتقـال إلى الـدارة التـي اسـتأجرَها درويـش في سـيدي بـو سـعيد، لتأمـل جمالاتهـا، إذ وجدتنـي مضطـرًا لمغـادرة المـكان لأكـثر مـن سـبب: بـات وجـودي عائقًـا أمـام مـا لـه أن يمتـدَّ بينهمـا في امتـداد أصابعهمـا، عـدا أننـي كنـت أقيـم في فنـدق "إنترناسـيونال"، وسـط شـارع الحبيـب بورقيبـة، في مدينـة تونـس، عـلى مسـافة تزيـد عـلى عشريـن كيلومـترًا.

وجدتُنـي في المـكان الغلـط، ولكـن كيـف الخـروج مـن الـدارة، ولا سـيارة أجـرة في المدينـة الصغـيرة، في ذلـك الشـتاء القـارس! ضحكـتُ، عندمـا دعانـي درويـش للنـوم في غرفـة الأصدقـاء. لـم يكـن أمـام جارتـي سـوى نقـلي بسـيارتها الفرنسـية الخفيفـة إلى المدينـة. لـم نـدرك ليلتَهـا، هـي أو أنـا، هـول العاصفـة الناشـبة في طبيعـة تونـس، ولا في ذلـك اللسـان البحـري الممتـد بـين الضاحيـة ووسـط العاصمـة. هـذا مـا تحققـتُ منـه في اليـوم التـالي، عندمـا اسـتعدتُ

.indd 57 29/07/2019 12:13:05

الطريــق نفســها، فتنبهــتُ إلى الأشــجار العاليــة المنتَزعــة مــن جذورهــا، والمرميــة عــلى أطــراف الطريــق البحــري. لــم أكــن أدرك ليلتهــا هــولَ العاصفــة، لأن نظــري الكليــل حــال دون ذلــك، فيمــا كان المطــر يحجــب النظــر مــن زجــاج الســيارة. وهــي لــم تكــن تــدرك بدورهــا لأن عاصفــة أخــرى كانــت تنشــب في أطرافهــا، ولا ســيما في كلامهــا المشــبوب عــن حبهمــا.

جارتــي لــم تتــزوج مــن محمــود، لكنهــا ســارعت إلى فيينــا للاطمئنــان عليــه بعــد عمليــة القلــب الأولى التــي أجراهــا. هــذا مــا أبلغتْنــي بــه بعــد وقــت... ذلــك أننــي لــم أكمــل حديثــي معهــا عــن زواجهــا المحتمــل منــه، إذ قلــتُ لهــا بأنــه لا ينــوي الــزواج مــن أحــد، عــلى مــا أظــن، بعــد فشــل زواجــه مــن رنــا قبانــي، زوجتــه الأولى. لــم يكــن هــذا جــواب درويــش لي، إذ تناولــتُ أمامــه بشــكل غــير مبــاشر الحديــث عنهــا (بعــد عشــائها معــي، وطلــب الاستفســار)، فــكان أن أجــاب جوابًــا أظهــرَ لي بأنــه لا يبادلهــا الغــرام عينــه.

لــم يكــن يصلــح درويــش للــزواج، عــلى مــا تحققــتُ أكــثر مــن مــرة معــه: في المــرة الأولى مــع رنــا قبانــي، ابنــة الســفير الســوري صبــاح قبانــي، أخ الشــاعر نــزار قبانــي. وهــي قصة

.....indd 58 29/07/2019 12:13:05

معروفة بتفاصيلها، ولا سيما زواجه منها بعد أمسية شعرية، في النهار عينه، وانتقالها معه إلى بيروت، ثم إلى باريس. التقيتهما معًا أكثر من مرة، في مكاتب مجلة "الوطن العربي"، أو في مقهى أو في مطعم بباريس، من دون أن أعلم مكان سكنهما في تلك الشهور القليلة من سنة 1979 في باريس. كان يبدو عليهما التوتر غالبًا، ولا سيما الصمت من قبلها.

أسرَّ إليَّ درويش، مرة، أنه طلَّقَها ثم تزوجها مرة ثانية، مضيفًا أنني من أعدتُه إلى الزواج منها من جديد. لم أعلم، يومها، سبب كلامه هذا، بعد سنوات على طلاقه القاطع معها؛ وعندما طلبتُ الاستيضاح منه عن ذلك، قال لي: إنها مزحة.

كان درويش شديد التكتم، قليل الإفصاح، في نوع من "الحماية" الأمنية، المستدامة له، فكيف في حياته الزوجية أو الغرامية! كان يروي أحيانًا الحكاية وعكسَها لي، أو يرويها لغيري في حضوري بصيغة أخرى. أهذه من عادات "النجم"؟

هكذا كان درويش يبدد، في أحوال أخرى، ما كان قد شاع عنه، فكيف إن شارك في تبديد الحكاية نفسها

.indd 59 29/07/2019 12:13:05

اثنـان: درويـش نفسـه وصديقـه سـميح القاسـم. كان ذلـك في جلسـة، في أحـد المطاعـم اللبنانيـة، في باريـس، في دعـوة غـداء أردتُهـا لي معهمـا لإنهـاء الخصومـة بينهمـا: "عـلى صحـن كبـة"، كمـا كتبـتُ الخـبر (مرفقًـا بالصـور) في مجلـة "كل العـرب". سـألتُ درويـش - في لحظـة تباسـط الأخبـار بـين صديقـين تباعـدت المسـافات والأخبـار بينهمـا - عـن حقيقـة غرامـه بالمطربـة نجـاة الصغـيرة، فـكان أن تعاونـا معًـا عـلى روايتهـا.

قـال درويـش إن الخـبر ذاع بعـد أن دبَّجَه أحـد الصحفيين المصريـين، مِمـن كانـوا يعملـون في نـشر أخبـار مدفوعـة الثمـن عـن نجمـات ونجـوم مصريـين، ومـن بينهـم: نجـاة الصغـيرة. نـشر الصحفـي خبـرًا، بعـد عشـاء نظمَـه أحمـد بهـاء الديـن ("الراعـي" الأول لوجـود درويـش في القاهـرة بعـد حلولـه فيهـا قادمًـا مـن موسـكو)، أفـاد فيـه أن أطـراف قصـة إعجـاب متبـادَل نشـأت في ذلـك العشـاء بـين الشـاعر (الـذي فـاز بنجـوم الشـهرة الأولى) والمطربـة الشـهيرة، التـي حلَّـتْ إلى جانبـه في العشـاء. أمـا تتمـة الحكايـة فقـد اسـتكملَها القاسـم: كان درويـش، قبـل رحيلـه مـن إسرائيـل، قـد طلـب مـن القاسـم أن يَبقـى عـلى صلـة بأمـه للعنايـة

.indd 60 29/07/2019 12:13:05

بهـا. فـكان أن تبلّـغَ القاسـم، في مكاتـب الجريـدة في حيفـا، أن حوريـة، أم درويـش، تطلـب منـه المجـيء عـلى عجـل إلى بيتهـا: انتقلـتُ، يومهـا، عـلى وجـه السرعـة، فـإذا بالوالـدة غاضبـة، حانقـة مـن تصرفـات ابنهـا محمـود الرعنـاء... بلـغ الأمَّ، مـن إحـدى صاحباتهـا، أن محمـودًا مقبـلٌ عـلى زواج قريـب مـن... نجـاة الصغـيرة، السـيئة السـمعة... لـم يكـن أمامـي (يتابـع القاسـم)، وأنـا مـا كنـتُ عـلى علـم بهـذا الخـبر أساسًـا، سـوى التخفيـف مـن صدمتهـا، فـكان أن قلـتُ لهـا: لا، يـا عمتـي. نجـاة الصغـيرة ليسـت سـيئة السـمعة، وهـي ليسـت مطربـة في كباريـه... إنهـا مُنْشِـدَة. ارتاحـت عمتـي حوريـة لكلامـي، وعرفـتُ بعـد وقـت أنهـا كانـت تـترك الإذاعـة المصريـة "شـغّالة"، وعندمـا كانـت تسـتمع إلى أغنيـة لنجـاة، في حضـور غيرهـا، كانـت تُنهيهـم عـن التكلـم، صارخـة: اسـكتوا... اسـكتوا... هـادي كنتنـا (الكنَّـة) المُنشِـدة بتنشـد.

يومهـا، لـم نتوقـف عـن الضحـك والتعليـق بـين خـبر وآخـر، إلا أن الضحكـة الأقـوى انطلقـت بعـد أن سـأل درويـش القاسـم: أقالـت أمـي فعـلًا إن تصرفاتـي... رعنـاء؟

.indd 61 29/07/2019 12:13:05

"غراميات" درويش معروفة في بعض أخبارها، ولا سيما غرامه ممن جعل لها اسم: ريتا، التي باتت على كل شفة ولسان مع غناء مارسيل خليفة القصيدة التي حملتْ اسمها. تعرَّف إليها في ريعان شبابها، وهي راقصة في فرقة، في احتفال نظمه حزب "راكاح"، والتي ما لبثنا أن عرفنا اسمها الحقيقي، وصورتها، بعد سنوات وسنوات، وقد باتت تقيم في ألمانيا، في فيلم وثائقي عن درويش.

غراميات عابرة، ،سريعة، أو استدامت لشهور وربما أكثر، وقد عرفتُ بعضها مما لا حاجة لذكره، ومِما يدخل تمامًا في النطاق الحميمي والخاص (حتى بعد وفاته).

لم يكن درويش يحب الكلام عن الزواج، ولا عن الأطفال، على الرغم من أنه ما كان يتأخر، في غير زيارة أو لقاء، عن سؤالي عن ابنتي: هالة، التي عرفَها طفلة تحبو...

سعيتُ، في غير مرة، إلى مفاتحته بالأمر، فكان يتهرب أو يُرفق جوابه بنكتة. لكنه بدَّلَ موقفه، ذات يوم، عندما طَلَبَ مني المجيء معه إلى المطبخ، في الجهة الخافية عليَّ في شقته الباريسية (في ساحة "الأمم المتحدة"). هذا لم يحصل في مرة سابقة، كما لو أنه يريد أن يتباسط معي

.indd 62 29/07/2019 12:13:05

في أمـر مفاجـئ، ربمـا في مـا يؤلمـه أو يزعجـه...

بعــد أن أعــدَّ القهــوة، انتقــلَ معــي إلى الشرفــة جنــب المطبــخ، التــي تقــع في الجهــة المقابلــة للشرفــة التــي كنــا نجلـس فيهـا تحـت أنظـار بـرج إيفـل. كان في تصرفـه مـا هـو غـير مألـوف... ركنـتُ إلى الصمـت. كنـتُ قـد انتبهـتُ، يومهـا، إلى غيـاب زوجتـه الجديـدة. كان حـزنٌ شـفيف يرشـح مـن عينَيــه، ومــن كيفيــة ارتشــافه فنجــان القهــوة. الصمــت ثقيـل. بادرتُـه: أليـس مـن مفاجـأة جديـدة، اليـوم؟ سـألني: عــمَّ تتحــدث؟ فأجبتُــه مــن دون تــردد: ألا تذكــر أنــك، في زيــارة ســابقة، فاجأتنــي بزواجــك؟

هـذا مـا حصـل فعـلًا في تلـك الزيـارة، إذ انتبهـتُ، بمجـرد دخــولي إلى صالونــه المــترع بلونــه الأبيــض، إلى قيــام ســيدة فارعـة الطـول، وجميلـة للغايـة، لاسـتقبالي. لـم أنقطـع عـن النظـر إليهـا بعـد جلـوسي: مَـن تكـون؟ فـكان أن بادَرَنـي: توقــف، شربــل... إنهــا زوجتــي. لــم أصدقْــه. أهــي مزحــة جديــدة؟ ثــم راح، أمــام ابتســامتي غــير المباليــة بكلامــه الأخــير، يعرِّفنــي بهــا: إنهــا حيــاة الهينــي... تعمــل في اليونســكو، في "الترجمــة الفوريــة"، وهــي صديقــة صديقــك المترجــم مصطفــى مرجــان، المــصري...

.indd 63 29/07/2019 12:13:05

راح درويـش يحادثنـي مـن دون أن ينظـر إلى وجهـي... كانـت الجلسـة مناسـبة لذلـك الغـروب، الـذي كان يتباطـأ في النـزول علينـا. لعلـه اختـار الجلـوس في هـذه الشرفـة غـير المشرفـة (بعكـس الأخـرى) إلا عـلى عمـارات كالحـة اللـون، لكـي يقـوى عـلى البقـاء مـع نفسـه، في جلوسـه معـي. كان حديثًـا متفرقًـا، يسـألني فيـه عـن زواجـي، عـن "غرامياتـي"، ليجـد في الحديـث مناسـبة للـكلام، فـلا يكـون اعترافًـا أو بوحًـا. إلا أن كلامـه كان أقـل مـن الإيحـاء بالشيء. كمـا لـو أنـه يبـدي رأيًـا في أمـر، ولا يعـترف بمـرارة أو بخيبـة، أو بشـأن حميمـي يخصـه ويوجعـه في تلـك الأيـام.

لـم يتـزوج درويـش بعـد ذلـك، لكنـه لـم ينقطـع عـن الغـرام.

قلمـا وجدتُـه مـن دون بدلـة – قاتمـة اللـون، بـين رماديـة وزرقـاء معتمـة – وإن ارتـدى قميصًـا، فهـو طويـل الكمـين، رسـمي، محتشـم، مـن دون ربطـة عنـق، في غالـب الأحـوال.

قلّمـا تبينـت شـعرة بيضـاء في شَـعره، إذ كان يصبغـه مـن دون توقـف...

مـع ذلـك كانـت الفراشـات لا تتوانـى عـن الـدوران حـول هالتـه...

.indd 64 29/07/2019 12:13:05

كان لحديثــه الفَكِــه والعــذب، ولالتفاتاتــه اللطيفــة إلى المــرأة، لهدايــاه (عــلى مــا عرفــتُ مــن حديــث رنــا قبانــي عنــه)، مــا يجــذب أكــثر مــن معجبــة، أكــثر مــن عشــيقة: اســتقبلتُه في المطــار ببــيروت، عنــد حلولــه في لبنــان بدعــوة مــن جامعتــي، ومــا أن وصلــتُ معــه، ومــع مديــر العلاقــات العامــة في الجامعــة إلى فنــدق "روتانــا جوفينــور" في الحمراء، حتــى وجــدتُ معجبــة (لــم تفارقــه عندمــا كنــت ألتقيــه في تلــك الأيــام، بــين بــيروت والجامعــة) تنتظــره في بهــو الفنــدق، بينمــا كانــت تســتقبلنا باقــات زهــر حمــراء أمــام الجنــاح الــذي كان لــه أن يحــلَّ فيــه مــن نجمــة غنــاء مشــهورة...

.indd 65 29/07/2019 12:13:05

"لستُ ملكَك وحدك، يا أبي"

أيام قليلة فصلت بين وفاة الكاتب الروسي ألكسندر سولجنتسين ووفاة محمود درويش. وربَّ صدفة خير من ميعاد! إذ إن صلة تجمع بين الكاتبَين، على الرغم من تباين مواقفهما السياسية. فلو اتبعَ القارئُ مسار الروسي لوجد أنه، بعد مقاومة وسجن، خرج من الوطن طوال سنوات إلى المنفى قبل أن يعود إليه من جديد. وهو ما فعله درويش نفسه... بل يمكن الحديث عن صلة بالسياسة طلبَها كتابةً كلٌّ منهما، باحثًا عن "العمق الوجداني" لشعب، في نوع من بناء مقاومة داخلية إزاء ما كان يتداعى وينهار في سياسات الحاكِمين الظالمين. قيل عن سولجنتسين إنه "كبير المنشقين"، وعن درويش إنه "شاعر المقاومة"، على أنهما، في الحالتَين، بحثا عما يبني "شرف" الكلمة، وفعلها الروحاني والجمالي في

.indd 67 29/07/2019 12:13:05

مصائـر الشـعوب.

سولجنتسـين حـارب الماركسـية لكـي يعـود إلى وطنـه، بينمـا وجـد درويـش فيهـا، وفي صيغتهـا اليسـارية الملطفـة، مـا يبنـي مـشروعَ وطـن. ماركسـيتُه ظلـت أكيـدة بعـد توقفـه عـن الانتسـاب إلى الحـزب الشـيوعي الإسرائيـلي ("راكاح")، وإن لـم يرفقهـا بانتسـاب مناسـب لهـا، بعـد التحاقـه بمنظمـة التحريـر الفلسـطينية. التحـق بمـشروع "العـودة"، مـن دون نسـب إيديولوجـي أو حزبـي. كان قريبًـا مـن أبـي عمـار، مـن دون أن يلتحـق بـ"فتـح"؛ وكان متفاعـلًا وقريبًـا مـن يـاسر عبـد ربـه مـن دون أن يلتحـق بـ"الجبهـة الديمقراطيـة لتحريـر فلسـطين" (نايـف حواتمـة).

في تلـك السـنوات، بعـد خروجـي مـن بـيروت (أيلـول-سـبتمبر مـن سـنة 1976)، رحـتُ أقطـع، في مـا يخصنـي، مـع نسـبي الحزبـي، وأتخفـفُ مـن قناعاتـي وأفـكاري الماركسـية. بـل أجريـت مراجعـة إيديولوجيـة واسـعة قادتْنـي، في سـنواتي الباريسـية الأولى، إلى التخلـص مـن الماركسـية بوصفهـا – كمـا قـال عنهـا الفيلسـوف جان-بـول سـارتر في اختتـام أحـد كتبـه الفلسـفية – "الأفـق غـير القابل للتجـاوز" للفكـر الإنسـاني. كانـت باريـس تعايـش تبلـور

.indd 68 29/07/2019 12:13:05

جماعة فلسفية، أُطلق عليها تسمية "الفلاسفة الجدد" (Les nouveaux philosophes) مع: أندريه غلوكسمان، وبرنار-هنري ليفي، وجان-ماري بينوا وغيرهم. هذا ما راح يتأكد في كتاباتي الصحفية، حتى إنني أجريتُ عدة مقابلات مع عدد من هؤلاء الفلاسفة، ونشرتُها في مجلة "الوطن العربي"، حيث كنتُ أعمل. في هذه المجلة التقيت بدرويش "زميلًا" لم يدمْ عملُه فيها فترة طويلة، مثلما كنت آمل. إلا أنها كانت كافية لكي تحصل أكثر من مجادلة بيني وبينه حول جدوى الماركسية.

كنت أتولى، حينها، مسؤولية القسم الثقافي، فجاءَني وأخبرَني بظُرفه المعهود، بين المزاح والجد، أنه بات "مسؤولي المباشر"... ضحكتُ بدوري، ثم سألني: ماذا تنوي نشره من مواد في عدد الأسبوع القادم؟ أخبرتُه أنني في صدد إنهاء مقال بعنوان: "ترانزيت الثقافة في لبنان: السلفيون الجدد"[8]، وأتناول فيه ظاهرة لافتة في بيروت جرت، غداة "الثورة الخمينية"، بين أعداد من الكُتاب والصحفيين المعروفين، وأدت إلى إشهار بعضهم (المسيحي) المذهب الشيعي (مثل المسرحي المعروف

8) مجلة "الوطن العربي"، باريس، العدد 145، ص 60 - 61.

.....indd 69 29/07/2019 12:13:05

روجيه عساف وغيره)، وبعضهم اليساري مبايعته للخميني "قائدًا" للحراك الثوري الجديد (إلياس خوري، حازم صاغية وجوزف سماحة وغيرهم) بوصفه "إمام الشرق".

الداعي إلى كتابة هذا المقال هو مجموعة التغيرات الثقافية في سِيَر بعض الكتّاب والصحفيين "الواعِدِين" في لبنان، لا سيما في فضاء جريدة "السفير"، حيث انتقلت أعلامُهم من اليسارية إلى الخمينية، في موقف عكسَ - في تقديري - يأسًا من مآل الحرب في لبنان، و"تخلفَ" اليسار اللبناني عن إداء مهمته "الثورية" التي كانت متوقعة من هؤلاء.

أدونيس شملَه التغير بدوره، بل دشَّنه بالأحرى غداة إطاحة شاه إيران من الحكم، فنشر قصيدة في الصفحة الأولى من "السفير"، كتب فيها:

كيف أروي لإيران حبي؟

(...)

وجهُك، يا غرب، ينهار

.indd 70 29/07/2019 12:13:05

وجهك، يا غرب، مات

شعبُ إيران شرقٌ تأصلَ في أرضنا،

ونبيٌّ

إنه رفضنا المؤسس، ميثاقنا العربي[9].

هـذا في الوقـت الـذي ارتفعـتْ فيـه فـوق جـدران بـيروت (الغربيـة) شـعارات مثـل هـذه: "اليـوم إيـران، وغـدًا فلسـطين"؛ وكانـت قـد سـبقتها تصريحـات القيـادي الفلسـطيني أبـي إيـاد: "طريـق تحريـر القـدس تمـرُّ مـن جونيـه"!

كنـتُ أتابـع هـذه التغـيرات مـن باريـس، وأتابـع السياسـات الخمينيـة الأولى في إيـران. هـذا مـا ابتـدأ مـع صـدور قـرار للخمينـي يقـضي بمنـع الموسـيقى (مـن دون تفسـيرات مزيـدة). وقامـت الصحفيـة والكاتبـة المصريـة (الجامعيـة في بغـداد آنـذاك) صافينـاز كاظـم بنـشر مقالـة في المجلـة التـي أعمـل فيهـا تتفهـم فيهـا قـرار الخمينـي، وهـي الزوجـة السـابقة للشـاعر، رفيـق الشـيخ إمـام: أحمـد فـؤاد نجـم.

9) أدونيس: "تحية لثورة إيران"، جريدة "السفير"، بيروت، 12 شباط ـ فبراير 1979.

.indd 71 29/07/2019 12:13:05

مقالتي هذه هي المقالة الوحيدة التي "راقبَها" درويش، في جلسة انتهت إلى جدال بيننا، ليس حول الخمينية، بل حول الماركسية والماركسيين العرب: ذكرتُ في المقالة، وأوردتُ تقويمات تُظهر خيبة مثقفِين لبنانيين من الماركسية، فكان يعمد إلى الاحتفاظ بكلامي، ويزيد عليه: كما يزعمون، أو: كما يزعم البعض. كما لو أن ما أكتبه عن هؤلاء اليساريين السابقين (الذي يكشف تهافت الماركسية المبكر، والأكيد، في بيروت)، وعن ملاحظاتي، ينقل كلام غيري أو "مزاعمهم". لم يكن يريد تجنيب بعضهم النقد، وإنما تجنيب الماركسية نفسها مِما تتعرَّض له من مراجعات ومواقف.

حلَّ درويش كاتبًا في المجلة، مع نزار قباني، وغادة السمان في شهور "العسل" المعدودة بين نظامَي البعث في العراق وسورية، غداة قرار الجامعة العربية طرد مصر من عضويتها إثر التوقيع على معاهدة الصلح بين مصر وإسرائيل (في 13 آذار-مارس من سنة 1979، بعد خمسة أيام من التصديق على المعاهدة). كانت "الوطن العربي" المجلة الأوسع انتشارًا في الدوريات العربية، من دون أن تنعم بأقلام "كبار" الكتّاب العرب. وهو ما كان

.indd 72 29/07/2019 12:13:05

يعمل عليه صاحبها وليد أبو ظهر، بالتعاون مع مدير التحرير نبيل مغربي.

كانت هذه إقامة درويش الأولى في باريس، وقد حلّ فيها مع زوجته الأولى: رنا قباني. إلا أنها كانت إقامة "قلقة" له، بل لهما أيضًا. كان درويش يجرِّب العيش لمرة أولى في مدينة أوروبية وشهيرة: كنا نتمشى أحيانًا في جادة الشانزيليزيه، التي يتفرع منها "شارع ماربوف"، حيث تحتل المجلة طابقًا في البناية القديمة. نتمشى إثر غداء، أو بعد تناول فنجان قهوة. فاجأني، ونحن نتناقش في نزولنا المتباطِئ في الجادة الشهيرة، بقوله: بيروت أفضل... فسألتُه: لماذا؟ فأجاب: ألا تلاحظ أن أحدًا، هنا، لا يوجِّه لنا التحية؟

هذا ما تنبهَ إليه غيره، من أمثال الكاتب المسرحي والشاعر عصام محفوظ (في مجلة "النهار العربي والدولي") والصحفي إبراهيم سلامة (مدير تحرير مجلة "المستقبل")، فيما كنتُ - بخلافهم - أرتاح لمثل هذه "العمومية": كانوا مثل سمكٍ خرج من بحر بيروت: كنتُ أقول لنفسي... هم عاشوا ألق بيروت، بينما كنتُ أكتفي

.....indd 73 29/07/2019 12:13:05

أحيانًا بالعبور أمام مقهى "الهورس شو"، والتلفتِ إليهم والتأكدِ من وجودهم فوق طاولاته العامرة.

كان قلقًا في المجلة نفسها، حيث فاتحني، ذات يوم: أتعلم أنني لم أعرف، حتى هذه الساعة، راتبي الشهري في المجلة؟ وأمام دهشتي لِما يُخبرني به: أبو خالد (وليد أبو ظهر) يمرر لي آلافًا من الفرنكات مرة تلو مرة، من دون أن أنجح في ربط هذه المبالغ بعضها ببعض.

كانت أيامًا متسارعة، بوقائع دراماتيكية، إذ لم تمض سوى شهور معدودة على "الصلح البعثي" لكي ينفرط من جديد. "السيد النائب"، صدام حسين، يتسلم الحكم من الرئيس أحمد حسن البكر، ويُجري عمليات إعدام واسعة في صفوف القيادة العراقية، قبل أن يعلن الحرب ضد إيران في 22 أيلول-سبتمبر من سنة 1980.

لم يلبث أن توقف درويش عن الكتابة في المجلة (وكذلك قباني والسمّان)، وكانت إقامته هذه "مأذونة"، أي متناسبة مع الحدود السياسية الفلسطينية المتاحة، بما يتوافق مع سياسات منظمة التحرير الفلسطينية. فقد كان درويش، حينها، منضويًا في أجهزة "المنظمة"، ومتماشيًا مع سياساتها. لم يعد حزبيًا، ولم ينتسب

.indd 74 29/07/2019 12:13:05

إلى أي منظمة "فدائية"، لكنه بات منخرطًا في المشروع السياسي للمنظمة، وبقيادة ياسر عرفات لها.

هذا ما كنتُ قد تنبهتُ له، مع كثيرين في بيروت، بمجرد الاستماع، مع رفاق النضال، إلى خطاب ياسر عرفات في الأمم المتحدة، في 13 -11- 1974. سارعَ غير واحد منا إلى القول: إن درويش كتبَ الخطاب، أو أجرى لمساته "الفنية" عليه. كانت خطبةُ عرفات "الطلةَ الدبلوماسية" الأولى لمن سيعمل، منذ ذلك التاريخ، على إقامة "سلطة فلسطينية" فوق أي قطعة أرض من فلسطين التاريخية يندحر فيها المحتل، أو ينسحب منها. وهو ما كنتُ قد عاينتُه عن قرب في مجلة "الحرية"، المجلة الحزبية المشتركة بين تنظيمَين ماركسيَّين، لبناني وفلسطيني، متحدرَين من حركة "القوميين العرب": أقدم أبو ليلى (وهو الاسم الحركي لقيس عبد الكريم، العراقي، عضو المكتب السياسي في "الجبهة الديمقراطية لتحرير فلسطين") على إثارة جدلٍ واسع حول مشروع "السلطة"، أو "الدولة". تنبهَ أبو ليلى وغيره من قادة المقاومة، ولا سيما في حركة "فتح"، إلى أن ما أقدمتْ عليه مصر وإسرائيل في اتفاقيتهما قد يؤدي إلى مفاوضات (وهو المذكور في الاتفاقية) مع الأطراف العربية الأخرى (بما

.indd 75 29/07/2019 12:13:05

فيهـا الفلسـطينية)، المعنيـة بتنفيـذ قـرار الأمـم المتحـدة بعـد حـرب 1967: القـرار 242. كانـت هـذه القيـادات تخـشى مـن أن يتـوكل، أو أن يُدعـى، المملكـة الأردنيـة للتفـاوض عـلى "الأراضي الفلسـطينية المحتلـة"، في ظـل تنامـي الحديـث عن "حكـم فيـدرالي" أردني-فلسـطيني. وهـو مـا كان قـد مهَّـدَ لـه العمـل القيـادي الفلسـطيني في النطاقَـين العربـي والـدولي عـلى اسـتحصال اعـتراف "رسـمي" بـأن منظمـة التحريـر هـي "الممثـل الشرعـي والوحيـد" للشـعب الفسـطيني. كان يـاسر عرفـات يشـعر، بحاسـته السياسـية النشـطة، أن هنـاك مكانًـا (محتمـلًا) وشاغـرًا، لا يجـوز التهـاون بـه، أو التغافـل عنـه بحجـة الدفـاع عـن مـشروع منظمـة التحريـر التأسـيسي الـذي يقـول بقيـام دولـة ديمقراطيـة واحـدة، فلسـطينية-إسرائيلية، فـوق أرض فلسـطين التاريخيـة.

مـشروع "الدولـة" أو "السـلطة" أحـدثَ شـقًّا حـادًّا في "المنظمـة" بـين تيارَيـن: بـين تيـار "الدولـة" وبـين تيـار "الرفـض"، والمسـتمر - بمعنـى مـا - حتـى أيامنـا هـذه. هكـذا نبهنـي الشـاعر الفلسـطيني عـز الديـن المنـاصرة، عنـد إعـداد مادتـي الصحفيـة عـن مجموعتـه الشـعرية الجديـدة في جريـدة "السـفير" (وكنـتُ أول مسـؤول لصفحتهـا الثقافيـة، قبـل سـعد اللـه ونـوس)، إلى أنـه "أول"

.....indd 76 29/07/2019 12:13:05

شـاعر فلسـطيني يرفـع علـم الدولـة في قصيدتـه، ويذكرهـا ذكـرًا صريحًـا.

انخـرط درويـش في هـذا المـشروع السـياسي، وعمـل مـن أجـل إحقاقـه، مقرَّبًـا مـن يـاسر عرفـات بصـورة مزيـدة، مـا لـه علاقـة بـدور درويـش "الكتابـي"، ودرايتـه السياسـية، فضـلًا عـن معرفتـه الواسـعة بالشـؤون الإسرائيليـة (التـي بلغـت في طـور لاحـق الاجتماعـات – السريـة بالطبـع – مـع قيـادات مـن اليسـار الإسرائيـلي).

مسـار متقطـع، وسـيرة متقلبـة، منـذ أن سـمحت السـلطات الإسرائيليـة بمغـادرة محمـود درويـش في 5 آذار-مـارس (قبـل أيـام قليلـة مـن تاريـخ ميـلاده) مـن سـنة 1970 إلى موسـكو. غـادر إلى عاصمـة الاتحـاد السـوفييتي للتحصيـل الـدراسي، وهـو العضـو البـارز في حـزب "راكاح" القريـب مـن سياسـات موسـكو، والـذي انتسـب إليـه، مثلُـه، أعـداد مـن المعارضـين الفلسـطينيين في الداخـل: بالنسـبة لشـيوعي شـاب (مثـل درويـش)، موسـكو هـي الفاتيـكان، لكننـي "اكتشـفت أنهـا ليسـت جنـة"، عـلى مـا قـال في حـوار صحفـي متأخـر عـن إقامتـه هـذه في العاصمـة السـوفييتية.

لـن تنقطـع بعدهـا رحـلات درويـش. سـيخرج مـن أرض

.indd 77 29/07/2019 12:13:05

فلسطين "التاريخية" لكي "يعود مع العائدين إليها"، حسب تعبيره. لن يمضي السنة في موسكو، وسينتقل منها إلى القاهرة، في انتقالة قيل عنها الكثير بعد وفاته، وعن أنها "خطة" مصرية تعود إلى أيام عبد الناصر، لكنها ستبصر النور بعد وفاة عبد الناصر عمليًا.

سينتقل إلى "وطنه الثاني" (حسب تعبيره)، وسيقوم في القاهرة بجملة أعمال تشير إلى "استقرار" جديد وأكيد له، مثل نشره المقالات والقصائد في "المصور" وغيرها. كان شاعرًا معروفًا في عداد "شعراء المقاومة" من دون أن يكون – بعدُ – الأبرز فيهم بالضرورة. لكن القاهرة رسمت له عقدَ استقبال يليق بالمشاهير، وأبعد من الشعر والأدب والسياسة نفسها. بات "نجمًا اجتماعيًا" يليق الظهور معه في مناسبة اجتماعية، في مطعم، في أي مناسبة : أقام في فندق "شبرد"، ثم في شقة قريبة في "الغاردن سيتي". وكان له مكتبٌ في جريدة "الأهرام"، في الطابق السادس من برج الأهرام، مع كتّاب الأهرام: توفيق الحكيم، نجيب محفوظ، يوسف إدريس، لويس عوض، زكي نجيب محمود، بنت الشاطئ وغيرهم. وسيحتفظ بعلاقة ثابتة (لم تنقطع حتى وفاة درويش) بمحمد

.....indd 78 29/07/2019 12:13:05

حسنين هيكل، حتى إنني فوَّتُّ لقاء مع هيكل، بصحبة درويش بالطبع، في العام 2007: كنتُ قد طالبتُه، في مرة سابقة، إن التقينا في القاهرة، أن أذهب معه - إن سمحت المناسبة – لزيارة "الأستاذ"، الذي ما أتيح لي اللقاء به في السابق، إذ كان هيكل بعيدًا عن "المناسبات"، منصرفًا بقوة متعاظمة إلى تحرير الكتب السياسية المتلاحقة، وإلى أحاديثه التلفزيونية المثيرة، وإلى إشرافه على مجلة درويه في القاهرة: لم أكن في الفندق حين اتصل بي درويش للالتحاق به؛ وهو ما عاتبني عليه في المساء.

كان هيكل – بالنسبة لدرويش – من أكثر الشخصيات التي يُغدق عليها الصفات الحسنة أمامي: لذكائه، لحسن اطّلاعه الواسع على مصادر المعلومات، لموقفه القومي "السليم"، ولنباهته وظرف مجلسه... وهي تعابير مستقاة من كلام درويش نفسه.

من المؤكد أن كثيرين من النخبة المصرية السياسية النشيطة (من محمد حسنين هيكل إلى أحمد بهاء الدين ولطفي الخولي وغيرهم) كانوا متنبهين لحاجتهم لدرويش في تلك السنوات، التي أعقبتْ هزيمة مصر أمام الجيش الإسرائيلي، والتي حملت اسمًا جديدًا لها، وهو:

.indd 79 29/07/2019 12:13:05

"حـرب الاسـتنزاف". كان "تلميـع" صـورة درويـش يُسـهم، مـن دون شـك، في هـذه السياسـة "الرمزيـة": سياسـة الحرب بالصـورة، تجـاه جـرح مـصري، وطنـي وقومـي، تعمـل عـلى مداواتـه، قبـل الانقضـاض عليـه في حـرب أكتوبر-تشريـن الأول في سـنة 1973. إلا أن درويـش تنبّـه، منـذ أسـابيعه المصريـة الأولى، إلى مـا يصيبـه، إذ يـصرح لفـؤاد مطـر في لقـاء لافـت لـ"الملحـق" الأدبـي لجريدة "النهـار" البيروتيـة: "أرجو أن تضعونـي في حجمـي الطبيعـي، وأرجـو أن أنسـحب مـن هـذه الأضـواء المبالَـغ فيهـا. أنـا لسـت سياسـيًّا محترِفًـا كمـا صوّرتنـي بعـض الصحـف العربيـة في الأسـابيع الأخـيرة إلى درجـة المبالغـة، وإلى حـدّ مطالبتـي بحمـل كل القضيـة الفلسـطينية"[10].

بـدأ العمـل لانتقالـه إلى القاهـرة في شـباط-فبراير مـن سـنة 1971، وانتهـت إقامتـه فيهـا في آذار-مـارس (عـلى وجـه التقريـب) مـن سـنة 1973. في ختـام هـذه المقابلـة، يفيـد فـؤاد مطـر أن درويـش سـيغادر بعـد أقـل مـن شـهر القاهـرة

10) ينشر الشاعر أحمد الشهاوي في مجلة "البيت" المذكورة، في العدد الخاص عن درويش، عددًا من يومياته التي تشمل أخبارًا مدققة عن درويش، ومنها بدايات عمل درويش في مؤسسة "الأهرام" وغيرها، م. س.، ص ص 85 - 93، و 249 - 257. وفي يوميات الشهاوي معلومات أخرى، لاحقة، وتتناول تدقيقات درويش في شعره.

.indd 80 29/07/2019 12:13:06

إلى لبنـان: "ففـي صيـدا أقـارب لـه ينتظرونـه ليشـاهدوا في قسـمات وجهـه ديارَهـم الغاليـة في فلسـطين. وبعـد لبنـان سـيزور الأردن وسـوريا لـيرى المخيمـات"...

لـم تكـن انتقالـة درويـش بالهيّنـة، فقـد عـبَّرَ رفاقـه، الذيـن تركَهـم، عـن رفضهـم لقـراره، فيمـا "خوَّنتـه" أكـثر مـن جريـدة ومجلـة، بـين بـيروت وعَمـان. كان يشـعر هـو بـالأسى لمـا تركَـه وراءه، وإزاء عائلتـه خصوصًـا. كتـب فـؤاد مطـر في المقابلـة عينهـا: "لنفـترض أن حمامـة زاجلـة حطـتْ عـلى محمـود درويـش، وهـو في القاهـرة، فـإلى مَـن يبعـث معهـا برسـالة إلى فلسـطين؟". فكتـب الشـاعر مبـاشرة رسـالة مطوّلـة إلى والـده، وهـو الابـن الثانـي بـين أربعـة أخـوة وثـلاث أخـوات، وجـاء فيهـا: "أبـي العزيـز. تحياتـي. لا تحـزن، يـا أبـي، فأنـتَ لـم تلدنـي لـكَ. ولا تكـن أنانيًّـا، فلسـتُ ملـكَكَ وحـدك. إننـي ابـن كلِّ الآبـاء الفلسـطينيين وكل الأمهـات الفلسـطينيات. قـلْ لأمـي التـي لا تقـرأ إننـي لسـت بعيـدًا عـن خبزهـا وقهوتهـا، وقـل لهـا إنهـا هـي البطلـة الحقيقيـة. ولكـن أرجـو أن لا تسـمح لهـا بالوقـوف طويـلًا أمـام صورتـي المعلقـة عـلى الجـدار، وأرجـو أن تـوزِّع حبَّهـا عـلى أخوتـي. إننـي مديـن لكـم بـكل النجـوم التـي

.indd 81 29/07/2019 12:13:06

أراهـا في السـماء، وبـكل الصـبر والإقـدام عـلى الحيـاة. في مطـار موسـكو فوجـئ أصدقائـي بأننـي أنفجـر بالبـكاء. لـم يكـن بكائـي عـلى أصدقـاء أودِّعُهـم. لكـن بكائـي كان عـلى الذيـن لـم أكـن عائـدًا إليهـم. لـم أكـن عائـدًا إليكـم. لـم أكـن عائـدًا إلى الوطـن. كلكُـم وطنـي. أنـتَ وطنـي. والصليـبُ وطـن. آه. الوطـن. وأرجـو أن نلتقـي ولـو في المـوت في بقعـة مـا مـن هـذا الوطـن الضـاري. وتحياتـي لكـم واحـدًا واحـدًا، وأرجـو ألا تسـمحوا لهـذه الحمامـة التـي تحمـل رسـالتي، أرجـو ألا تسـمحوا لهـا بالعـودة".

كانـت رحلتـه المتجهـة مـن موسـكو إلى القاهـرة طويلـة للغايـة، عـلى مـا يبـدو...

إذا كانـت إقامـة درويـش في موسـكو أقـرب إلى رحلـة ممتـدة، فـإن إقامتـه في القاهـرة سـتبدو صـورة مصغَّـرة عمـا سـتكون عليـه حياتـه المقبلـة: التنقـل بـين أكـثر مـن مدينـة، والإقامـة المديـدة، ولكـن العابـرة في الوقـت عينـه. وهـو الرسـم الحياتـي لـه بعـد القاهـرة، عندمـا يغادرهـا للإقامـة في بـيروت: الجديـد والحاسـم في بـيروت، هـو أنـه يلتحـق عمليًـا بمـشروع القيـادة الفلسـطينية عمـلًا وتخطيطًـا، ويتنقـل وفـق سياسـاتها وحاجاتهـا، بعـد أن

.indd 82 29/07/2019 12:13:06

تعـرف إلى أبـي عمـار في القاهـرة، إثـر حلولـه فيهـا. يقـول في الحـوار المذكـور مـع فـؤاد مطـر: "لسـتُ مرتاحًـا للاسـتمرار في تصويـر الشـعب الفلسـطيني كمجموعـة مـن النـاس تعيـش في مخيمـات، بمعنـى أنـه ليـس مـن الـضروري أن يسـتمر الفلسـطينيون في العيـش في المخيمـات لكـي تكـون لهـم قضيـة". كان يريـد اللحـاق بمـا هـو "مـشروع القضيـة"، الـذي يسـحب الفلسـطيني مـن المخيـم إلى مـشروع الدولـة؛ أي الانتقـال، بمعنـى مـا، مـن فلسـطين أحمـد الشـقيري، إلى فلسـطين يـاسر عرفـات، الرئيـس التـالي لمنظمـة التحريـر الفلسـطينية[11].

كان درويـش مقاومًـا في إسرائيـل، وذاق السـجون والتحقيقـات غـير مـرة فيهـا، ناشـطًا في حـزب "راكاح"، محـررًا في جريدتـه "الاتحـاد"، ثـم رئيـس تحريـر مجلـة "الجديـد" الأدبيـة الشـهرية. التحـق في العـام 1961 بالحـزب الشـيوعي، فتعـرف فيـه واختلـط برفـاق، بـين فلسـطينيين وإسرائيليـين، بـل كان يحتـاج في إسرائيـل نفسـها إلى "تصاريـح سـفر" للتنقـل بـين المـدن والقـرى، فكان أن سُـجن أكـثر مـن مـرة بسـبب انتقالـه مـن حيفـا إلى غيرهـا مـن

11) فؤاد مطر: "الملحق" الأدبي لجريدة "النهار"، بيروت، 13 آذار-مارس 1971.

.indd 83 29/07/2019 12:13:06

دون "تصريح". هكذا مُنع من مغادرة حيفا طوال عشر سنوات، وبقي بعد العام 1967 قيد الإقامة الجبرية... إلا أن هذا النضال ما كان يستوعب تطلعاته. كان يحتاج إلى مسرح حركي، إلى جانبٍ من لهم القدرة على الفعل، ولو بالعنف العلني، على رسم طريق العودة، وإقامة دولتهم العلمانية الديمقراطية.

هذا ما شرع به منذ انتقالته إلى بيروت، رابطًا حياته، وإقاماته، وكتاباته، وعمله السياسي، بمشروع "المنظمة". حتى انتقالته الأخيرة، قبل وفاته، إلى عَمان ورام الله، كانت متوافقة مع هذه السياسات، على الرغم من انسحابه الرسمي من القيادة (في العام 1993)، إثر خلافه معها، ومع ياسر عرفات، حول "اتفاقية أوسلو".

سيقيم درويش في بيروت ما يقرب من السنوات العشر، قبل أن يغادرها في العام 1982... نهائيًا، عائدًا إليها في سنوات تالية، في زيارات، تبعًا لـ"دعوات"، ومنها دعوة جامعتي، جامعة البلمند، له في العام 2001 لتكريمه فيها. كانت المناسبة هذه مؤاتية، في لقاء تلفزيوني مع الإعلامية جيزيل خوري (قناة L B C)، لكي يعلن، في الجملة الأخيرة من المقابلة، "اعتذاره" من الشعب

.indd 84 29/07/2019 12:13:06

اللبنانـي عمـا كانتـه بعـض السياسـات الفلسـطينية في لبنـان خـلال الحـرب في لبنـان، ومـا قبلـه.

يَذكـر بعـض اللبنانيـين مقالـة لافتـة لغسـان كنفانـي (مـن قـراء إحـدى المجـلات الفلسـطينية في لبنـان) انتقـدَ فيهـا مـا قـام بـه أحـد "الفدائيـين" الفلسـطينيين في قريـة جنوبيـة مـن اعتـداء عـلى صبيـة لبنانيـة في مطالـع السـبعينيات... إلا أن هـذا النقـد مـا لبـث أن اختفـى في السـنوات التاليـة، ولا سـيما بعـد انفجـار الحـرب في لبنـان، لصالـح الشراكـة والانخـراط في النـزاع المتفجـر: انفجـار محـدود في ربيـع سـنة 1973، ولكـن في ترسـيمة شـاملة لمـا سـيؤول إليـه الحـال، ثـم الانفجـار المتوسـع والمتمـادي في ربيـع سـنة 1975. هـذا لـم يقتـصر عـلى نـزاع مسـلح لبناني-لبنانـي (في التبـاسٍ وتداخـلٍ بـين السـياسي-الحزبي، اليسـاري واليمينـي، وبـين تشـكيلات طائفيـة)، وإنمـا عـلى شراكـة فلسـطينية نشـطة ومتنامية مـع طـرف لبنانـي ضـد طـرف لبنانـي آخـر. وهـو انفجـار العنـف الـذي "اسـتجمعَ" بعـض أسـباب الـصراع الـشرق الأوسـطي فيـه، مـا أدى إلى: انفـراط "الصيغـة" اللبنانيـة، و"انقسـام" الدولـة، لا سـيما إلى "شـقّ" الجيـش اللبنانـي إلى جيشَـين... هـذا مـا ولَّـدَ

.indd 85 29/07/2019 12:13:06

فراغًـا أكيـدًا (أو تـمَّ اسـتيلاؤُه)، فسـارع غـير جهـة، لبنانيـة وعربيـة وإسرائيليـة، إلى الإمسـاك بأقسـام منـه، وإلى توجيـه دفـة النـزاع فيـه: هكـذا باتـت طريـق تحريـر فلسـطين تبـدأ مـن هـذه المدينـة اللبنانيـة أو تلـك، حسـب تصريـح أحـد القـادة الفلسـطينيين حينهـا...

سـتكون لدرويـش في بـيروت حيـاة نشـيطة، ذات مقاديـر مـن "الاسـتقرار"، مثـل مجيئـه بزوجتـه الأولى للإقامـة معـه فيهـا. وهـو مـا يتضـح أكـثر في انخراطـه العضـوي النظامـي في منظمـة التحريـر، حيـث أقامـت مـا يشـبه الدولـة لهـا في لبنـان، لجهـة تأسـيس وانتظـام عمـلِ مؤسسـاتها، بـين سياسـية وعسـكرية ودبلوماسـية وإعلاميـة وثقافيـة وغيرهـا.

.indd 86 29/07/2019 12:13:06

بين المتنبي وياسر عرفات

كانت لدرويش صلة متمادية بالمتنبي، الذي ما كان "ديوانه" يفارقه في حلّه وترحاله، على ما أفادني ذات يوم، على متن طائرة. ومن يَعد إلى شعر درويش يتحقق من أثر المتنبي الجلي فيه، ومن الإحالات العديدة إلى شعره، ومنها ما قاله، بعد المتنبي، في الخروج من مصر في نهاية السبعينيات من القرن المنصرم. وهي صلة تحتاج إلى تبين أشد في العلاقة بين الشعر والسياسة، حيث إنها ما خلت من مكابدات وقربى وابتعاد وغيرها من العلاقات المتواشجة بينهما في عالم العربية، في قديمها كما في راهنها.

أخبرَني، ذات يوم، ما حصل له مع الرئيس حافظ الأسد: دُعي إلى أمسية في دمشق، فكان أن نقلوها –

.....indd 87 29/07/2019 12:13:06

بسبب الحشد الجماهيري الهائل – من مكانها إلى ملعب كرة القدم. ألقى فيها غير قصيدة، مثل "مديح الظل العالي"، وتعرض فيها إلى "خيانات" الأنظمة الحاكمة. بعد الأمسية، كان درويش ينوي تمضية الليلة في دمشق، لكن المسؤول الأمني الفلسطيني دعاه إلى مغادرة دمشق للتو من دون شروحات مزيدة. رضخَ درويش للأمر، وعاد إلى بيروت على وجه السرعة. عَرف بعد أيام أن الأسد عاد إلى بيته في ذلك النهار المشهود، فأدار التلفزيون، واستمع إلى أمسية درويش، فكان أن طلب من أمنه الخاص الإتيان بالشاعر الفلسطيني، فأخبروه بأنه عاد إلى بيروت. تفرستُ في وجه درويش، يومها، متسائلًا عما يريد الإشارة إليه: أتعرف... الحكام ليس لهم ما يفعلونه إذ يعودون إلى بيوتهم غير مشاهدة التلفزيون...

في غير قصيدة، في غير مجموعة شعرية، توجّه درويش إلى أكثر من حاكم، ومنها إلى ياسر عرفات نفسه، الذي كتب له أجمل نصوصه السياسية، "التأسيسية"، إلى أن قال له (ولأبيه): "لماذا تركتَ الحصان وحيدًا؟".

قد يكون أجمل النصوص في "أب" الشعب الفلسطيني هو ما كتبَه درويش عنه بخط يدَيه، في "فندق شاتو

.....indd 88 29/07/2019 12:13:06

فرونتيناك" (Château de Frontenac) في الدائرة الثامنة في باريس، عندما طلبتُ منه، بعد حديث صحفي نشرته إحدى المجلات التي كنت أعملُ فيها ("كل العرب"، باريس) على صدر غلافها مع العنوان التالي: "أصبحتُ قادرًا على القتل"، إثر خروجه من بيروت بعد الغزو الإسرائيلي في العام 1982[12].

يومها، تنبهتُ في طريقي إلى الفندق، الذي كان يقيم فيه بعد حلوله في باريس من بيروت، إلى كوننا لم نذكر عرفات بكلمة في الحوار المطوَّل، بينما كانت وسائل الإعلام، مع أجهزة الاستخبارات الإسرائيلية، قد فشلت في رصد حركة عرفات في بيروت... فكان أن أمسك درويش بقلم الحبر، وجلس إلى المكتب الصغير في غرفة الفندق، وشرع في كتابة "بورتريه" لعرفات في الحصار، هو من أجمل ما كتب، ومن دون أن ترتبك يده أو تستعيد كلمة أو عبارة[13]. وهي العلاقة عينها التي ما لبثت أن انقلبت بعد "اتفاقية أوسلو"، وخروج درويش من منظمة التحرير، ومن العمل السياسي المؤسساتي تمامًا. وهو

12) "محمود درويش الناجي من بيروت: أصبحت قادرًا على القتل"، مجلة "كل العرب"، باريس، العدد السابع، 13 تشرين الأول-أكتوبر من سنة 1982، ص ص 48 - 55.
13) راجعْ الباب الثالث والاخير من الكتاب.

.indd 89 29/07/2019 12:13:06

مـا قالـه فيـه منـذ العـام 1982، في حـواري المذكـور: "ونحـن الفلسـطينيين نبايعـه (لأبـي عمـار) أولًا، ثـم نختلـف معـه".

مـا يجـب قولـه في الشـاعر هـو أنـه ظُلـم كثيـرًا في مـا قيل عنـه، سـواء عـن علاقتـه بأبـي عمـار، أو عـن تعويلـه عـلى السياسـة والمنظمـة في صيتـه الشـعري. نـسي الكثـيرون، أو يتناسـون اليـوم مـا قالـوه فيـه... مـا وجـب قولـه في هـذا السـياق هـو أن درويـش احتفـظ بموقـف سـياسي رافـض، ولكـن منخفـض النـبرة، بعـد "الاتفاقيـة" الشـهيرة: كان في مقـدور غـيره أن يـصرخ، أن ينـدد؛ أمـا هـو فرفـضَ متنبهًـا إلى أن لعبـة سياسـية كـبرى تـدور رحاهـا، وتطـاول وطنـه الموعـود، وهـو مشـمول بنتائجهـا. البعـض اتهمَـه بالميوعـة والتهـاون مـع العـدو في عملـه الـدؤوب لإجـراء مفاوضـات سريـة عديـدة معـه، إلا أنـه رفـض الاتفاقيـة المذكـورة. ذلـك أن درويـش طلـب تسـوية، مشرفـة، وتاريخيـة، لا جزئيـة؛ طلـبَ ألا يكـون بـاب الدخـول إلى الوطـن "واطئًـا إلى هـذا الحـد"، وفـق عبـارة ذكرتُهـا في مقـال في جريـدة "الحيـاة" لـدى إعـداد "ملـف" عـن الأدب و"السـلطة الفلسـطينية" الناشـئة. كان يعمـل عـلى التسـوية، مـن دون أن يعنـي هـذا الاعتـدال تهاونًـا أو رخـاوة في الموقـف. ولقـد أتـت وقائـع السياسـة لتشـهد بصحـة مـا كان يقـول.

.indd 90 29/07/2019 12:13:06

إلا أن ما يَجمع بين الكُتاب الثلاثة (المتنبي، سولجنتسين ودرويش) يتعدى السياسة، ويبلغ العلاقة مع الزمن. تحقق المتنبي عاجزًا من تفكك الخلافة، وما خففتْ صورةُ سيف الدولة المشرقة من هزال الإمارات التي انتهت إليها الإمبراطورية العربية-الإسلامية. هذا ما عرفَه سولجنتسين، إذ طلب أن يعيد إصلاح ما أفسده الدهر، ما أفسدتْه السياسة، ولا سيما الثورة البلشفية، التي قلبتْ بـ"العجلة الحمراء" (عنوان مشروعه الروائي ذي المجلدات العديدة) وقائع التاريخ الروسي. وهو ما طلبَه درويش، إذ طلب أن يكون لفلسطين وطن، في السياسة قبل القصيدة.

هذا الانخراط السياسي الشديد أظهر تعاونَ درويش الأكيد مع ياسر عرفات، في أي نص "تأسيسي" في أدبيات المنظمة. إلا أن حاصل هذه الدينامية سيفضي بعد الحصار الإسرائيلي لبيروت في العام 1982 إلى "توزيع" المقاتلين الفلسطينيين المنظم والمنسق بين أكثر من دولة عربية عبر البحر: من عدن إلى تونس (حيث ستستقر قيادة المنظمة)، وبجوازات سفر مدبَّرة من هذه الدول: حصل درويش على جواز سفر تونسي، والشاعر السوري

.indd 91 29/07/2019 12:13:06

الكـردي سـليم بـركات (الملتحـق بخـروج المقاتلـين مـن بـيروت) بجـواز سـفر يمنـي، عـلى مـا عرفـتُ منهمـا...

لـم تكـن بـيروت "الخيمـة الأخـيرة"، حسـبما كتـب درويـش حينهـا في مجموعتـه "حصـار لمدائـح البحـر"، بـل سـيعمد (عـلى مـا عرفـتُ منـه) إلى البقـاء فيهـا، إذ لـم يكـن "مقاتـلًا" مسـلحًا، مثلمـا قـضى الاتفـاق، الـذي اقترحَـه وأبرمَـه الرئيـس الفرنـسي فرانسـوا ميـتران مـع الحكومـة الإسرائيليـة، بخـروج المقاتلـين الفلسـطينيين "برفقـة سـلاحهم الفـردي". عـزم درويـش عـلى البقـاء في بـيروت، وعـلى العمـل في المجلـة وفي مركـز الأبحـاث، المرخـص لهمـا مـن الحكومـة اللبنانيـة، لكـن الأمـور سـتتعقد، وسـتبلغه أكـثر مـن جهـة لبنانيـة وعربيـة بـأن وجـوده لـم يعـد "مأمونًـا"... فـكان أن قـرر الخـروج، وتكفـل الشـاعر والدبلومـاسي الليبـي محمـد الفيتـوري بعمليـة خروجـه...

كانـت تلـك الأيـام الحزيرانيـة حزينـة، فكيـف إن عرفـتَ بانتحـار أسـتاذي الشـاعر خليـل حـاوي، غـداة الاجتيـاج! وهـو مـا تنبـهَ لـه الأسـاتذة أعضـاء لجنـة تحكيـم تحصيـلي لشـهادة الدكتـوراه، إذ كان صوتـي، في صبيحـة 12 حزيـران-يونيـو، حزينًـا، مكسـورًا بـل "مبلوعًـا"، عـلى مـا قـال لي الأسـتاذ جمـال الديـن بنشـيخ مستفسـرًا أثنـاء المناقشـة.

.indd 92 29/07/2019 12:13:06

هـذا "الاقتـلاع" مـن بـيروت بـدا لعديديـن مثـل "نكبـة" جديـدة، لكنـه خلَّـف أيضًـا جراحًـا لـم تندمـل تمامًـا قبـل "اعتـذار" درويـش العلنـي والمـشرِّف. خرجـت منظمـة التحريـر إلى فضـاء جديـد، ومـا لبـث أن عـاود درويـش نشـاطه معهـا، ولكـن وفـق مسـاراتِ إقامـةٍ وسـفرٍ جديـدة: سـيكون لـه – بعـد إقامـة في باريـس، في الفنـدق، ثـم في شـقة مفروشـة في "جـادة هـوش" الفاخـرة – انتقـالات عديـدة بـين دمشـق وقـبرص والقاهـرة وباريـس، قبـل أن يلتحـق بالقيـادة في تونـس، مقيمًـا في سـيدي بـو سـعيد (ضاحيـة مدينـة تونـس).

خـروج المنظمـة مـن بـيروت لـن يفقدهـا بوصلتهـا، ولـن يخرجهـا مِمـا كانـت قـد اسـتحدثته، وهـو أنهـا باتـت طرفًـا لازمًـا في الـصراع – الدبلومـاسي في قسـم كبـير منـه بعـد هـذا اليـوم. وهـو مـا سـيبلغ ذروتـه مـع إعـلان وثيقـة الاسـتقلال الفلسـطيني (1988)، التـي كتبَهـا درويش نفسـه. سـيصبح العمـل مـن أجـل قيـام "الدولـة" هـدفَ المنظمـة الملـح، مـا جعلهـا تُراجـع شرعتهـا، وتنظـم "هيئتهـا" المظهريـة، بمـا فيهـا زواج يـاسر عرفـات نفسـه: التقاليـد الدبلوماسـية الفرنسـية تشـدد عـلى لـزوم أن يكـون "الرئيـس" – أي رئيـس

.indd 93 29/07/2019 12:13:06

– متزوجًا لحسابات بروتوكولية دقيقة ومتشددة؛ وهو ما نصحتْ به الدبلوماسيةُ الفرنسية القائدَ الفلسطيني. هذا ما اقتنعَ به، على ما أخبرني غير صحفي، بين لبناني وفرنسي، في باريس، إلا أن دهشتي كانت كبيرة عندما عرفتُ بزواجه من: سهى الطويل.

كنتُ قد التقيتُ بها في مكتبي في "كل العرب"، بعد أن نشرتْ المجلة حوارًا لافتًا (على صدر الغلاف) مع أمها المحامية اللامعة: ريموندا الطويل. كانت سهى تَدرس في السوربون الجديدة، وتناضل على رأس اتحاد الطلبة الفلسطينيين، وتسعى إلى العمل في الصحافة المهاجرة، قبل أن أعرف، بعد وقت، أنها عملتْ مترجمة إلى جانب ياسر عرفات في تونس، قبل أن تتزوج منه في مطالع التسعينيات. كانت دهشتي كبيرة عندما علمتُ بزواجها منه، إذ إن الصديق المخرج الفرنسي تيو روبيشيه وزوجته الفنانة الجزائرية فتيحة رحو اتصلا بي، قبل زواجها بشهور، لمساعدتهما في تدبير "استوديو" للإيجار لسهى في مدن الضاحية الباريسية.

هذه الإقامة في باريس، أو في تونس، هي الأنشط والأغنى في حياة درويش، إذ سيبلغ فيها أن يكون عضوًا

.....indd 94 29/07/2019 12:13:06

في اللجنة التنفيذية لمنظمة التحرير الفلسطينية، في مسعى قضى من عرفات بإظهار "حكومته" بوجه مختلف بعض الشيء، أي معولًا على وجوه لامعة وغير حزبية في القيادة. وهو ما يناسب "إعداد" عرفات لهيئة دبلوماسية وسياسية "لائقة" و"جادة" ذات مصداقية لمشروع "الدولة" الفلسطينية الذي بات، في نهاية الثمانينيات ومطالع التسعينيات، الشغل السياسي والدبلوماسي الشاغل للمنظمة، ولكثير من الدول والمنظمات المتفاعلة معها. وهو ما تسربتْ عنه معلومات ثمينة بعد وقت، إثر "اتفاقية أوسلو"، التي تبينَ في نتيجتها أن ياسر عرفات أقدمَ على تشكيل فريقَي تفاوض مع الإسرائيليين: واحد (وفيه: ياسر عبد ربه، ومحمود درويش) للتفاوض مع اليسار الإسرائيلي (في اختصار)، وثانٍ (وفيه: محمود عباس، أبو مازن) للتفاوض مع اليمين الإسرائيلي (في اختصار). ويبدو أن عرفات قاد عمليتي التفاوض، من دون أن تعرف كل لجنة بعمل الأخرى. فكان – إثر نهاية المفاوضات – أن قبل عرفات بحاصل مفاوضات اللجنة التي ترأسها أبو مازن (رئيس "السلطة الوطنية" بعد ياسر عرفات)، على

.indd 95 29/07/2019 12:13:06

أساس أن ضمان موافقة اليمين شرطٌ لازمٌ لجدية أي حل بين الحكومة الإسرائيلية وقيادة منظمة التحرير.

إلا أن هذا "الحل" سيعني، واقعًا وعمليًّا، نهاية علاقة درويش بالمنظمة، إذ تؤكد بعض المرويات أنه استقال منها في العام 1993. المسار الذي اختطه لنفسه سيتوقف في "ذروة" تقدمه السياسي والنضالي، مع "اتفاقية أوسلو". صمتَ درويش عدة شهور قبل أن "يمرِّر"، بواسطة أحد أصدقائه، موقفًا عبَّرَ فيه – في خبر قصير في جريدة "اللوموند" الفرنسية – عن تحفظه على الاتفاقية. حاولتُ، بعد الاتفاقية، أن أناقشه في قراره، وفي خلفياته ومراميه، فلم يقبل. هذا تأكدَ عندما قررتْ جريدة "الحياة" (والمسؤول الثقافي فيها: مصطفى زين) إعداد "ملف" في ملحق "آفاق" الثقافي، يتناول مواقف الأدباء من الاتفاقية، وطُلب مني إعداد هذا "الملف". توجهتُ إلى درويش هاتفيًا مستمزجًا رأيه في الموضوع، ولا سيما رغبته في المشاركة فيه. لم يُجبْني درويش، في بداية الأمر، محولًا السؤال صوبي: وأنتَ ماذا تقول؟ فأجبتُه بما كنت سأكتبُه، وهو أن موقفي "منفتح" على الاتفاقية، إذ إنها تنقل الصراع إلى "داخل" الأراضي

.indd 96 29/07/2019 12:13:06

الفلسطينية المحتلة، مع أن الأتفاقية بدت "بوابةً واطئة" لعملية الدخول هذه، عدا أن عرفات طلب ممرًا لبسط سجادة حمراء له عند حلوله في "عاصمته"... استاءَ درويش من كلامي عن أبي عمار، وامتنع عن إبداء رأي في الاتفاقية، معتذرًا عن المشاركة في "الملف".

لهذا أتى تمرير موقفه "المتحفظ" من الاتفاقية في الجريدة الفرنسية مناسبةً تلقفتُها للقاء به، ولمناقشته. لكن موقفه، عندما التقيتُه وناقشتُه، لم يختلف عما كان عليه في السابق القريب من تحفظ و... صمت. لعله كان يدرك أكثر من غيره أن مساره - مسار العودة مع العائدين – مرشحٌ للتوقف، ولأن يتخذ وجهة لم يحسبها. لم يقبل نقدي لأبي عمار، مشددًا على أن الخلاف معه – وهو مختلِف معه – لا يعني التنكر لدوره التأسيسي. يضاف إلى ذلك أن درويش كان يريد – حينها – ترك فرصة للتجربة في النجاح أو في الفشل... هذا، مع أنه كان يرى أن الاتفاقية لا توفر شروط الحد الأدنى للعودة إلى أرض فلسطين. قلتُ له: أتعني "أريحا أولًا" أن فلسطين التاريخية انتهت؟

.indd 97 29/07/2019 12:13:06

ستزداد ملاحظات درويش على الاتفاقية، لكنه لن يُشَهِّر بها، أو بصانعها، فيأتي كلامه عنها مقتضبًا للغاية ومتحفظًا. أما نقده الشديد لها، فسيظهر ابتداء من عنوان مجموعته الشعرية: "لماذا تركتَ الحصان وحيدًا" (1995)، الذي بدا مثل نشيد موجَّه - في بعضه - إلى عرفات، فيناقشه، بل يعارضه في تخليه عن "حصان" الثورة: ألا يتوجه درويش إليه، إذ يتوجه الطفل في القصيدة إلى أبيه متسائلًا: إلى أين تأخذني، يا أبي؟

وهو ما أجدُه ابتداء من عنوان مجموعة شعرية تالية: "لا تعتذر عما فعلت" (2004)...

الظريف في أمر هذه المجموعة، هو أنه قلبَ عنوانها عندما سألتُه، في غداء معه في عَمان، عن جديده الشعري، إذ سمّاها: "اعتذرْ عما فعلتَ"... نظرتُ إليه، يومها، نظرة فاحصة للتأكد مِما يقول، ومن مرامي القول... لكن درويش حوّلَ النقاش إلى غير ذلك. أكان يُخفي عنوان كتابه من باب الحيطة (التي لم تفارقه أبدًا في كثير من أفعاله، سياسة أو ثقافة أو شعرًا)، وهو تصرف "أمني" في منطلَقه، ولكن في نطاق الشعر؟

.....indd 98 29/07/2019 12:13:06

هـذا التحفـظ سـيجعل درويـش "قوَّامًـا" عـلى نفسـه، إذا جـاز القـول، خـارج الأجهـزة الرسـمية لـ"السـلطة" الناشـئة في رام اللـه، مـن دون أن يقطـع معهـا، بـل يمكـن القـول إنـه عـاد إلى جـزء مـن فلسـطين التاريخيـة، خـارج موكـب العائديـن مـن قياديـي المنظمـة (بتنظيماتهـا المختلفـة)، ولكـن إثـر هـذا الموكـب، وإن بصمـت بـيِّن. سـيعود بدعـوى زيـارة أمـه. وفي فـترة وجـوده، تقـدَّمَ أعضـاء مـن الكنيسـت الإسرائيـلي، بـين عـرب ويهـود، بطلـب إلى الحكومـة يسـمح ببقائـه؛ وقـد سُـمح لـه بذلـك.

سـيعود لكـي يُنشـئ حـوارًا مـن نـوع جديـد: ليـس مـع الحنـين والتذكـر، بـل مـع فلسـطين كمـا صـارت تتبـدى لـه بعـد خروجـه منهـا، متحققًـا مـن آثـار الاحتـلال القويـة التـي انتهـت إلى "تمزيـق" وحـدة الأرض الفلسـطينية (بمسـتعمراتها الكثـيرة)، خصوصًـا في الضفـة الغربيـة.

سـيعود مختلفًـا عمـا كانـه فيهـا، فينـصرف بصـورة مزيـدة إلى "مشروعـه" الشـعري، حيـث سـيكون لابتعـاده عـن السياسـة آثـار قويـة في شـعره.

خـرج مـن السياسـة لكـي يقيـم حـوارًا مـع التاريـخ، مـع الملحمـة، مـع الـذات، مـع القصيـدة.

.indd 99 29/07/2019 12:13:06

"أريد أن أكتب شعرًا من مكان آخر"

تتيح مقابلة درويش مع مجلة "الآداب" اللبنانية، في العام 1970، الوقوف على كثير من أحواله ومواقفه وآرائه الموجهة إلى جمهور ثقافي عربي. ويزيد من قيمة هذه المقابلة (التي لا يرد اسم كاتبها) أنها من أولى مقابلاته الصحفية، وقبل رحيله من إسرائيل، فضلًا عن أنها توفر نظرته إلى ما كان يعايشه من جدل عربي-إسرائيلي إثر هزيمة 5 حزيران-يونيو، وما كان يعايشه مع أقرانه من الشعراء الفلسطينيين من جدل حول قيمة شعرهم، وحول طبيعته، بين سياسية وفنية[14].

تستوقف قارئ المقابلة الترسيمة العامة لنظرة درويش، ويتحقق من تواصلها بين ما كانت عليه وما

14) "مقابلة أدبية مع محمود درويش"، مجلة "الآداب" اللبنانية، بيروت، العدد التاسع، 1970، المتوافرة في "ذاكرة الآداب الورقية".

.indd 101 29/07/2019 12:13:06

ستؤول إليه في تالي السنوات والهجرات. إذا كان درويش يتحدث، في المقابلة، عن "الشرق الأوسط" (ما سيختفي لاحقًا)، فإنه يتحدث بالمقابل عن "حركة التحرر العربية". طبعًا، في حديثه عن "الشرق الأوسط" (وفيه إسرائيل والبلدان العربية) تَظهر اللحظة السياسية التالية على "الهزيمة"، ويتضح فيها انشغاله بجانب من الحوار مع الرأي العام الإسرائيلي، ولا سيما الأدباء منهم: "القضية" تقع في أرض فلسطين التاريخية، في إسرائيل (على الرغم من أنه لا يشملها بصفة "الدولة") تحديدًا، من دون أي إشارة تذكر إلى "منظمة التحرير"، إلى "الفدائيين"، أو إلى "العودة".

درويش يتنبه، بصورة جارحة، إلى حال الشعب الفلسطيني: "شعب كامل يعيش بلا وطن في هذا العالم الذي يجعل القمر وطنًا آخر"[15]. هكذا يُعبِّر عن مأسوية الشرط الفلسطيني، إذ إنه لا يفوز – حتى – بصفة الضحية في الصراع؛ ما دام "العالم يطلب من الضحية البرهنة على أنها ليست القاتل، والقاتل

15) الإشارة واضحة إلى مساعي السوفييت والأميركيين لبلوغ القمر في مركباتهم الفضائية، من الكلبة السوفييتية "لايكا" في العام 1957 إلى نيل أرمسترونغ الأميركي، الذي حطَّ بقدمه فوق القمر في العام 1969.

.indd 102 29/07/2019 12:13:06

الحقيقـي يتظاهـر بالبـكاء".

قـد يكـون الداعـي إلى إجـراء هـذه المقابلـة هـو الجـدل الواسـع الـذي تـلا نـشر درويـش لبيانـه – الـذي بات شهيـرًا منـذ ذلـك الوقـت: "أنقذونـا مـن هـذا الحـب القـاسي" في العـام 1969[16]. فمجلـة "الآداب" تبـدأ بسـؤال عـن المقـال-البيـان، والـذي تصفـه بـ"الشـهير"، فيتضح من كلام الشـاعر أن هـذا المقـال أثـار نقاشًـا واسـعًا، بـين أقرانـه في الداخـل، وخصوصًـا في العالـم العربـي. ويلخـص سـببَ المقـال بالقـول: "كنـتُ أحـاول، صادقًـا، حمايـة شـعرنا مـن مظاهـر الحـب الحمـاسي، فـإذا بتعبـيري عـن محاولتـي يقـع أسيـرًا لهـذا الحـب مـرة أخـرى".

مـن المعـروف أن أكـثر مـن مجلـة وجريـدة عربيـة فتحـت سـجالًا حـول "شـعراء المقاومـة"، إثـر "الهزيمـة"، إذ تنبهـتْ لشـعراء كانـوا مجهولـين أو مغموريـن - لـو وضعنـا جانبًـا فـدوى طوقـان التـي سـبق أن نـشرت قصائـد لهـا في "الآداب" قبـل هـذا التاريـخ. تنبهـتْ لهـم، فيمـا كان ظهورهـم - "المباغـت" بهـذا المعنـى – مناسـبًا بالمعنـى السـياسي، إذ

16) نشره في مجلة "الجديد"، حيفا، وكان يرأس تحريرها، في العدد السادس من سنة 1969.

.indd 103 29/07/2019 12:13:06

يبلسم بعض جراح "الهزيمة"، لكنه لم يكن مناسبًا بالمعنى الشعري بالضرورة. فالنبرة السياسية، والحزبية، والنضالية، "الحادة"، غيرُ موافقة حتى لدى شعراء عرب مسيّسين وحزبيين، كانوا قد خصُّوا السياسة في القصيدة بنقد الحاكم المحلي، فيما بقي خطاب "العودة"، أو الكلام عن "اللاجئين" و"المخيمات"، في عهدة شعراء فلسطينيين في "الشتات" (جبرا إبراهيم جبرا، سمير صنبر...). وهو ما يصفه درويش، في مقابلة "الآداب"، بالتمييز بين "شعر يأس" (وهو شعر سارٍ بعد "الهزيمة" بين شعراء عرب)، و"شعر مقاومة" (وهو ما يكتبه مع رفاقه).

يصوغ درويش في مقابلة "الآداب" تعريفًا للشاعر يصدر عن رؤية ماركسية أكيدة، مثل حديثه عن "الاستقلال النسبي" للشرط الثقافي: هذا ما عاشتْ عليه الأدبيات الماركسية عقودًا تلو عقود، وما اكتملَ وقتها مع كتاب روجيه غارودي، في فترته الماركسية، عن "واقعية بلا ضفاف". ويندرج، في هذا المنظور، تعريف درويش في المقابلة للشاعر "الثوري"، إذ يقول: "الثوري – إذا كان شاعرًا موهوبًا – لا يكون رجعيًّا داخل الشعر

.indd 104 29/07/2019 12:13:06

وثوريًّا خارجه". ثم يضيف: "إننا نحاول أن نكون ثوريين في الحياة وفي الشعر" (المقابلة عينها)[17].

وكان قد ظهر تعبير "شعراء المقاومة" في العام 1966، مشيرًا خصوصًا إلى الشعراء الثلاثة: توفيق زياد (من مواليد العام 1929)، وسميح القاسم (من مواليد العام 1939)، ودرويش نفسه. بينما التصق تعبير "شعراء الثورة" لاحقًا بمن ارتبط منهم بمنظمة التحرير: معين بسيسو (من مواليد العام 1926)، وعز الدين المناصرة (من مواليد العام 1946)، وأحمد دحبور (من مواليد العام 1946)؛ وهم ثلاثتهم ولدوا في فلسطين بين غزة والخليل وحيفا، لكنهم انتقلوا منها إلى بيروت أو حمص.

إلا أن كتابات نقدية، لغسان كنفاني ويوسف الخطيب ورجاء النقاش وغالي شكري، كشفت في الستينيات عن شعراء آخرين، "مقاوِمين" سابقِين على هؤلاء منذ العام 1948 وقبله. يتوقف كنفاني (1966) عند كون الشعر الفلسطيني، الفصيح كما العامي، عرف أدب "المقاومة" منذ ما قبل "النكبة"، في إشارة إلى الشعراء: إبراهيم

17) في الوقت الذي كانت فيه مجلة "شعر" قد روَّجتْ لشاعر، مثل تي. إس. إليوت، الرجعي في السياسة، والحداثي في القصيدة.

.indd 105 29/07/2019 12:13:06

طوقـان، وعبـد الرحيـم محمـود، وعبـد الكريـم الكرمـي (أبـو سـلمى) تحديـدًا [18]. كمـا ظهـر، بعـد الهزيمـة، "ديـوان الوطـن المحتـل"، الـذي صرف فيـه كاتبـه، يوسـف الخطيـب، دراسـة طويلـة، متوقفًـا خصوصًـا عنـد "المؤثـرات" التـي تحكمـت بشـعرهم [19].

أمـا الناقـد المـصري رجـاء النقـاش فقـد قـرر الانفـراد بـدرس تجربـة شـاعر "مقـاوم"، وهـو درويـش: "محمـود درويـش: شـاعر الأرض المحتلـة"، متحدثًـا فيـه عـن "شـعر مقاومـة"، سـابق عليـه [20]. كان كتـاب كنفانـي افتتاحيًّـا في نوعـه، وطلـبَ منـه تمكين الفلسـطيني، ولا سـيما "النـازح"، مـن ثقافـة بلـده الوطنيـة، ومـن كونهـا ثقافـة "مقاوِمـة". بينمـا سـعى الخطيـب – وهـو شـاعر بـدوره – إلى توفـير مـادة واسـعة مـن هـذا الشـعر، في مـا يشـبه "الجمـع" الأول لـه في "ديـوان". أمـا دراسـة النقـاش، فقـد أتـت لتربـط شـعر درويـش بأقرانـه، مِـن شـعراء فلسـطينيين وعـرب، متوقفًـا عنـد علامـات التفاعـل والتأثـر والتواصـل بينـه وبينهـم. ثـم

18) غسان كنفاني: "أدب المقاومة في فلسطين المحتلة" (1948 - 1966)، مؤسسة الأبحاث العربية ، بيروت، 1987.

19) يوسف الخطيب: "ديوان الوطن المحتل"، دار فلسطين للتأليف والترجمة، دمشق، 1968.

20) رجاء النقاش: "محمود درويش: شاعر الأرض المحتلة"، دار الهلال، القاهرة، 1971.

.....indd 106 29/07/2019 12:13:06

أتت دراسة غالي شكري "أدب المقاومة"[21] لتثير جدلًا حول هذا الشعر، إذ اعتبر شكري هذا الأدب "معارِضًا"، لا "مقاوِمًا"، من دون التشكيك بفنيته[22].

هذا ما تحكّم أيضًا بنظرة درويش نفسه إلى شِعر "المقاومة"، إذ لم يكن، في حسابه، "صاعقةً انفجرتْ فجأة"، بل هو حاصلُ تفاعلٍ سابق، لا سيما مع حركة "تحرر" الشعر العربي: "لقد تربَّينا على أيدي الشعراء العرب القدامى والمعاصرين، وحاولنا اللحاق بأسلوب الشعر الحديث، بعدما تعرفنا على بعض روّاد هذا الشعر في العراق ومصر ولبنان وسوريا. ونحن لا يمكن إلا أن نعتبر أنفسنا تكملةً لأولئك الشعراء".

بدا صوت درويش والقاسم وزياد "فاقعًا" في زمن "الهزيمة"، في زمن المراجعة والشكوى والسؤال والضياع والحيرة، فيما كان درويش "يتقدم" عليهم. منذ هذا البيان، يتعايش درويش بين التذمر والرضا، بين حَدَّي الحالة التي يرسمها في مقابلة "الآداب": "سأكون وقحًا لو استقبلت كل مظاهر الحب بالرفض. وسأكون ساذجًا أيضًا لو وقعتُ أسيرًا في قبضة هذا الحب".

---

21) غالي شكري: "أدب المقاومة"، دار المعارف، القاهرة، 1970.

22) هذا ما نجد أصداءه في كلام درويش في مقابلته المذكورة، في مجلة "الآداب".

.....indd 107 29/07/2019 12:13:06

مـن المجـلات التـي أفـردت لشـعراء "المقاومـة" ملفًّـا، كانـت مجلـة "شـعر"؛ وقـد يكـون بعـض أسـباب إقبـال مجلـة "الآداب" عـلى إجـراء مقابلـة مـع درويـش، هـو للـرد عـلى مسـعى "شـعر" في السـجال التنافـسي الحـاد بـين المجلتَـين. لا يقبـل درويـش بمـا فعلتـه مجلـة "شـعر" بشـعرهم "المقـاوِم"، ويعتـبر الملـف التفاتـةً "جارحة الـذكاء"، عـلى الرغـم مـن أن المجلـة قدمـت هـذا الشـعر عـلى نطـاق واسـع، إلا أن مـا يقترحـه شـعراء "المقاومـة" مـا كان يتناسـب مـع دعـاوى "شـعر" في القصيـدة والشـعرية. هـذا لا يُخفـي حصـول جـدل في بـيروت عـن درويـش قبـل حلولـه فيهـا، وإقامتـه المديـدة غـير مـرة فيهـا. فقـد كشـف محمـود زيبـاوي، في مقـال متأخـر[23]، عـن جوانـب مـن هذا السـجال فـوق صفحـات جريـدة "النهـار"، ولا سـيما في "ملحقهـا" الذائـع الصيـت: هـذا مـا ظهـرَ في مقـال أول لخليـل خـوري: "يقـاوم بالشـعر ويغنـي مثـل لـوركا"، في منتصـف شـهر آب- أغسـطس مـن سـنة 1968، يتحـدث فيـه عـن قـدرة درويـش عـلى تجـاوز نفسـه في فنـه الشـعري، في فـترة قصـيرة للغايـة، بـين مجموعـة شـعرية وأخـرى، مـا قـام عـلى ركيزتَـين:

23) محمود زيباوي: "بدايات محمود درويش وزمن التخوين"، موقع "المدن" الإلكتروني، بيروت، 11 - 8 - 2017.

.indd 108 29/07/2019 12:13:06

العمق والبساطة في آن. بل يقرُّ الكاتب ويعلن أن درويش هو، اليوم، "في طليعة شعراء المقاومة في الأرض المحتلة"، إن من حيث وفرة إنتاجه، وفرادة صوته، أو من حيث وضوح رؤياه.

ما يستوقف، في كلام خوري، هو رفعُه شعر درويش إلى مصاف "الفعل": شعره لا يعني "التصفيق للمقاتلين بل خوض المعركة، لا حافة الرصيف، بل السير في زحام الشارع"؛ وهذا ما يمنح شعره "مذاق الدم والوجود". ثم يتابع: بهذا الفهم الإيديولوجي يصبح درويش "شاعر فعل"، "شاعرًا يرفع التاريخ على منكبيه". لم يكن كلام خوري ممالئًا، إذ يرى بعض "الاعتوارات" في لغته، و"وهنًا"، و"خروجًا على أساليب وقواعد"، غير أنه يعتبر صوت درويش – على الرغم من هذا – "واعدًا بالكثير من الغناء الحلو والمر".

هذا المقال الاحتفائي استثار نقد كاتب صحفي آخر، جان داية (العضو في الحزب السوري القومي الاجتماعي)، فشكك في "مصداقية" درويش، في عدد "الملحق" التالي، متحدثًا عما أوردته جريدة "الدستور" الأردنية عن مشاركة درويش في "وفد شعبي" نظمه

.indd 109 29/07/2019 12:13:06

حـزب "راكاح" في "مهرجـان الشـبيبة" في صوفيـا (بلغاريـا). ويكشـف دايـة عـن صـدور مقـالات عديـدة تقـرظ بتجربـة "شـعراء المقاومـة"، ولا سـيما درويـش منهـم، فيمـا يـرى أن "ثوريـة" درويـش مشـكوك في أمرهـا: لا يكفـي أن يكتـب أنـه "منـدوب جـرحٍ لا يسـاوم"، بـل أن يكـون الشـاعر "قـد مـشى، وقـاوم، ولـم يسـاوم". هكـذا يجعـل دايـة مـن "حيـاة" درويـش نفسـها دلالـة عـلى مصداقيـة القصيـدة. فقـد أخطأ خـوري، حسـب دايـة، لأنـه لـم يـدرس شـعر الشـاعر "بـدءًا مـن حياتـه ومواقفـه، مكتفيًـا بإنتاجـه الشـعري فقـط".

في هـذا التبايـن بـين الموقفَـين، نجـد أسـسَ النقـاش، بـل الجـدل، ومعايـيره، التـي تحكمـت في النظـر إلى شـعر درويـش منـذ هـذه اللحظـة المبكـرة. ومـا يخفـى، في الجـدل بـين درويـش وغـيره، شـقٌّ سـياسي ضمنـي، غـير مـصرَّح بـه مـن الطرفَـين. وهـو أن بعـض النقـد العربـي، أو التمييـز بالأحـرى بـين "شـعر مقاومـة" و"شـعر معارضـة" (غـالي شـكري)، يتأتـى مـن كـون هـذا البعـض العربـي يعتـبر موقـف درويـش وأقرانـه مـن الشـعراء والأدبـاء ينتسـب إلى "المعارضـة"، أي إلى خـلاف مـع أحـزاب "حاكمـة" (حـزب العمـل الإسرائيـلي)، أو طامحـة للحكـم (الليكـود وغـيره)،

.....indd 110 29/07/2019 12:13:07

وبين حزب "معارض" له، هو "راكاح"، الحزب الشيوعي الإسرائيلي (وكان درويش وأقرانه "أعضاء" فيه). يؤكد درويش في المقابلة عينها: "معارضتي ليست معارضة جزء من كل. إنها معارضة الضد"، ما يشير – ولو بكلام مرمَّز بعض الشيء - إلى موقف "ضدي" بالكامل، لا بالجزء، لإسرائيل. لهذا يشدد على أنه "شاعر وطن"، وفق تعبيره، ما يعني، منذ هذا العهد، أن الشعر يشارك في صياغة "خطاب للوطن".

بات هذا الشعر الفلسطيني جزءًا من الشعر العربي الحديث، وإن رافقَه نقاد أو شعراء أو مجلات بالنقد. ودار الجدل حول الشق السياسي لهذا الشعر، من جهة، وحول "فنيته"، من جهة ثانية. فمنهم من أولى السياسة تقدمَها في النقد، ومنهم من نبذها جاعلًا من "الفنية" مقياسًا أكيدًا للحكم على التجربة. هذا ما تمثلَ في موقف أدونيس الصريح في كتابه "زمن الشعر" (1972): "إنني لستُ واثقًا من أن في الأرض المحتلة شعر مقاوَمة – أي شعرًا ثوريًا" [24]. ومن الضروري الالتفات إلى أن درويش لم يكن بعيدًا أو غافلًا عن هذا، بل كان منخرطًا

24) أدونيس: "زمن الشعر"، دار العودة، بيروت، 1972، ص 103.

.....indd 111 29/07/2019 12:13:07

فيه، حيث إنه – خلافًا لما يَظهر – كان يُشدد على وجود التعامل مع شعره تعاملًا "فنيًّا"؛ وهو الخلاف الذي بقي شعر درويش – على الرغم من تغيراته السياسية والشعرية اللاحقة – واقعًا فيه.

أكثر من إشارة لافتة تُظهر، إذًا، "تقدم" درويش على رفاقه، قبل الرحيل من إسرائيل، وقد يكون فوز درويش بجائزة "اللوتس" (التي يمنحها "اتحاد كتّاب آسيا وإفريقيا"، المشمول بالعناية السوفييتية)، في العام 1969، هو الإظهار الأول، "الخارجي"، لتصدره "شعراء المقاومة"، ولبداية لمعان اسمه ومكانته في عالم العربية وخارجها.

هذا ما يمكن تتبعه في حركة النشر، لا سيما في بيروت، حيث أقدمت إحدى دور النشر الناشئة إلى طبع الكثير من شعره، من دون إذنه، وطبع مجموعات لغيره أيضًا من دون موافقتهم، ما يُظهر التنامي والتكوكب حولهم، في نوع من الاعتراف بهم، الذي يلاقي، من دون شك، فسحة جميلة للكثيرين من المثقفين العرب الذين ما خرجوا من حال الذهول التي أصابتهم غداة هزيمة الحرب في حزيران-يونيو 1967.

.indd 112 29/07/2019 12:13:07

قـد تكـون علامـات التكريـس "الخارجـي" لدرويـش عامـلًا منشـطًا لخروجـه إلى فضـاء أوسـع، يسـتطيع فيـه التحـرك بصـورة مزيـدة. فمـن يتابـع وقائـع حياتـه قبـل رحلـة موسـكو، يتحقـق مـن أن درويـش سـافر إلى بلغاريـا (كمـا ذكـرت) في عـداد "وفـد شـعبي" كان حـزب "راكاح" ينظمـه، وبعـد صعوبات جمـة لتحصيـل إذن الخـروج. إلا أن هـذا السـفر – المحـدود والمقيَّـد – لا يُخفـي اعتقـال درويـش أكـثر مـن مـرة، واقتيـاده إلى السـجن، بتهـمٍ شـملت تحديـدًا انتقالَـه مـن دون إذن مـن مـكان إلى آخـر داخـل إسرائيـل نفسـها.

غـير أن هـذا يعنـي أن درويـش كان قـد هاجـر، وكان قـد حـلَّ في العالـم العربـي، قبـل انتقالـه إلى القاهـرة. هاجـر... عـبر جناحَـي قصيدتـه، إذ يعـترف، في مقابلـة "الآداب"، بوجـود حـراك مناسـب للسياسـة ("حركـة التحـرر العربيـة") في العالـم العربـي، وبوجـود شـعر متقـدم في عالـم الشـعر العربـي. وهـو مـا يَظهـر في كلام درويـش النزاعـي عـن "جمهـوره": جمهـور يريـد إنزالـه في العـراك السـياسي اليومـي، بينمـا تشـدُّه القصيـدة العربيـة الحديثـة إلى اشـتراطات أشـد ثقافـة وتطلعًـا.

.indd 113 29/07/2019 12:13:07

هـذا مـا يتضـح منـذ محموعتـه الشـعرية: "العصافـير تمـوت في الجليـل"، ومـا دار حولهـا مـن سـجالات، تعينـت في اتهـام درويـش بـ"الغمـوض"، وبانتقالـه مـن "الواقعيـة (الاشـتراكية)" إلى "الرمزيـة". هـذا مـا يكشـف عنـه درويـش بنفسـه في مقابلـة "الآداب" (المذكـورة أعلاه)، إذ يشـير إلى أن انتقـادات كثـيرة تصيـب شـعره؛ ومـا كُتـب مـن مقـالات وآراء حـول مجموعتـه المذكـورة بـات أكـثر مـن "سـوء تفاهـم": "لعلـك لا تعـرف أن سـوء التفاهـم – الـذي أريـده أن يكـون وديًّـا – بـين القـراء في بـلادي وبينـي، آخـذ في التحـول إلى خـلاف قـد يأخـذ شـكل القطيعـة". ثـم يتابـع: "الكثـيرون مـن القـراء قالـوا لي إنهـم كفّـوا عـن قراءتـي. وعـلى الصفحـة الأدبيـة لجريـدة "الاتحـاد" دارت مناقشـة أسـبوعية اسـتغرقت أكـثر مـن ثلاثـة أشـهر كانـت قصائـدي الأخـيرة محـورَ الاتهـام فيهـا. لـم أقـرأ مـن آلاف الكلمـات التـي كتبَهـا القـراء كلمـة واحـدة تدافـع عنـي". ويفـسر درويـش موقـف هـؤلاء القـراء بأنـه يعكـس "حاجـة القـراء إلى الإحسـاس بأنهـم مسـؤولون عـن شـعرائهم، وبـأن هـؤلاء الشـعراء خاضعـون لمراقبتهـم الصارمـة".

.indd 114 29/07/2019 12:13:07

كانت انتقالة درويش من إسرائيل إلى موسكو فالقاهرة انتقالةً شعرية أيضًا، لها ألا تختفي في مشروع العودة. يقول لفؤاد مطر في حوار "الملحق" الأدبي لجريدة "النهار" المذكور أعلاه: "أنا لست أكثر من مواطن يحاول أن يكتب الشعر، ولا أزيد على ذلك. ومن هنا أُدهش للضوضاء المحيطة باسمي. أريد أن أتحدّى نفسي، وأن أطرح السؤال الآتي: هل أنا شاعر لأنني أكتب عن قضية تشغل بال العرب؟ وهل يستمدّ شعري قيمته من هذا الموقع؟ أي هل موهبتي هي قضيتي فقط؟ أريد أن أكتب شعرًا من مكان آخر. أريد أن أكون أنانيًّا. أخشى أن لا تكون لشعري قيمة غير أنه كان يُكتب في إسرائيل. إذا كان الأمر كذلك، فأنا لا أريد أن أكتب شعرًا بعد الآن. يكفي أن أحمل الشعارات وأن أبحث عن سلاح آخر غير الشعر. هل أبدو كأنّني أغار من قضيتي؟ لا. القضية هي الأساس. نحن متفقون على ذلك. لكن الشاعر أو الشعر يجب أن يحمل قيمته في ذاته. يجب أن تملك موهبته شيئًا من الاستقلال النسبي، وإلا فإن انتهاء قضية سياسية محدّدة معناه نهاية الشاعر. هذا هو الامتحان الشاق الذي يواجهني الآن كشاعر".

.indd 115 29/07/2019 12:13:07

هـذا الـكلام "الباكـر"، إذا جـاز القـول، في مسـيرة درويـش الشـعرية، شـديد التنبـه لمـا كان عليـه مشروعـه الشـعري، ولمـا كان يتهـدده دومًـا. وإذا كان الشـاعر قـد طلـبَ مـن انتقالـه السـياسي الانضـواء في مـشروع حركـي، عنوانـه عـودة الفلسـطينيين الجماعيـة إلى فلسـطين، فـإن في حلولـه في العالـم العربـي حلـولًا مزيـدًا في عالـم الشـعر العربـي، مـع مـن تقدمـه ومـن يشـاركه تطلعـات الحداثـة الشـعرية.

وهـو أظهـرُ مـا ظهـرَ في حلولـه في بـيروت، في تتابـع مجموعاتـه الشـعرية المتغـيرة أكـثر فأكـثر، والمتناغمـة مـع تحـولات المشـهد الشـعري.

هـذا النـزاع بـين موقفَـين، بـين نظرتَـين إلى الشـاعر والثـورة، سـينتقل مـع درويـش أينمـا انتقـل: سـينتقل معـه منـذ إقامتـه في بـيروت، وسـيتخذ اسـم "سـجِّلْ أنـا عربـي" (أي قصيـدة "بطاقـة هويـة")، كمـا جـرت لأول مـرة في أمسـية شـعرية في بـيروت (جـرى ذكرُهـا أعـلاه).

يبـدو أن درويـش مـا توانـى، في مـدى تجربتـه الشـعرية، عـن العمـل للخـروج مـن عهـد شـعري، لـه عنـوان: "سـجِّلْ أنـا عربـي"، لكنـه حمـل، بـين مجموعـة شـعرية وأخـرى، أسـماء وعناويـن مختلفـة. وهـو عنـوان يتعـدى هـذه

.indd 116 29/07/2019 12:13:07

القصيدة نفسها، التي تنكرَ لها، حتى إنه حذفَها من أعماله الشعرية "الكاملة" بعد وقت: قال، في غير مرة، إنه لا ينظر بعين "الرضا" إلى ماضيه الشعري، بل أقدم على حذف بعض شعره، مثل: "عصافير بلا أجنحة"، و"سجِّل أنا عربي". يقول في المجموعة المحذوفة: "حذفتها آليًّا، ولا أعترف بها البتة. وكانت صدرت في فلسطين أيام الفتوة، وهي عبارة عن قصائد مراهقة شخصية وشعرية" [25].

قد يكون عنوان هذه القصيدة، "بطاقة هوية"، مناسبًا للخيط الدلالي الناظم لأكثر من قصيدة ومجموعة شعرية قبل حلوله في بيروت. فمن يتابع شعره الأول، شعر البدايات (كما أسماه البعض)، يتحقق من أن قصيدته تسعى إلى تدوين "الكيان" الفلسطيني، ولا سيما الإنساني (بالمعنى الإثنولوجي للكلمة) تحت الاحتلال. وفعلُ التدوين نفسه هو فعلُ تأكيد الهوية، تأكيد الوجود الذي يُخفيه الاحتلال، فتعلنه القصيدة، إذ تثبته في سطورها:

25) عبده وازن: "محمود درويش: الغريب يقع على نفسه: قراءة في أعماله الجديدة"، رياض الريس للكتب والنشر، بيروت، 2006، ص 64.

.....indd 117 29/07/2019 12:13:07

فلسطينية العينَين والوشم

فلسطينية الاسم

فلسطينية الأحلام والهم

فلسطينية المنديل والقدَمين والجسم

فلسطينية الكلمات والصمت

فلسطينية الصوت

فلسطينية الميلاد والموت [26].

القصيدة تدوِّن "بطاقة هوية"، "تُسجِّلُها"، في الفلسطيني نفسه، في جسمه، في أفعاله وتصرفاته، ما يعكس وجوده، المغيَّب، ولكن الحاضر في عتمة الاحتلال. وهو تدوينٌ يُصاحبه الغناء، بأفعال النداء والإعلان والتوكيد، ما يشير إلى الإرادة التي تجعل من الوجود المختفي وجودًا معلنًا، وجودَ... فلسطين المغيَّبة.

لم يكن لدرويش في الحياة العامة غير إطلالة "الشاعر"، حتى وإن كتبَ النثر، أو تبادلَ "الرسائل" في

26) محمود درويش: "عاشق من فلسطين"، في: "الأعمال الشعرية الكاملة"، المجلد الأول، 1964 - 1982، م. س.، ص 81.

.indd 118 29/07/2019 12:13:07

مجلة "اليوم السابع" (باريس، رئيس التحرير: بلال الحسن) مع صديقه سميح القاسم. كانت له مع الشعراء خلافات وأمزجة متباينة ومتغيرة، مثلما قال لي، ذات يوم في الرباط، عند مرور أحد الشعراء والروائيين الفلسطينيين بجوارنا من دون أن يؤدي التحية. فكان أن نظرتُ إلى درويش في نوع من الاستفسار، فأجاب ممازحًا وممتعضًا: نعم. لا يوجِّه لي التحية والسلام... لعلها خلافات "الكار" (أي المهنة) والموقع والمكانة.

وهو ما عرفتُه عنه، في أوضاع عديدة، في جلسات، حيث كان يُبدي تذمرَه أو شكواه من تصرفات أو تصريحات أو ما يقوله هذا وذاك فيه وعنه. مثل المكالمة الهاتفية الحادة التي أبلغَني فيها ضيقَه من الحديث الذي أجريتُه مع عبد الوهاب البياتي في مجلة "كل العرب"، والذي انتقدَ فيه تصرفات درويش "البرجوازية" (في لغة البياتي)، أو غير "الثورية".

كان يعرف درويش حق المعرفة، منذ مطالع السبعينيات، أنه ما عاد مُلكًا لنفسه، وأنه "ناطق"، و"صوت"، مهما فعلَ أو ابتعد. في كثير من أمسياته، لا يتردد كثيرون من الاقتراب منه، من "نقده"، الجارح

.....indd 119 29/07/2019 12:13:07

أحيانًا، كما لو أنهم يستعيدون ما لهم فيه ومعه، أو ما أخلَّ به في حفظ الأمانة كما لو أنها "موكولة" إليه. هذا لم أشهده في أمسيات لقباني، أو البياتي، أو أدونيس وغيرهم.

درويش، من بين غيره، استثار مثل هذه الحالة النزاعية بينه وبين جمهوره. والنزاع، هنا، شكلٌ من أشكال التعالق الشديد، ولا يعني أبدًا الشقاق والصراع الوجاهي. هو معاتبة النفس لنفسها، لأصواتها، لِما يَصدر منها وعنها، فتفرح به أو تغضب منه.

الأكيد هو أن "صعود" درويش المتنامي في المشهد الشعري لم يكن بالمستساغ لدى كثيرين: مِمن سبقَه في تجديد الشعر (من أدونيس إلى البياتي)، أو مِمن جايلوه ونافسوه مباشرة ويخاصمونه على المكانة، أو مِمن أتى بعده ويتبرم من قامة درويش التي باتت تغطي مساحة واسعة من المشهد، ما يحيل غيره إلى... الظل. وهو صراع يَظهر في كلامٍ وجدلٍ ضد درويش "البرجوازي"، أو ضد "جماهيريته" التي تستند إلى... "القضية" وحسب.

هذا ما كان لدرويش أن يعايشه، وأن يتحقق منه، في أي مؤتمر أدبي، أو شعري، في أي أمسية، حيث كان عليه

.indd 120 29/07/2019 12:13:07

أن ينتبــه إلى عــدم إقــرار هــذا الشــاعر أو ذاك بأســبقيته أو بتقدمــه عليهــم، في الشــهرة خصوصًــا. هــذا مــا عايشــتُه بنفــسي معــه، كأن يخبرنــي بــأن الشــاعر الفلانــي يطالــب – وهــو منظــم للاحتفــال الشــعري المقصــود – بــأن تكــون مشــاركته هــي "مســك الختــام" في الأمســية بــدل درويــش. كثــيرون كانــوا يتذمــرون ويشــتكون مــن حضــوره الطاغــي والمتقــدم، عــلى مــا كنــت أســمع وأقــرأ، لدرجــة أنــه فاتحَنــي ذات ظهــيرة في عَمــان: كيــف يحــدث أنــك لا تبادلنــي هــذه المشــاعر... الطبيعيــة منهــم، ولكــن البغيضــة؟. أجبتُــه: هــذا يعــود إلى ســببَين: ســببٌ دراسي، وهــو أن عــليَّ أن أتعامــل مــع واقــعِ تقدُّمِــك عــلى غــيرك في الذائقــة الشــعرية، في ذائقــة الجمهــور؛ وســببٌ ثــانٍ، وهــو أننــي أختلــف معــكَ في النــص، في بنــاء القصيــدة، وأكتــبُ غــير مــا تكتــب.

ضحكنــا، يومهــا، وتبادلنــا المــزاح والنــكات. كان ســببُ هــذا النقــاش، هــو أن درويــش "لــم يفهــم" مــا كتبتُــه عنــه في مقــال في جريــدة "الحيــاة". والتعبــير: "لــم أفهــم" عنــد درويــش يعنــي، كمــا عهدتُــه، رفضًــا مهذبًــا لمــا أكتبــه. أمــا مبعــث "عــدم الفهــم"، فهــو أننــي كتبــتُ، يومهــا، مــا يفيــد أن قصيــدة درويــش تُعــيِّن، في أبنيتهــا، صــلات ومعانــي ودلالات

.....indd 121 29/07/2019 12:13:07

"الأخـوة" و"الصحبـة" و"الرفقـة" ابتـداء ممـا هـو حاصـل في العلاقـات التـي تسـبق القصيـدة، فتأتـي القصيـدة لكـي تسـجلها. فمَـن يخاطبُـه درويـش، ومَـن يتوجَّـه إليـه، خاصـة في حـالات "الاستشـهاد" – وهـي مـا يخـصُّ بهـا عـددًا مـن معارفـه والقريبِـين منـه – مسـبوقُ التعيـينِ، والصفـةِ، والقيمـةِ، إذا جـاز القـول، فـلا تكـون القصيـدة سـوى "اعـترافٍ" بمـا جـرى خارجهـا.

.indd 122 29/07/2019 12:13:07

الباب الثاني:
المغنِّي، الخَشَبة والقصيدة

123 .indd 29/07/2019 12:13:07

"حَربُك حَرْبان"

تحتل قصيدة: "سرحان يشرب القهوة في الكافيتيريا"[27] مكانة خاصة عندي، إذ ترسمُ بدايةَ علاقتي الشعرية بشعر درويش. وهو ما استمرَّ في قادم السنوات، إذ جعلتُها قصيدة مناسبة لتدريس شعر درويش على طلابي في الجامعة. بل وجدتُ – مع الدرس – أن هذه القصيدة تمثل نموذجًا أو تشكلًا جديدًا لقصيدته.

ما لا ينتبه إليه الدرس كفاية هو أن درويش انتقل بين أكثر من نموذج مِما اختطَّه لشعره. وهي نماذج تتخذ، مع القصيدة المذكورة، ترسيمةً جديرة بالانتباه والفحص، إذ لن تفارق درويش في لاحق شعره، وإن

27) محمود درويش: "سرحان يشرب القهوة في الكافيتيريا"، في "أحبك أو لا أحبك" (1972)، في "ديوان محمود درويش"، المجلد الثاني، دار العودة، بيروت، الطبعة الثانية، 1987، ص ص 157 - 196.

.....indd 125 29/07/2019 12:13:07

اتسعت أو تنوعت أو تشكلت تشكلات مغايرة من قصيدة إلى أخرى، من مجموعة إلى أخرى.

اللافت في هذه القصيدة، بداية، هو أنها لا تنتسب إلى "المناسبة" السياسية، وإن انطلقت من حادثة اغتيال المرشح الرئاسي الأميركي روبرت كينيدي، أخ جون كينيدي، الرئيس السابق للولايات المتحدة الأميركية. صدرت القصيدة في العام 1972، فيما جرت عملية الاغتيال في العام 1968. ما الذي جعل درويش يكتب عنها بعد سنوات معدودة؟ هذا ما لا يمكن الكشف عنه بغياب معلومات أو تصريحات تفيد عن "الوازع" إلى كتابة القصيدة.

إلا أن في إمكان الدرس أن يتوقف عند "المناسبة" وما يحيط بها، وكيف انتهت في القصيدة. لا يحتاج الدارس إلى أدلة كثيرة لكي بتأكد من أن درويش اطلع على تفاصيل حياة سرحان (من مواليد العام 1944) قبل حلوله مع عائلته في الولايات المتحدة الأميركية في العام 1957، وأن الاغتيال حدث بعد سنة على "النكسة". وجب القول أيضًا إن سرحان "ظهرَ" في نصوص أدبية عربية قبل قصيدة درويش: الشاعر والمسرحي اللبناني عصام

.indd 126 29/07/2019 12:13:07

محفـوظ كتـب مسرحيـة بعنـوان: "لمـاذا رفـض سرحـان سرحـان مـا قالَـه الزعيـم عـن فـرج الحلـو في اسـتريو 71؟" (في العـام 1971). كمـا كتـب الشـاعر المـصري أمـل دنقـل قصيـدة: "المـوت في الفـراش"، وخاطـبَ فيهـا سرحـان... هـذا في الوقـت الـذي حفلـت بـه الصحـف والمجـلات العربيـة (فضـلًا عـن الأجنبيـة) بأخبـار سرحـان بـين الاغتيـال والمحاكمـة والسـجن. لهـذا يمكـن القـول إن إقـدام درويـش عـلى كتابـة قصيدتـه هـذه يتأتـى مـن خيـار وجـدَ فيـه مـا يناسـب شـعره في المقـام الأول. فمـا كان؟

"دعونـي قبـل أن أحدِّثكـم أغسـل فمـي، لأننـي شربـتُ قهـوة عربيـة قبـل قليـل": هـذا مـا رواه روبـرت كينيـدي، حسـب بعـض المرويـات، في تجمـع يهـودي أميركـي، أثنـاء حملتـه الانتخابيـة، بعـد لقائـه بوفـد دبلومـاسي عربـي. أمِـن هـذه الواقعـة بـدأ درويـش كتابـة قصيدتـه، وحـددَ منطلقهـا الـسردي، إذا جـاز القـول، ابتـداء مـن... القهـوة (حيـث هـي، في القصيـدة، "جغرافيـا")؟

مـا يسـتوقف الـدارس هـو أن القصيـدة ذات مبنـى مختلـف عـن سـابق شـعر درويـش، إذ يحتـاج الوقـوف عـلى هـذا المبنـى التنبـهَ إلى تغـيرات بنـاء الجُمـل، وإلى تغـيرات

.....indd 127 29/07/2019 12:13:07

مقـام الصـوت فيهـا، إذا جـاز القـول.

"يَجِيئـون": هكـذا تبدأ القصيـدة في سـطرها الأول، والذي ينفـرد بالسـطر وحـده. تبـدأ القصيـدة بالـسرد، مـع راوٍ غـير معـروف. ثـم لا نلبـث، في السـطر التاسـع، أن نقـرأ: "أنـتَ لا تعـرف، اليـوم..."، حيـث إن الـراوي المضمَـر يتوجـه بكلامـه إلى مخاطَـب. مـن الـراوي؟ مـن المخاطَـب؟ ثـم نتحقـق، في السـطر الرابـع عـشر، مـن القـول التـالي: "سرحـان! هـل أنـت قاتـل؟". مـن السـائل؟ أهـو صـوت الـراوي المضمَـر؟ أهـو المحقِّـق؟ أيكـون المحقِّـق هـو الـراوي المضمَـر؟ ثـم لا نلبـث، في السـطر الـذي يـلي، أن نقـرأ: "ويكتـب سرحـان شـيئًا عـلى كـمِّ معطفـه، ثـم تَهْـرب/ ذاكـرةٌ مـن ملـف الجريمـة". أيكـون الـسرد الافتتاحـي في القصيـدة، ومـا يليـه، مسـتلًّا مـن "ملـف" سرحـان بعـد اقترافـه جريمتـه؟

هكـذا يمكـن التحقـق من "ناظـم" سردي للقصيـدة، يتنقل مـن مقطـع إلى آخـر، مـن دون أن يكـون متتابعًـا زمنيًّـا: قـد يـرد كلام عـن زنزانـة سرحـان، أو عـن التحقيـق معـه، أو عـن تفكّـره أثنـاء شرب القهـوة... فيمـا يتقاطـع معـه سرد آخـر يخـص الفلسـطينيين أنفسـهم، في اقتلاعهـم، في رحيلهـم، في أوجاعهـم اليوميـة. وهـو سردٌ يتشـكل أيضًـا في الحديـث عـن

.indd 128 29/07/2019 12:13:07

تغـير فلسـطين نفسـها: "بـلاد تغـير سـكانها"...

هـذا الناظـم الـسردي يشـكل سـابقة بنائيـة في شـعر درويـش لا نلبـث أن نلقاهـا في قصائـد تاليـة لـه؛ وهـو يسـتعيد، بتقطـع، بإشـارات مقتضبـة، مرمَّـزة أحيانًـا، تاريخ الفلسـطينيين وفلسـطين بعـد أن "جـاء" إليهـا اليهـود، فمـا كان للفلسـطينيين أن يدافعـوا عنهـا، مـا دام أن "أبوابنـا البحـر": تبـدَّلَ موقـعُ النظـر إلى فلسـطين: مـن "داخلهـا" إلى النظـر إليهـا مـن "خارجهـا"، مـن تاريخهـا.

مـا يمكـن تبينُـه في هـذه القصيـدة الطويلـة هـو قيامهـا وفـق جـداول معـانٍ ودلالات، بعضُهـا سـابقٌ في شـعر درويـش (ولاحـقٌ)، وبعضُهـا جديـد. منهـا الـسرد السِّـيَري الشـخصي، الـذي حمـل في هـذه القصيـدة سـيرة: سرحـان بشـارة سرحـان (بينمـا سـيتخذ سِـيرَ آخريـن في قصائـد لاحقـة): "سرحـان! هـل أنـت قاتـل؟"؛ "سرحـان يضحـك في مطبـخ الباخـرة"؛ "سرحـان يحمـل أرصفـة ونـوادي ومكتـب حجـز التذاكـر"؛ "يحمـل (سرحـان) تأشـيرة لدخـول المحيـط"؛ "سرحـان يـشرب قهوتـه"؛ "سرحـان يرسـم شـكلًا ويحذفـه"؛ "سرحـان لا يقـرأ الصحـف العربيـة"؛ "سرحـان يرسـم صـدرًا ويسـكنه"؛ "ويسـكت سرحـان يـشرب قهوتـه

.....indd 129 29/07/2019 12:13:07

ويضيـع ويرسـم/ خارطـة لا حـدود لهـا ويقيـس الحقـول بأغلالـه" وغيرهـا.

ومنهـا أيضًـا الـسرد التاريخـي لفلسـطين عشـية الاحتـلال، وللفلسـطينيين بمـا أصابهـم مـن اقتـلاع وترحيـل وتجهيـل، ولليهـود بمـا فعلـوه بفلسـطين وبالفلسـطينيين: "إلى الأمهـات اللواتـي تزوجـنَ أعداءنـا"؛ "كنـا شـعوبًا وصرنا حجـارة"؛ "بـلاد تغـير سـكانها"؛ "تناسـل فينـا الغـزاة"؛ "نابالـمُ يحـرقُ وجهًـا ونافـذة... ويؤلـف دولـة"؛ "يصكـون أسـلحة مـن أسـاطير"؛ "لا هويـة إلا الخيـام"؛ "ضـاع منـك الوطـن"؛ "وثـوارك السـابقون سـعاة بريـد"؛ "وفي المهجـر/ العربـي يقولـون مـا الفـرق بـين الغـزاة والطغـاة"؛ "وحربُـك حربـان" وغيرهـا.

وهـو سردٌ لا يغيِّـب "العربـي" الرسـمي، المتخـاذِل، مـا سـيتأكد كثيـرًا في شـعر درويـش اللاحـق: "ومـا القـدس والمـدن الضائعـة/ سـوى ناقـة تمتطيهـا البـداوة/ إلى السـلطة الجائعـة/ ومـا القـدس والمـدن الضائعـة/ سـوى منـبر للخطابـة/ ومسـتودع للكآبـة (...) ولكنهـا وطنـي"؛ "ليـس مهمًـا سـؤالك مـا دامـت الثـورة العربيـة محفوظـة في الأناشـيد" وغيرهـا. وهـو كلام درويـش عـن أن حـرب

.indd 130 29/07/2019 12:13:07

الفلسطيني "حربان": حربٌ مع من أصبح "خارجيًّا"، أي الإسرائيلي، وحربٌ مع من أصبح "داخليًا"، أي الداخل العربي.

كما يتخذ هذا التناول للعربي بعدًا لغويًّا لافتًا وجديدًا في شعر درويش، وهو الهزء بما "بَقي" من وجودٍ للعربي، من كيان، وهو لغتُه، وتميزُها (الصوتي) عن باقي اللغات، في حروفها: "ض. ظ. ق. ص. ع. و"؛ "حروفٌ تُميزنا عن سوانا"، "جراحُك مطبعةٌ للبلاغات/ والتوصيات"؛ "أتذهبُ صيحاتُنا عبثًا؟" وغيرها. إلا أن هذا التناول لا يغَيِّب كون درويش سيذكر العربية لاحقًا في معرض التمسك الشديد بها، إذ ستصبح (في شعر لاحق) كناية عن الشاعر، عن جسده، عن وطنه الأكيد، في نوع من التماهي (الإيجابي) بينهما.

هكذا يلتقي الفرد (سرحان) بالمجموع (الفلسطينيين)، والشخصي (ما حصل لسرحان) بالوطني (بما حصل للفلسطينيين)، والسِّيَري بالتاريخي، ما يُشكِّلُ بناءَ سيرةٍ، بناءَ تاريخ. وهو نوع آخر من "تأكيد" الوجود، وتدوينه، مثلما جرى الكلام عنه أعلاه، بحيث بات العنوان الجديد: سجلْ، اسمي سرحان بشارة سرحان؛

.....indd 131 29/07/2019 12:13:07

سـجلْ هـذه هـي سـيرتي، هـذا هـو تاريخـي. إلا أن هـذا التأكيـد لـم يعـد يتـمُّ توجيهـه إلى الإسرائيـلي، وإنمـا إلى آخريـن: منهـم الشـاعر نفسـه، ومنهـم الفسـطينيون؛ أي باتـت القصيـدة تواكـب مسـار "الشـتات" الفلسـطيني في توجهـه صـوب فلسـطين التاريخيـة.

إلا أن مـا يَخفـى، في هـذا الـكلام، هـو أن القصيـدة تنبنـي وفـق بنائيـة تخاطبيـة، تتعـين في أكـثر مـن سـبيل. يتعـين أولُهـا في انبنـاء القصيـدة وفـق أشـكال سرديـة مبنيـة تبعًـا لضمـير الغائـب، وتقـوم عـلى الوصـف والإخبـار وذكـر الوقائـع: "يجيئـون". هـذا مـا يمكـن أن يكـون الـراوي المضمَـر. ويتعـين التخاطـب بـين متكلـم ومخاطَـب؛ وهـذان "وظيفتـان" في القصيـدة: تصلـح الوظيفـة الأولى لتسـمية "المحقِّـق" أو سرحـان أو متكلـم مجهـول؛ وتصلـح الوظيفـة الثانيـة لتعيـين نفـس المذكورِيـن، عـلى أنهـم في موقـع التلقـي، لا الإرسـال. ويتعـين التخاطـب، أخـيرًا، في نـون الجماعـة، التـي يلتبـس ويتداخـل فيهـا صـوت الـراوي السـارد بصـوت غـيره مـن الفلسـطينيين، عـلى أنـه صـوت شـكوى، صـوت تألـم، صـوت تصميـم وغيرهـا.

.indd 132 29/07/2019 12:13:07

هكـذا تتـوازن علاقـات التخاطـب، في هـذه القصيـدة، عمّـا كانتـه في شـعر درويـش السـابق: لـم يعـد، في مقدرونـا، أن ننسـب المتكلـم إلى درويـش نفسـه، في تعالقـات بينـة بـين مـا يتكلمـه ومـا يعيشـه. المتكلـم بـات، في الغالـب، وظيفـة بنائيـة، أسـلوبية؛ هـي ليسـت "مكـبِّرَ صـوتِ" الشـاعر بوصفـه الإنسـان الـذي يُمسـك بقلـم القصيـدة. وهـو مـا يصـحُّ في غنائيـة المتكلـم نفسـها، حيـث لـم تعـد تعنـي اعتـدادًا بالنفـس، بإرادتهـا، بتصميمهـا، وإنمـا باتـت غنائيـة يختفـي فيهـا المتكلـم في جسـم المجمـوع: "ونلتـفُّ باسـمكِ".

هـذا الـراوي المضمَـر قـد لا يكـون "شـخصًا"، وإنمـا هـو صـوت في القصيـدة. وهـذا المخاطَـب، صـوتٌ بـدوره. ونـون الجماعـة، صـوتٌ بدورهـا. إنـه يـروي "جريمـة" أخـرى: أيـن "جريمـة" سرحـان، مـن "جريمـة" الوافدِيـن عـبر البحـر، أي مـن الشـتات اليهـودي، إلى أرض فلسـطين!

مَلَكـة محمـود درويـش هـي مجمـوع أصـوات القصيـدة، إلا أنهـا تتشـكل مثـل ممثـل فـوق خشـبة، في عـرضٍ، فيتكفـل بجميـع "الأدوار" و"الشـخصيات". نلقـاه يَـروي ويصـف، يخاطـب ويجيـب، أو يرتفـع بالنشـيد.

.indd 133 29/07/2019 12:13:07

هكـذا انتقـل درويـش مـن قصيـدة "التأكيـد" في وجـه المحتـل إلى قصيـدة مختلفـة، تتوجـه إلى مخاطَـب خارجـي، مختلـف: القـارئ، وإن تبـدو تقاطيـع العربـي أكـثر شـدَّة مـن غـيره.

بنائيـة تخاطبيـة، ناظـم سردي، غنائيـة متجـددة، بـل متحولـة. هـذا مـا يمكـن التحقـق منـه في جنـوح درويـش إلى القصيـدة الطويلـة، وإلى المطولـة، إذ يسـتدعي بناؤهـا مثـل هـذا التركيـب المتنـوع والمتعـدد: هـذا مـا بـدأ في نشـيده الطويـل: "تلـك صورتهـا، وهـذا انتحـار العاشـق" (1975)، وصـولًا إلى قصيـدة "الأرض"، فـ"قصيـدة بـيروت" (1984)، فـ"مديـح الظـل العـالي" (1984) وغيرهـا.

هـذا مـا يمكـن ملاحقتُـه في شـعر درويـش اللاحـق، حيـث إن الوجهـة، التـي اتخذَهـا في "سرحـان يـشرب..."، لـن تتبـدل بعـد تلـك القصيـدة، بدليـل المراجعـات التـي أجراهـا درويـش عـلى كثـير مـن شـعر البدايـات. وهـو مـا بلـغَ بـه القـول أو التعبـير عـن رغبتـه في "حـذف" قسـم كبـير مـن شـعره. ومـا يشـذُّ بعـض الـشيء عـن هـذه الوجهـة كتابـه الشـعري: "حالـة حصـار" (2002)، الـذي كتبَـه أثنـاء حصـار القـوات الإسرائيليـة لـرام اللـه، وقـد كان فيهـا

.indd 134 29/07/2019 12:13:07

في ذلـك الوقـت. إلا أن مواجهـة الحصـار، في هـذه القصيـدة الطويلـة، لا تحفـل بالاعتداديـة الغنائيـة القديمـة، مـع أن المتكلـم يتحـدث عـن أنـه "يُربِّـي الأمـل" في القصيـدة. في هذه وغيرهـا، قبلهـا وبعدهـا، سـتتبدل غنائيـة الشـاعر بـين علـو وخفـض، بـين تصميميـة انتصارية ومعاتبـة داخليـة. غنائية ممتزجـة بالتأمـل، بمراجعـة الـذات، بمعاتبـة الأقربـاء قبـل الأعـداء، والتنبـه المديـد لمـن يعايشـون الصمـت في الانتظـار مثـل وديعـة تتراكـم في الصـدور قبـل الشـارع.

يقـوى الـدارس، بطبيعـة الحـال، عـلى تتبـع امتـدادات قصيـدة "سرحـان يـشرب..."، أو تحولاتهـا، في شـعر درويـش بعدهـا. وهـي قـراءة ممكنـة، إلا أنهـا قـد تكـون قـراءة تبخيسـية لتجربـة، بـل لتجـارب الشـاعر، إذ تُسـقط الغنـى والتغـير لصالـح التتبـع وبرهنـة الفرضيـة البحثيـة. الأكيـد أن قصيـدة "سرحـان يـشرب..." تمثـل بنـاء تحويليًّـا، حافـلًا بإمكانـات بنائيـة وتعبيريـة عديـدة. فالتخاطـب لـن يختفـي بعـد اليـوم مـن شـعره، بـل سـتقوم لعبـة أصـوات فيـه، شـديدة الغنـى والتنقـل، حيـث المتكلـم يتخـذُ لبوسـات وأسـماء وكنايـات ورمـوزًا متعـددة، متبدلـة. فهـو: الطفـل الـذي كان، أو يوسـف، أو الواقـف في الغـروب يسـائل نفسـه عـن نفسـه...

.indd 135 29/07/2019 12:13:07

هـذا مـا يصـحُّ أكـثر في الناظـم الـسردي، حيـث إنـه يتحـول إلى السِّـيَري الذاتـي، مـع: "لمـاذا تركـتَ الحصـان وحيـدًا؟"، فيتداخـلُ فيـه توجـهُ الطفـل إلى أبيـه، مـع توجُّـه المناضـل إلى "أب" فلسـطين (التـي هـي قيـد الحـراك): ياسر عرفـات، أي بـين حصـان الطفولـة، وحصـان الثـورة. وهـو النـزوع إلى المزيـد في مواجهـة تجربـة المـوت، في الحيـاة كمـا في القصيـدة، التـي صاغهـا في: "جداريـة" (2000)، أو: "في حـضرة الغيـاب" (2006). والسـيرة تتخـذ، في هـذه الحـال، شـكل اسـتباق للمـوت، ورثـاء لـه، مـا لـه علاقـة – في سـببه الحدثـي – بمـا عاشـه درويـش في إحـدى عمليـات القلـب، حيـث غـاب عـن الوعـي تمامًـا، وطـار في فضـاء أبيـض: يكتـب درويـش للقاسـم عـن هـذه التجربـة (في رسـالة في 21 -11- 1986): "نمـتُ عـلى غيمـة مـن قطـن أبيـض (...). نشـوة النـوم عـلى سـحاب أبيـض. بيـاض لـم أرَه مـن قبـل. بيـاض مـن ضـوء ناعـم. شـفاف ولا يطـلُّ عـلى شيء. لا يعكـس شـيئًا. بيـاض خلـف نـور، وخلـف النـور بيـاض مصقـول (...). لكننـي رأيـت ريشـة بيضـاء نائمـة عـلى سـحابة بيضـاء واقفـة عـلى هـواء أبيـض". هـذا مـا تناولَـه، إثـر عمليتـه الجراحيـة، مـا ظهـرَ في بعـض شـعر كِتابـه: "هـي أغنيـة... هـي أغنيـة" (1986) في قصيدتَـي: "حجـرة

.....indd 136 29/07/2019 12:13:07

العنايــة الفائقــة"، و"أنــا العاشــق الســيئ الحــظ".

يخلــص درويــش إلى ذاتــه، الهشــة والضعيفــة أمــام جـبروت المـوت، في "جداريـة" المطولـة. وهـو خلـوصٌ إلزامـي، إذا جــاز القــول، مــا دام أن الشــاعر يعــاشر، في جســده، نبـضَ الخـسران والفقـدان، فـلا يكفيـه بالتـالي مـا يمكـن أن يسـتشرفه بعـد... المـوت، حيـث لا يوجد غـير... القصيـدة. إلا أن هـذا الخلـوص إلى الـذات لـن يفـارق تعبيريـة شـعره بعـد اليـوم، حيـث إن تجربـة العيـش خـارج... الحيـاة، في فضـاء المـوت، هـي أيضًـا عـودة فجائيـة إلى الحيـاة. وهـو مـا باتـت تُشـدد عليـه القصيـدة، حيـث باتـت العـودة إليهـا المنفـذَ الجمـالي و"الخلـودي"، إذ يكتـب المتكلـم الـذي في الشـاعر، بنفســه، "جداريــة" حضــوره[28]:

عُدْ يا موت وحدك سالمًا،

فأنا طليق ههنا في لا هنا

أو لا هناك. عُدْ إلى منفاك

وحدك[29].

28) حوار مع مجلة "آفاق مغربية": "بحثًا عن الخلاص الجمالي"، عدد 57، 1995.

29) محمود درويش: "جدارية محمود درويش" رياض الريس للكتب والنشر، بيروت، 2000، ص 61 - 62.

.....indd 137 29/07/2019 12:13:07

إذا عـاد درويـش – مـن جديـد – إلى "مناسـبات" يصـوغ ابتـداءً منهـا قصائـد (عـن الشـهيد محمـد الـدرة)، أو كتابًـا شـعريًّا ("حالـة حصـار")، فـإن لحيـاة درويـش "مناسـباتها"، هـي الأخـرى، مثـل اسـتشراف المـوت في غمـار عمليـة جراحيـة (كمـا قلـتُ أعـلاه)، أو مسـاءلة الـذات عـن مكانهـا، عـن أبيهـا وغيرهـا.

الأكيـد هـو أن درويـش أولى قصيدتـه عنايـة بنائيـة وجماليـة "مشـغولة" مـن قصيـدة إلى أخـرى، بـل بـات الكتـاب يعنـي "تجربـة" في حـدّ ذاتهـا، فـلا يكـون مجمـوعَ قصائـد مكتوبـة بـين صـدور مجموعـة شـعرية وأخـرى. بـات هنـاك الشـاغل الشـعري، التأليفـي، الـذي يُعنـى بالقصيـدة، بالكتـاب، عـلى أن مـا يكفلهمـا بـات يتعـين في انـصراف الشـاعر إلى عدتـه النصيـة. وهـو مـا يَـرِدُ، في كثـير مـن شـعره، عـن "البيـاض"، و"الصفحـة"، و"الورقـة"، و"الكتـاب"، و"اللغـة". بـل يمكـن القـول إن اللغـة نفسـها، العربيـة، باتـت فعـلًا "بيـت الكينونـة" الأخـير.

قـد ينسـب البعـض تحـولات درويـش، المتماديـة والمتتابعـة، إلى ثقافتـه الشـعرية المتجـددة، بمـا فيهـا الأجنبيـة خصوصًـا، وإلى تفاعلـه مـع تجـارب شـعرية عربيـة متعـددة ومتنوعـة، بمـا فيهـا تجـارب شـعراء

.indd 138 29/07/2019 12:13:07

لاحقِـين عليـه، وإلى تجـارب حياتيـة باتـت تفعـلُ فعلَهـا الأكيـد في احتياجاتـه التعبيريـة... هـذه الأنسـاب صحيحـة، وهـو مـا تأكـدتُ منـه بنفـسي في حواراتـي مـع درويـش غـير مـرة، وحـول أكـثر مـن جانـب شـعري أو ثقـافي في تجربتـه. إلا أن الصحيـح أيضًـا هـو أن درويـش حـاولَ – خاصـة بعـد الخـروج مـن منظمـة التحريـر – إنصاتًـا مزيـدًا لنفسـه، ولقصيدتـه، في نـوع مـن التأمـل الصـافي والمزيـد لِمـا هـو، ولِمـا هـي عليـه حياتـه. ولعلَـه، في هـذا كلـه، عـوَّل عـلى القصيـدة دلالـةً أكيـدة وحاسـمة في وجـوده وبقائـه، عـلى الرغـم مـن كونـه هـو القائـل في ختـام "جداريـة":

أما أنا وقد امتلأت

بكل أسباب الرحيل

فلستُ لي.

أنا لستُ لي

أنا لستُ لي (م. ن.، ص 104 - 105).

هـو ليـس لـه، إذ يفـارق درويـش جسـده، عـلى أنـه لـه في القصيـدة.

.....indd 139 29/07/2019 12:13:07

"مَسْرَحة" الذات

نقيم الربط، بسرعة وابتسار، بين الشاعر بوصفه شاعرًا وبينه بوصفه كائنًا اجتماعيًّا، وبين اسمه العائلي واسمه الفني، إن طلبنا الترميز. نقيم التلازم، بل التطابق، بسرعة وابتسار، بين هذا الاسم وبين قوله الشعري من دون تبين العمليات التحويلية بينهما (بما تتيحه، حسب المقاربات النفسية، من عمليات تكثيف وتحوير وتبديل وترميز وتصعيد وغيرها). نقيمها، بسرعة وابتسار، بين القول الشعري والمتكلم (أو المتكلمين) فيه، من دون أن نميِّز، في أبنية القصيدة ومقاصدها، بين المتكلم والصوت، من جهة، وبين الفعل الكتابي نفسه والفعل التخاطبي، من جهة ثانية.

هل القصيدة انتقلت في شعر درويش من السماع

.indd 141 29/07/2019 12:13:07

والمنـاداة والتحريـض إلى الكتابيـة المتعاظمـة وبالتـالي إلى القـراءة؟ هـل القصيـدة تنبنـي وفقًـا لمهـارة مسـتعمَلة وموظَّفـة في الطلبـات الاجتماعيـة، ولأداء احتياجـات خارجهـا، أم هـي ممارسـة أقـربُ إلى الفعـل الفـردي (النرجسي، أي الـذي يتمـارى بينمـا ينظـر إلى غـيره) الـذي ينتظـم وفـق تحديـدات مغايـرة، تقـع بـين الشـاعر وبـين القـارئ العمومـي؟

هـذا مـا يمكـن أن أدفعـه في وجهـة أقـوى، وهـي: هـل القصيـدة سـهَّلت تحويـل نفسـها إلى مدونـة ذاتيـة، أم أنهـا أوجبـتْ اجتماعيـةً جديـدة لهـا؟ هـل الشـاعر يَسُـوق قصيدتَـه مثـل الخطيـب خطبتـه أم أنـه ينجـلي فيهـا بينمـا يكتبهـا؟ هـل يكتبهـا بينمـا تكتبـه؟ هـل يتعـرف إليهـا بعـد الانتهـاء منهـا أم يتعـين صنيعـه فيهـا، في طلـبٍ عليهـا، تُمليـه تحديـدات اجتماعيـة وإيديولوجيـة وغيرهـا؟

يكتـب الشـاعر العراقـي فاضـل العـزاوي: "عنوانـي الطبيعـة، والغامـض المقـدس اسـمي"؛ ويكتب أدونيـس "لغم الحضـارة: هـذا هـو اسـمي": الاسـم معـيَّن، لا يحتـاج إلى تبـين، وهويتُـه مبرمـة، مسـبوقةٌ عـلى تملـك اللغـة نفسـها، عـلى مبـاشرة الشـعر. وهـو، في ذلـك، يُعـيِّن الأشـياء، يُسـمِّيها

.indd 142 29/07/2019 12:13:07

بفعـلِ إشـارته صوبهـا، وتدليلـه عليهـا: مثـل الإصبـع الـذي يكتفـي بـأن يشـير إلى جهـة بعينهـا لكـي تـسري فيهـا الحيـاة: إصبـع التكويـن، كمـا في جداريـة تصويريـة لميكيـل أنجلـو في سـقوف كنيسـة "السكسـتين" في الفاتيـكان. هـذه الأنـا المتكلِّمـة تُبـاشِرُ العالـمَ والكائنـات باللغـة، بقـوة التسـمية، بينمـا تصـادر طاقـة التعيـين.

أمّـا محمـود درويـش فـلا يعـرف القـدرة هـذه، بـل يُقـدِّم صـورة عـن المتكلـم في شـعره تفيـد أنـه غـير متحقـق مـن دون غـيره، وأن الأشـياء هـي التـي تُشـعل الحيـاة فيـه، لا العكـس. فصـدور المعنـى لا يتوفـر إلا انطلاقًـا مـن علاقـة بالزمـن، هـي معـدن الحيـاة ومختبرهـا، ومجـال امتحـان الهويـة:

أكلما شرَدَتْ عينان

شرَّدني

هذا السحاب سحابًا

كلما خمشتْ عصفورة أفقًا

فتَّشْتُ عن وثنِ[30].

30) محمود درويش: "موسيقى عربية"، في "حصار لمدائح البحر"، دار سراس للنشر، مدينة تونس، ص 7.

.....indd 143 29/07/2019 12:13:07

ما هذه الأنا الواهية، الهشة، التي لا تستقيم بذاتها، والتي تُجرِّبها المواجهات، وتُعيدها إلى التداول، إلى الامتحان، إلى اختبار ما كانت عليه، أو ما كانت تصبو إليه؟ ما هذه الأنا التي تتأثر بما يحيط بها، بما يُجريه عليها الزمن من مِحَن وتجارب؟

يحتاج المتكلم، في قصيدة درويش، إلى غيره، إلى مخاطَب متعددٍ أحيانًا، لكي يقوى على تعيين ما هو عليه. فهو - لو تمَّ التوقف عند مجموعة "حصار لمدائح البحر" (1984، التي استقيتُ منها الأبيات أعلاه، وأدناه كذلك) - لا يتوانى عن توجيه القصيدة في حوار متصل. لكنه لا ينطلق من دون "مناسبات" (اغتيال عز الدين قلق في باريس، وماجد أبو شرار في روما، وحصار بيروت خصوصًا في العام 1982، وخروج القوى الفلسطينية المسلحة منها)، هي التي تُحدد أو تُعيِّن منطلَق القصيدة. ويشتمل هذا على قبْله طبعًا، لكنه لم يكن ممكنًا من دون "حادثة" فردية أو جماعية لها فعلُها في الزمن، ما يستدعي التحقق مِما جرى ومن آثاره ووقعِه على أطراف الحوار.

.indd 144 29/07/2019 12:13:08

هـذا مـا يتضـح منـذ عناويـن بعـض القصائـد: "الحـوار الأخـير في باريـس"، و"اللقـاء الأخـير في رومـا"، "حـوار شـخصي في سـمرقند"... واللافـت في هـذه العناوين اشـتمالُها عـلى عنـاصر ثابتـة تحـدد العلاقـات المطلوبـة في الشـأن التخاطبـي: الحـوار نفسـه، الـذي يتحقـق في ظـروف حوارية بعينهـا، محـددة مكانيًّـا (رومـا، باريـس، سـمرقند...)، وزمانيًّـا (توقيـت هـذا الاغتيـال أو ذاك، مـن دون إشـارة زمانيـة في سـمرقند...). إلا أن الظـروف الحواريـة تتعـدى ذلـك، إذ نتحقـق مـن آثارهـا في غـير قصيـدة في المجموعـة، وتشـير إلى سـياقات معروفـة خارجهـا: خـروج القـوى الفلسـطينية المسـلحة مـن بـيروت عـبر البحـر بسـلاحهم الفـردي وحسـب، وتوديعهـم بالزغاريـد والهتافـات؛ والإشـارة "الشـعرية" ("بـيروت خيمتنـا الأخـيرة، بـيروت نجمتنـا الأخـيرة"، ص 92) إلى مـا كانـت عليـه خطـةٌ فلسـطينية، وهـي الخـروج مـن بـيروت إلى "دولـة" فلسـطين، ومذابـح شـاتيلا وغـير ذلـك مِمـا تحفـل بـه القصائـد. إلا أن للظـروف الحواريـة مـا يحددُّهـا أكـثر، وإن في أشـكال أشـد خفـاء؛ يحددُّهـا في العلاقـات التـي يُقيمهـا المتكلـم معهـا، مـع أسـباب الحـوار، وهـو مـا لا قـدرة لي عـلى معرفتـه مـن دون تبـين أطـراف الحـوار المعقـودة فيـه وقضايـاه.

.indd 145 29/07/2019 12:13:08

المتكلـم غـيرُ واحـدٍ في النـص الواحـد، كمـا في تتابـع النصـوص: أهـو المتكلـم نفسـه، في وضعيـات حواريـة متعـددة ومختلفـة، أم هـم متكلمـون مختلفـون، ولـ"أنـوات" مختلفـة؟ لا أسـتطيع الإجابـة عـن هـذا السـؤال، ذلـك أننـي أفتقـد عنـاصر عديـدة تمكِّننـي مـن تحقيـق النسـبة بـين المتكلـم والأنـا. مـا أقـوى عليـه هـو فـرز عـدة أصنـاف مـن المتكلمِـين:

- متكلم جماعي، وهو ما أسميه "الصوت"؛
- متكلم فردي، وهو ما أسميه "المتكلم المفرَد"؛
- المتكلـم باسـم شـخص آخـر، وهـو مـا أسـميه "المتكلـم المـؤدِّي".

ذلـك أننـي لاحظـتُ وجـودَ متكلـم في غالـب النصـوص، لا يمكـن نسـبتُه إلى ملامـح وهيئـة وعـادات وسـلوكات بعينهـا؛ بـل يمكـن العثـور عـلى "صوتـه" وحسـب، عـلى مـا يقولـه إزاء هـذه الواقعـة أو تلـك. لا هيئـةَ ترسـمُه، ولا محـدداتٍ تخصُّـه، سـوى إبلاغِـه نفسـه، سـوى مـا يربطـه مـن أسـباب الحـوار بغـيره، أمًّـا، أو صديقًـا، أو مخاطَبـين، عـلى أنـه منهـم، مجموعًـا إليهـم، متماثـلًا معهـم في آلام العيـش وتطلعاتـه.

.....indd 146 29/07/2019 12:13:08

غـير أننـي أقـع، في أحيـان قليلـة، عـلى متكلـم مفـرد، لـه مـا يربطـه بغـيره، بشـخصٍ مفرد آخـر: هـو "ليـلى" في إحدى القصائـد، أو "جيـم" فقـط مـن دون تعييـنـات أخـرى غـير الإشـارة إلى "سـاقيها" وحسـب، أو إلى كلام في الحب لا يتسـم بشـدة نبرتـه أو تميـزه. وهـي، مـع ذلـك، أنـا غـير مسـتقرة، لا تهنـأ إلى حـال: تبحـث دومًـا عـن نفسـها، عـن اسـمها، بـين مراجعـات المـاضي وتحققـات اللحظـة، بـين صُـوَر المتكلـم عـن ذاتـه وصعوبـات مواجهاتـه في الزمـن. لكنهـا تقيـم مـن القـول مسرحًـا تتـوزع فوقـه الأصـوات المتكلمـة. المتكلـم يسـتجمع كل شيء ويشـدُّه صوبـه، إلى خشـبته:

كُلّ مَن يرحل في الليل إلى الليل - أنا.

كُلّ ناي قَسَمَ الحقل إلى اثنين:

منادٍ ومنادى لا يناديه - أنا (م. ن.، ص 200).

حتـى إننـا نتحقـق مـن زوغـان "النَّفـس" لـدى المتكلـم بـين أحوالهـا المختلفـة: متـوزعٌ بـين دروب عديـدة، وتتنازعُـه الخيـارات فيهـا، مـن دون أن يهنـأ إلى حـالٍ مسـتقرة. يسـعى إلى نفسـه في قـول، ويبـدو غريبًـا عنهـا في قـول آخـر، ولا يلتقيـان أبـدًا في قـول ثالـث:

.....indd 147 29/07/2019 12:13:08

أمشي إلى نفسي (م. ن.، ص 40)؛

غير هذا الدرب يسحبني إلى نفسي (م. ن.، ص 37)؛

ونَفْسي تشتهي نَفْسي ولا تتقابلان

ولا تردّان التحية في طريقهما إليَّ (م. ن.، ص 43).

هذا التعدد ألقاه في عدم مناسبة الأنا لاسم واحد، إذ إن الاسم لا يرِدُ في القصائد في صيغة مفردة، بل في صيغة جَمْعية، حيث إن للأنا أسماء، بل آباء عديدِين، على ما أتحقق:

كلُّ الرماحِ تُصيبني

وتُعيد أسمائي إليَّ

وتُعيدني منكم إليَّ

وأنا القتيل القاتل (م. ن.، ص 46 - 47)؛

كم كنتَ وحدكْ، يا بنَ أمي

يا بن أكثر من أب (م. ن.، ص 124).

متكلمون مختلفون موزَّعون في الأمكنة، في التواريخ، في

.....indd 148 29/07/2019 12:13:08

الأجسام، على أن منهم من يطرد غيرَه، ومنهم من يشتاق إلى غيره، أو يحنُّ إليها. أي أن التوزُّع لا يعني اصطراعًا داخليًّا، أو شقاقًا في الهوية المفردة، بل هو تقلُّب صوت المتكلم المفرد، أو دورانه على صُوَرٍ عن نفْسه، تحيل إلى أنظمة رمزية مختلفة: صورتُه عن أناه المتحققة في الماضي (وقد تكون أنا ماضية، عربية أو فلسطينية أو خلافها)، أو صورتُه عن أناه المجرَّبة في الحاضر (وهي عدة صُوَر واقعًا: "الفدائي"، "الشهيد"، "المترحل" ...):

لقد هاجروا كلهم

كلهم هاجروا يا صديقي مني إليَّ

فهل من دليل

يسير بنا خطوة

أو يعود بنا خطوةً ما لها أول؟ (م. ن.، ص 30).

هو متكلم، بل متكلمون، على أن له صفات الصوت الذي يبلِّغ عن غيره:

ليس قلبي لي (...)

.....indd 149 29/07/2019 12:13:08

ليس جسمي لي (...)

ليس صوتي لي (...) (م. ن.، ص 82).

ما يحدِّدُه، ويجعلُه يتكلم، واقعٌ في علاقته بغيره، على أنه صوتُ إنشادٍ أو إبلاغٍ أو توكيدٍ:

أنا ألف عام من اللحظة العربية...

هذا ما أتحققُ منه كذلك في المتكلم المؤدِّي، مثلما أرى ذلك في قصيدة "رحلة المتنبي إلى مصر"، التي تمنح فيها الأنا المتنبي حقَّ النطق باسمها، وحق التصرف بالكلام والحوار:

أمشي إلى نَفْسي فتطردني من الفسطاط.

ولكن مَن المخاطَب في هذه النصوص؟

يُعيِّن المتكلم سلفًا مخاطَبه، باسمه العائلي (ماجد أبو شرار، عز الدين قلق...)، أو بوصفه الصديق، أو الحبيبة، أو الأم، أو الشهيد وغيرهم. وهو مخاطَب في صيغة الجمع أحيانًا، ويشير إلى المتكلم وإلى جماعة محسوبٌ أنه منها، إلا حين يشير أو يخاطب "الأعداء".

.....indd 150 29/07/2019 12:13:08

إلا أن للمخاطَب دورَ إصغاءٍ، دورَ استماعٍ إلى صوت المتكلم، وهو المخاطَب الاحتمالي، كما ألقاه في هذا القول:

أأدركتَ أنّا نمرُّ على الأرض ظلًّا

وجسمُك ليس نحاسًا ليحمل هذا الزمان (م. ن.، ص 55).

لكن أهو حوار؟ هل يتغير المعنى بين ما يَبدأ به الكلام وما يَنتهي إليه؟ هل تتغير أقوال المتحاورِين أو مواقفُهم التي يشرعون بها في حوارهم؟

في عدد من القصائد حوارات، إلا أنها تستعيد ذكريات حوارية ليس إلا، مثل التي جرت بين المتكلم وعز الدين قلق قبل اغتياله في باريس. كما أقع في عدد من المواضع على حوارات، إلا أنها تبقى مجهولة الأطراف، وصعبة التعيين. أما تبادلُ الكلام أو أبياتِ الشعر، في مواضع كثيرة، فقد يشير إلى اختلافات في الموقع، بين الصوت و"الفدائي"، بين الصوت والأم، بين الصوت و"الشهداء"، من دون أن يعني اختلافاتٍ في المواقف والشهادات: صوت (مفرد أو جماعي) في "مجتمع" ينبني في التخيل النضالي، والفعل السياسي.

.....indd 151 29/07/2019 12:13:08

يتخـذ الـكلام الشـعري شـكلَ الحـوار، ويندرج في مقامـات للقـول، رثائيـة، نشـيدية، تذكريـة، وصفيـة، مـا يخفـف مـن الصيغـة التداوليـة في الحـوار. ومـا يتحقـق فعـلًا مـن حـوارات هـو الـذي يتخـذ سـبيل الـتردد والتسـاؤل بـين الصـوت وأنـاه، أو بـين الأنـا وبـين بعـضٍ (أو واحـدةٍ) مـن صُوَرهـا عـن نفسـها:

من سيأتـي بـي إلى نَفْسي

ويرضيها بأن تبقى معـي؟ (م. ن.، ص 82)؛

أصحو وأبحث في ملابس جثتـي عنـي

فنضحك: نحن ما زلنا على قيد الحياة (م. ن.، ص 94).

أي أن محادثـة النفْـس تعنـي تطمينَهـا عـلى أن لهـا صوتًـا وفعـلًا، عـلى الرغـم مـن المـوت الـذي يهددُهـا، والخسـارات التـي تَلحـق بهـا. أي أن المتكلـم، عـلى الرغـم مـن شـكوكه وتـرددِه بـين الصـور المختلفـة، بـل صراعـه معهـا، يتأكـد مـن صحـة مـا ذهـبَ إليـه، أو مـا ادَّعـاه، عـلى أن "الآخريـن" ("الأعـداء" و"الأشـقاء") جنـاةٌ وخائنـون، غـادِرون ومراوغـون، مـا يصـدم الأنـا ويدفعهـا إلى خسـارات وإلى معـاودة الترحـال.

.....indd 152 29/07/2019 12:13:08

للمتكلم صيغٌ مختلفة وأسماء عديدة، إذ لا يَرِدُ الاسم الدالُّ على الهوية في غالب القصائد إلا في صيغ الجمع: "لأسرق أسماء أبي"؛ "أمشي سريعًا في بلاد تسرق الأسماء مني". واللافت في مسألة التعيين هو أن للأب أسماء عديدة، بينما الأم واحدة:

كم كنتَ وحدكْ، يا بنَ أمي

يا بن أكثر من أب (م. ن.، ص 124).

الأم لا تقبل التعدد، بخلاف الأب، ويأتيها التعدد من خارجها. وهي، مثل فلسطين وأولادها، واحدة بينما طُلابها كُثُر.

قد يرى البعض، في هذه التعيينات، تحطيمًا لذكوريةٍ، وقتلًا للأب كذلك، إلا أنه تجنيبُ الأم المنجِبة، المخصِبة، أيَّ مراجعة لهويتها، ولكينونتها. هذا ما يقودني إلى طرح التساؤل المتدافع في سَوِيَّة ما توصلتُ إليه: أهو يقتل الأب من دون أن يقطع حبل السُّرَّة مع الأم؟

أخلص بالتالي إلى ملاحظةِ وضعيةٍ حوارية ناشطة في شعر درويش، تقليدية وناشئة في آن: تقليدية لأنها

.indd 153 29/07/2019 12:13:08

تحتفظ أحيانًا بعلاقة حوارية لا تتعدى أو لا تخرق الإطار التقليدي والعائلي (بين الأم والأب والأخ)، وناشئة لأنها تسعى إلى شبك علاقات حوارية مع من يلتقون في صيغ "الرفيق" أو "الشهيد" أو "الصديق"، أي مع من يتمُّ اختيارهم وفق علاقات طوعية.

.indd 154 29/07/2019 12:13:08

"أنقذونا من هذا الشعر"

تجديد درويش الشعري، ابتداء من بيروت، سيشهد مواجهة بينه وبين شعراء جدد، مختلفِين. هذا ما يتضح في مقال له في جريدة "السفير" في سنة 1982 (ثم جعله افتتاحية مجلة "الكرمل")؛ "أنقذونا من هذا الشعر"[31].

المقال أحدثَ نقاشًا في بيروت وخارجها، مع أنه بدا مثل "صرخة"، صادرة عمن يحتاج إلى "إنقاذ". اعتبرَ البعض، حينها، أن درويش يعمل على فرض سلطته الشعرية على غيره: في جريدة "داعمة" لمنظمة التحرير، على شعراء وكتّاب لبنانيين يساريين ومعروفين، وعلى كُتاب وشعراء عرب منضوين في أجهزة المقاومة، أو على تفاعل قوي معها. إلا أن ما يتبين، بعد قراءة المقال، بعد

31) محمود درويش: "أنقذونا من هذا الشعر"، مجلة "الكرمل"، قبرص، العدد السادس، 1982.

.indd 155 29/07/2019 12:13:08

مـا يزيـد عـلى خمـس ثلاثـين سـنة ونيـف عـلى صـدوره، هـو أن درويـش كان "محاصـرًا"، أو يشـعر بـ"الضيـق" في بـيروت الشـعر. هـذا مـا يتمثـلُ في ألفـاظ كثـيرة تـتردُ في مقالـه: "العـدوان"، "الخيانـة"، "إعـلان ضيقـه بالشـعر"... وهـذا قبـل أشـهر قليلـة عـلى اجتيـاح قـوات مـن الجيـش الإسرائيـلي لبنـان، بلوغًـا إلى بيروتـه.

يسـهل قـراءة، بـل نقـدُ مقـالٍ بعـد كل تلـك السـنوات، وإن كان لمحمـود درويـش!

يسـهل قـراءة، بـل نقـدُ مقـالٍ بعـد أن يكـون كاتبُـه قـد انتهـى إلى اتخـاذ مواقـف باتـت مختلفـة (في قليلهـا أو كثيرهـا) عمـا كانتـه مواقفـه السـابقة، وإن كان محمـود درويـش!

الـكلام عـالي النـبرة، وإن يصـدر عـن صـوت يُقـدِّم نفسـه عـلى أنـه جريـح: "كـم مـن مـرة ذهبـت الـروح إلى صوتهـا، في سـاعات كانـت تحتـاج فيهـا إلى غنـاء، فارتطمـت بخيانتهـا عـلى ورق يـزداد بياضًـا". هـذا مـا يبلـغ في كلامـه الحديـثَ عـن "عـدوان" يصيـب ذائقتـه الشـعرية: "كـم مـن يـومٍ عطلـةٍ هـادئ، خـالٍ مـن المذابـح وزحـام المـرور، عكَّره عـدوانُ قصائـد هـذه الأيـام". مـا ملامـح هـذا "العـدوان" الشـعري؟

.indd 156 29/07/2019 12:13:08

لا يسمي درويش شاعرًا، أو كاتبًا، ولا جريدة، وإنما يكتفي بالحديث عن قصائد "البياض"؛ وهو ما استثارَه الشاعر بول شاوول، في حينه، بالكلام عن "قصيدة بيضاء"، في تأثرٍ واضح بشعراء فرنسيين لم يكونوا معروفِين كفاية في بيروت، ومنهم أندريه دو بوشيه (André du Bouchet). ودرويش يُحمِّل هذه "الفوضى" لطرفَين (من دون إيضاحات كافية): "فائض البترو دولار"، و"ثقافة موظفي الأقسام الثقافية في مؤسسات النشر".

يتحدث عن كونه اضطر إلى الصراخ، مُعبِّرًا عن "ضيقه" من هذا الشعر، لكنه يبرر موقفه دفاعًا عما يعتبرُه جوهر الشعر، بعد أن وجد أن الشعر الحديث لم يبلغ بعد، ولم يحصِّل بعدُ، "شرعيته الشعبية". فكيف إذا جرى العبث بهذا الشعر النامي! ما لها "قصائد هذه الأيام"؟

يتبرم درويش من "تجريبية" تلك القصائد، بل يجد أنها قد "اتسعت بشكل فضفاض"؛ ويتبرمُ من دعاويها الشعرية (حسب تصنيفه): "تفجير اللغة" (وهي لأدونيس، لا لهم)، و"الموسيقى الداخلية" (وهي لسوزان برنار المستعادَة في خطاب رواد القصيدة بالنثر،

.indd 157 29/07/2019 12:13:08

لا لهـم)، و"الشـكل البـصري" للقصيـدة (وهـي راجـت بـين شـعراء في بـيروت، تأثـرًا بنمـوذج فرنـسي ممتـد مـن الشـاعر سـتيفان مالارميـه – Stéphane Mallarmé- إلى الشـاعر أندريـه دو بوشـيه)، و"اللعِـب" (وهـو مفهـوم مسـتقى مـن مالارميـه)... وهـو مـا يسـميه "اللعـب الطائـش" كذلـك، بـل أقـسى مـن ذلـك، إذ "اسـتولت، حسـب مقالـه، الطفيليـات عـلى الجوهـر".

صفـات مقذعـة ينهـال بهـا عـلى قصائـد تلـك الأيـام، مـا دام أنهـا تحفـل، في حسـابه، "بالتطـاول والادّعـاء"، وبـ"تراكـم الركاكـة، والـلاشيء، وضيـاع المفاهيـم" وغيرهـا. فيهـا كلام "غامـض، مشـوَّش، ركيـك، نـثري، عدمـي (...) في الفـوضى العامـة". بـل يُصـور هـذه القصائـد في "مناخهـا العـام"، حيـث إنهـا، في نظـره، تفـرض "إرهابًـا" عـلى غيرهـا، فـلا يقـوى أحدهـم عـلى القـول: "أنـا لا أفهـم هـذا الشـعر". وهـو مـا يَبْلـغُ "إرهـاب الشـكل البـصري الجديـد"، والتعـرُّضَ لفكـرة الوطـن في الخطـاب السـياسي، مـا يعنـي أنـه يتـبرم مِمـا كان يـروج وينتـشر ويتسـع مـن تعابـير للقصيـدة، ومـن دفاعـات نظريـة حولهـا، ممـا يبلبـل، إن لا ينقـض، أسـاسَ موقـفٍ شعري-سـياسي قديـم: ثوريـة القضيـة والقصيـدة المتلازمَـين.

.....indd 158 29/07/2019 12:13:08

إلا أن في نقده ما يشي بنوع من "الأستذة"، وإن يصدر كلامه كما لو أنه "محاصَر"، ما دام أنه "يُقرِّع" هؤلاء الشعراء كما لو أنه "ناظر عام": "إن سيلًا جارفًا من الصبيانية يجتاح حياتنا، ولا أحد يجرؤ على التساؤل: هل هذا شعر؟". ويَخلص، من كلامه العالي والجارح، إلى أنه لم يعد بالمستطاع – بمستطاعه، واقعًا – "كبح جناح الإحساس بلا براءةِ المثابرةِ المنهجيةِ على تدمير الشعر العربي، وهو عملية تجري أمام عيوننا كل يوم، برعاية منابر بالغة الأهمية في صياغة الوجدان العام".

يتبرم مِما يؤول إليه مشهد الشعر في بيروت، حتى من قبل شعراء "منضوِين" تحت راية القوى الفلسطينية: "لا يسعنا إلا أن نعترف بأن الكثيرين من الشعراء الذين يستمدون وهمَ شرعيتهم الشعرية (...) من تضامنهم مع الثورات، قد تحولَ الوطن، في أفواههم، إلى حشف، وتحولتْ الثورات، في أفواههم، إلى قمع لغوي".

يتبرم درويش، ما يعني أن حال الشعر تهددُ الفسحة التي تنتشر فيها قصيدته، فكيف إذ تهدد سلطة قصيدته! هذا ما جعل وضاح شرارة يتحدث، في مقالة تالية، بعد سنوات وسنوات، عن الشاعر بوصفه

.indd 159 29/07/2019 12:13:08

"الحاكم الشعري" في بيروت، تيمنًا واستجرارًا لسلطة ياسر عرفات على أحوال بيروت وأبعد منها. استعاد الشاعر، في هذا البيان، صيغة: "أنقذونا..." السابقة، إلا أنه، في الأولى، كان يريد التخفيف من "التقدير المبالغ فيه" (حسب لفظه) لـ"شعر المقاومة"، ولشعره فيه. أما في صيغة "أنقذونا..." التالية، فقد شعرَ باهتزاز الموقع الشعري الذي تنبني عليه قصيدته.

كانت تّظهر في بيروت، في تلك السنوات، أصوات كتابية، لبنانية وعربية، ما لبثت أن تقدمت في المشهد الثقافي اللبناني والعربي (بول شاوول، عباس بيضون، حسن داوود، موسى وهبة، فضلًا عن سليم بركات وغيرهم). وهو ما وجدَ درويش نفسه في اختلافٍ حاسمٍ معهم، فوق مساحة نظرية كان يُشدِّد فيها درويش على موقفه الماركسي المعروف، بينما كانت تتشكل هوية شعرية وثقافية مغايرة، بل مباينة تمامًا للماركسية وخلافها من المشروعات ذات الأساس العقائدي أو القومي. وهو ما يلخصه درويش بعبارته الموجزة: "هل نتحاور من خندق واحد؟".

.indd 160 29/07/2019 12:13:08

مثـل هـذا الحـوار – وإن لـم يتصـف تمامًـا بالحـوار في مقـال درويـش – يتعـدى القصيـدة بالنـثر واتسـاعَ أعـداد كاتبِيهـا، وانتشـارَ دعاويهـا النظريـة، ليشـمل – وإن بصُـوَر خفيـة – مسـائل أخـرى متعينـة في الوطـن والسياسـة والثقافـة.

مثـل هـذا الحـوار لـن ينقطـع، إلا أن تعبيراته سـتتعدل في تـالي السـنوات، إذ تخفـفَ درويـش مـن جوانـب مـن سـنده النظـري، كمـا راح يتعامـل بكيفيـة أخـرى مـع هـذه الدعاوى النظريـة، فضـلًا عـن تجاوبـه المنفتـح مـع "تجريبيـة" القصيـدة بالنـثر.

هـذه الحالـة لـن تنتهـي بعـد خـروج درويـش من بـيروت، إثـر الغـزو الإسرائيـلي لهـا، وإنمـا بعـد سـنوات وسـنوات، إثر إقامتـه بـين رام اللـه وعَمـان، وإثـر تغـيرات عميقـة أصابـت قصيدتـه: هـذا مـا جعلَـه "يعـترف" بشـعرية القصيـدة بالنـثر، ويُظهـر بالتـالي، مـن جهـة، "مرونتـه" في التعامـل مـع الوقائـع والأفـكار، كمـا يُظهـر، مـن جهـة أخـرى، تفاعلـه الإيجابـي، الفنـي، مـع توليـدات وتشـكيلات هـذه القصيـدة التـي لـم يكتبهـا قـط.

.indd 161 29/07/2019 12:13:08

مع القصيدة "المارقة"

إلا أن مواقف درويش من شعر غيره، ولا سيما من شعر أقراني في القصيدة بالنثر، تبدلَ في سنواته الأخيرة عما كانَه قبل ذلك، في بيروت، أو بعدها.

لم يكن درويش "الحاكم الشعري" في بيروت، ولشعرائها، بين لبنانيين وعرب (مثلما كُتب عنه بعد وقت)، إذ كانت التحولات تدور في وجهات أخرى:

- وِجْهة الخروج، عند بعضهم، من تأثيرات الشاغل أو الحامل السياسي في القصيدة صوب التعبير الانفرادي؛

- وِجْهة الانصراف عن القصيدة العمودية، والتباعد مع قصيدة التفعيلة، لصالح انتشارٍ متمادٍ للقصيدة بالنثر، كتابة وتنظيرًا.

.....indd 163 29/07/2019 12:13:08

فـ"التلاحـم الفلسـطيني-اللبناني" (عنـد بعضهـم)، في الشـقِّ السـياسي، اسـتحال إلى تنافـر درويـشي مـع أعـداد مـن الشـعراء اللبنانيـين. ومـا زاد مـن تباعـد الشِّـقَّة بينهمـا أن شـعراء لبنانيـين كانـوا ينفتحـون ويتفاعلـون مـع مصـادر شـعرية جديـدة للقصيـدة العربيـة (مـن اليونانـي يانيـس ريتسـوس – Yannis Ritsos- إلى الفرنـسي أندريـه دو بوشـيه)، فيمـا كانـت ثقافـة درويـش الشـعرية لا تـزال تنهل حتـى ذلـك الوقـت مـن مصـادر أخـرى، مغايـرة. وهـو مـا اندلـعَ فـوق صفحـات جريـدة "السـفير"، حيـث نـشر فيهـا البيان-الصرخـة: "أنقذونـا مـن هـذا الشـعر"، الموجَّـه ضـد القصيـدة المتقدمـة في المشـهد الشـعري المحـلي والعربـي. إلا أن موقـف درويـش يعكـس تباينًـا بين "السـطوة" السياسـية لمنظمـة التحريـر عـلى السـاحة (الغربيـة) البيروتيـة، وبـين قـدرة درويـش عـلى "التحكـم" أو "التوجيـه" أو التأثـير في شـعر غـيره، بمـن فيهـم غـير شـاعر عربـي متحلّـق حـول "المنظمـة"، والخـارج معهـا مـن بـيروت.

وهـو تبايـنٌ بلـغَ حـدةً وشـقاقًا سياسـيًّا تمثـل في تفاعـل إيجابـي لعـدد مـن الشـعراء والكتّـاب اللبنانيـين المتحلّقـين حـول جريـدة "السـفير" مـع مـا يمكـن أن يكونـه مـشروع

.....indd 164 29/07/2019 12:13:08

بشـير الجميّـل في رئاسـة الجمهوريـة مـن تباشـير واعـدة بوحـدة وطنيـة مسـتعادة، وإيقـافٍ للحـرب الطاحنـة، بينمـا كان درويـش، عـلى غـرار المنظمـة، يعتـبر الجميّـل الخصـمَ الأول لهـم في لبنـان. هـذا مـا عايشـتُه، بحـدة أيضًـا، معـه في باريـس، بعـد خروجـه مـن بـيروت، وإثـر نـشره "افتتاحيـة" قاسـية في حقِّهـم في مجلـة "الكرمـل": كانـوا، مثلمـا كان، في وجهتَـين مختلفتَـين: هـم يدافعـون عمـا قـد يكـون أمـلًا في الخـروج مـن الحـرب، وهـو يدافـع ضـد مـا يمثلـه بشـير الجميّـل، ومقاومتـه الدائمـة للوجـود الفلسـطيني المسـلح في لبنـان، عـلى حسـاب الدولـة اللبنانيـة.

بـات درويـش، في سـنواته الأخـيرة، أكـثر "تقبّـلًا" لهـذه القصيـدة، وأكـثر تعامـلًا مـع شـعرائها، مـن دون الدخـول – في الغالـب – في جـدالات حـول القصيـدة نفسـها، وحـول قضاياهـا، وحـول شـعريتها. بـات يعـترف بأعـداد مـن شـعرائها، فيَذْكـر بعضهـم في مقابلاتـه الصحفيـة أحيانًـا، أو في كثـير مـن المناقشـات معـي. ولقـد اسـتوقفَتني، بعـد وفاتـه، أسـماء الكتـب الشـعرية التـي كانـت مجموعـة في بيتـه، في عبـدون، ومنهـا مجموعـات شـعرية لغـير شـاعر مـن شـعراء القصيـدة بالنـثر، ومنهـا بعـض كتبـي.

.indd 165 29/07/2019 12:13:08

بادرنـي، ذات يـوم، في القاهـرة، في جلسـة ضمَّتْنـا مـع الشـاعر بـول شـاوول، في الـكلام عـن تصحيحـي لاسـم هـذه القصيـدة: القصيـدة بالنـثر. أفادنـي أنـه قـرأ ملاحظاتـي النقديـة حـول اسـمها الرائـج في العربيـة: "لعلـك محـقٌّ في مـا تقـول... أنـا لا أعـرف الفرنسـية بدقائقهـا، مثلـكَ، لكننـي أثـق بمعرفتـك العلميـة والفرنسـية... ولكـن، ألا تـرى أن الاسـم الـذي تقترحُـه صعـبٌ عـلى اللسـان... لمـاذا لا تسـتعمل: القصيـدة النثريـة؟".

قـد يجـد البعـض في "قبـول" الشـاعر لهـذه القصيـدة "المارقة" تعبيـرًا عـن ذكاء درويـش... السـياسي، أي التعامل المَـرِن مـع كثـير مـن مسـؤولي الصفحـات الثقافيـة، هنـا وهنـاك بـين المـدن العربيـة أو في مـدن الهجـرة، بدليـل مـا قالَـه لي عـن الشـاعر أحمـد عبـد المعطـي حجـازي، إذ أسرَّ إليَّ بأنـه يجـدُ مواقفـه مـن هـذه القصيـدة "شـديدة التعنـت"، عـدا أنهـا تَطلـب وتَسـتعذب الاختـلاف العلنـي معهـا، في نـوع مـن لفـت الاهتمـام الدعائـي بصاحبهـا. لـم يكـن درويـش يريـد أن يكـون بمنـأى – فكيـف عـلى خصـام – عـن المشـهد الثقـافي والشـعري، الـذي باتـت المواقـف النظريـة لشـعراء هـذه القصيـدة جـزءًا أكيـدًا مـن نظريـة

.indd 166 29/07/2019 12:13:08

الشعر العربي السارية، ولا سيما في المطبوعات الدورية.

ذلك أن في درويش ما جعله "رائدًا" من دون أن يكون في جيل التحديث الشعري إثر الحرب العالمية الثانية، فأفاد من خطاب البياتي الشعري المنغمس في السياسي. كما استفاد من تجربة قباني شعرًا ونجوميّة، ولا سيما في التوجُّه، بلغته الميسرة وقضاياه "الوطنية" والقومية، بما يحاور جمهورًا واسعًا، أقل من جمهور قباني، لكنه يسعى إليه – خاصة في بداياته – مع شيء من الصياغة الثقافية. وماذا عن النثر والشعر في أدبه؟

هذا ما يبدو بيّنًا في كلامه عن النثر والشعر في رسالة إلى سميح القاسم (5 - 8 - 1986): "قد تتحقق الشاعرية في النثر أكثر من تحققها في القصيدة المشروطة بشكلٍ قد يكبحُ جماحَ الجنون". إلا أنه يتابع: "هناك دائمًا فائض شعري ينبجس من مكان آخر. المهم هو ألا نؤجل هذا الانبجاس. فليس من الصواب أن ندخر الشعر إلى أن تأتي قصيدته التي قد لا تأتي". يتجلى في كلامه اقتراب من النثر، غير أنه اقتراب... الضرورة، إذا جاز القول؛ اقترابُ الاستفادة من قابليات النثر حين يصعب على الشاعر اجتراحُ الشعر. النثر "فائض" (حسب لفظه)،

.....indd 167 29/07/2019 12:13:08

أي مزيـدٌ، أي مِمـا ينبجـس مـن مـكان آخـر. وهـو موقـف لا يلبـث، في السـنوات التاليـة، أن يصبـح أشـد اقترابًـا مـن النـثر، وتأكيـدًا لشـعريته.

لدرويـش أكـثر مـن كتـاب نـثري، وصـدر منهـا كتـاب: "الأعمـال النثريـة" (2009)، مـن دون أن يتـولاه بنفسـه (مثلمـا فعـلَ غـير مـرة مـع أعمالـه الشـعرية "الكاملـة"، في أكـثر مـن طبعـة)، وإنمـا تكفلـت بنـشر الأعمـال النثريـة "دار العـودة" مـن تلقـاء نفسـها. قـد يكـون أشـهر كتبـه النثريـة: "يوميـات الحـزن العـادي"، وهـو الأول في هـذه السلسـلة النثريـة، ثـم "ذاكـرة للنسـيان"، فضـلًا عـن كتـاب مـن المراسـلات: "محمـود درويش/سـميح القاسـم: الرسـائل" (1986) وغيرهـا. كثـيرون أحبُّـوا نـثر درويـش، وفضلَـه البعـض الآخـر عـلى شـعره، إلا أن الذائقـة الأدبيـة السـارية احتفظـت بدرويـش شاعـرًا.

هـذه الكتـب النثريـة مختلفـة مـن ناحيـة تكوينهـا: في الكتـاب الأول المذكـور يسـتعيد درويـش أحـوالًا مـن عيشـه بلغـة التذكـر، ويعنـي الابتعـادَ وإعـادةَ البنـاء لِمـا بـات بعيـدًا عنـه، مكانًـا وزمنًـا. أمـا الكتـاب الثانـي فقـد كتبَـه إثـر حصـار بـيروت الشـهير، وروى فيـه وقائـع مـا عاشـه في تلـك

.....indd 168 29/07/2019 12:13:08

الأيـام التـي كان مهـدَّدًا فيهـا (وغـيره) بالمـوت، ابتـداء مـن يـوم بعينـه: في يـوم السـادس مـن آب-أغسـطس مـن سـنة 1982.

كان درويـش يعتقـد أن مـا كتبَـه هو أقـرب إلى الروايـة. هذا مـا سـألني عنـه في باريـس: "ألا تلاحـظ أن أحدًا لـم ينتبه إلى كونهـا روايـة؟". لـم أُجبْـه، يومهـا، إذ إننـي مـا كنـت أنهيـتُ قراءتهـا بعـد. وقـد أتاحـت لي الأيـام التاليـة التوقـف أمامهـا بطريقـة نقديـة، عندمـا دفـع درويـش بإحـدى الطالبـات في جامعـة السـوربون الجديـدة لمناقشـتي في بنائهـا الـسردي. وهـو مـا كان، فالتقيتُهـا مرتـين أو ثلاثـاً، وتناقشـتُ معهـا حـول كـون الكتـاب ينتسـب إلى الـسرد الذاتـي أكـثر منـه إلى الـسرد الروائـي. فهـو يفتقـر إلى الكثـير مـن عنـاصر البنـاء الروائـي (شـخصيات، سـياقات مكانية-زمانيـة...)، بينمـا تتوافـر فيـه عنـاصر الـسرد السِّـيَري بقـوة باديـة.

إلا أن هنـاك مِـن كُتبـه مـا جنـح فيهـا صـوب مـزج أجنـاسي جديـد، صـوب التفاعـل بـين النـثر والشـعر، بـين الـسرد والتخيـل: "في حـضرة الغيـاب". وهـو أشـدُّ كتبـه اقترابًـا مـن أبنيـة القصيـدة بالنـثر، حيـث إنـه يخلـط، في توليـدات حاذقـة، بـين ليونـة النـثر وبـين إيقاعيـة الفكـرة أو الذكـرى:

.....indd 169 29/07/2019 12:13:08

"سطـــرًا سطـــرًا أنـــثرك أمامـــي بكفـــاءة لـــم أُوتِهـــا إلا في المطالـــع/... فلتـــأذنْ لي بـــأن أراكَ وقـــد خرجـــتَ منـــي وخرجـــتُ منـــك، ســـالمًا كالنـــثر المصفَّـــى عـــلى حجـــرٍ يخـــضرُّ أو يصفـــرُّ في غيابـــك". كمـــا يكتـــب: "اســـتضيفي الغريب/البعيـــد ونـــثرَ الحيـــاة البســـيط لينضج/شـــعري"[32]. مـــا هـــذا "النـــثر المصفَّـــى"؟ أيعنـــي أن درويـــش "يصفِّيـــه" مـــن زوائـــده، مـــن عوالقـــه، مـــا يجعلـــه أقـــرب إلى روح... الشـــعر؟

مـــا قـــام بـــه درويـــش في الكتابَـــين الســـابقين المذكورَيـــن يختلـــف تمامًـــا مـــع مـــا كتبـــه في تنـــاول قضايـــا سياســـية أو فكريـــة أو أدبيـــة، إذ ينحـــو فيهـــا إلى التذكـــر بوصفـــه أساسًـــا لـــسرد سِـــيَرِي، مـــا يشـــير إلى لحظتَـــين في حيـــاة درويـــش، إلى لحظتَـــي انقطـــاع: مـــا كان بعـــد حيفـــا، ومـــا كان بعـــد بـــيروت. وعنـــى هـــذا التوجـــه انـــصرافَ درويـــش إلى... نفســـه، ربمـــا أكـــثر ممـــا هـــو عليـــه في شـــعره: في القصيـــدة يُنشـــد في الغالـــب، ويتوجـــه إلى غـــيره (حتـــى في حديثـــه عـــن ذاتـــه)، أمـــا في هذَين الكتابَـــين، فدرويـــش يســـتجمع مـــا ينقـــضي، مـــا انقـــضى، خشـــيةَ فقدانـــه، وإن كان "ذاكـــرة للنســـيان".

---

32) محمود درويش: "في حضرة الغياب"، رياض الريس للكتب والنشر، بيروت، 2006، ص 355.

.indd 170 29/07/2019 12:13:08

في هذيــن الكتابَــين يقودنــا الكاتــب بنفســه إلى أمكنــة الطفولــة، إلى أمكنــة الضيــاع، إلى جــاري الحــزن في يومياتــه، بينمــا ينحــو في الكتــاب الثانــي إلى مــا هــو أشــد تعييناً وحرقــة في الزمــن: التهديــد بالمــوت اليومــي، في حــربٍ كان درويــش يحــارب فيهــا بجســده، بمجــرد حضــوره مــع غــيره، مــن دون أن يُطلــق فيهــا (لا قبلَهــا، ولا بعدَهــا) رصاصــة واحــدة. مــا يجمــع بــين الكتابَــين ماثــل منــذ عنوانَيهمــا بــين: اليومــي والتذكــر.

عيــشُ التذكــر مقاومــةٌ للنســيان، بــل للمــوت. وهــو إبقــاءُ جــذوة العيــش مشــتعلة. في هــذا تُشــبهُ كتابــة درويــش مــا هــو قريــب مــن صناعــة تاريــخ وجدانــي؛ تاريــخ قابــل للتدويــن، للحفــظ، مِمــا لا يُذكــر عــادة، ولا يُحفــظ، لمــن هــم مــن دون وطــن، تحــت خيمــة التــشرد.

أمــا "في حــضرة الغيــاب"، فــإن درويــش يبــاشر فيــه تدويــن مــا يندثــر في الزمــن، متحدثًــا عــن "الغيــاب" هــذه المــرة؛ ويعنــي، في حســابه، روايــة المــوت الــذي يهــدده، الــذي يــتراءى لــه. لــم يســتمهل المــوت الداهــم في شــعره، وإنمــا جعــل للغيــاب حضــورًا، عاشَــه بعــد أن عــاد مــن المــوت، بعــد أن رأى مــا يمكــن للغائــب أن يــرى ابتــداء مــن بياضــه.

.indd 171 29/07/2019 12:13:08

هـذا الكتـاب أشـدُّ قربًـا مـن تاريخـه الوجدانـي الخـاص، إذ يعايـش تـرددات قلبـه بـين الحيـاة والمـوت. وهـو أكـثر إنصاتًـا لِمـا يصعـد في جملتـه مـع نَفَسـه، لِمـا يتلجلـج في صـدره. في هـذا يلتقـي القصـد التعبـيري، في النـثر، بمـا هـو عليـه في بعض شـعر درويـش، ولا سـيما الأخير: الاسـتبطان.

خشـبات المـسرح لشـعره، كمـا لنـثره، في هـذا الكتـاب، لا تتعـين في مـا يريـد قولـه في زمنـه، وعـن غـيره، وإنمـا تنتصـب الخشـبة بينـه وبـين نفسـه، في مـا يشـبه التنصـت لضربـات القلـب، وانقطـاع النَّفَـس، وتوجيـه المتكلـم للـكلام إلى نفسـه: معاتبًـا، ساخـرًا، مناجيًـا... وغيرهـا. في ذلـك، يبـدو أشـبه بممثـلٍ فـوق خشـبته، وحـده، عـلى أن الإضـاءة مسـلَّطة عليـه وحـده، مـن دون مـا يحيـط بـه، وهـو يخاطـب نفسـه لنفسـه (كمـا في "المونولـوغ"). هـذا الخطـاب الداخـلي يتحقـق منـه الـدارس في شـعر درويـش الأخـير، ويتحقـق منـه في كتـاب "في حـضرة الغيـاب". هـذا الحـوار مـع الـذات هـو أكـثر مـا اسـتقاه درويـش مـن الكيانيـة الفرديـة والتعبيريـة للقصيـدة بالنـثر، حيـث تتداخـل وتمتـزج الـذات بالآخـر، عـلى أنـه وجـهٌ آخـر للـذات نفسـها، كمـا في عبـارة رامبـو الشـهيرة: "أنـا هـو آخـر". وهـو مـا أجـدُه عنـد

.....indd 172 29/07/2019 12:13:08

درويـش في قولـه في "لا تعتـذر عمـا فعلـت": ""أقـول لآخَـرِي الشـخصي".

هكـذا يصبـح "الداخـلُ"، أو "المصهـرُ الجوّانـي"، الخشـبةَ التـي تَظهـر فيهـا القصيـدة أو المقطوعـة النثريـة، وتتنقـل فوقهـا بخفـة النـثر ومخيلـة القصيـدة. في هـذا المـكان الجديـد، تسـتعيض الكتابـة عـن مكانهـا "الخارجـي" لتبنـي مـا يناسـبُها، مـا تحتاجـه لنفسـها، مـا تسـتدعيه (مـن الذاكـرة أو مـن المخيلـة)، بمـا يقيـم حـوارًا مـع النَّفْـس. أيكـون حوارُهـا مـع نفسـها ولنفسـها؟

لا، ذلـك أن درويـش "يُمَـسْرِح ذاتـه" (عـلى مـا كتبـتُ)، مـدركًا – مثـل الممثـل في "مونولوغـه" الانفـرادي - أن هنـاك مـن يسـتمع إليـه، وهـو قابـعٌ في عتمـة الصالـة، مـع كثيريـن مـن المتفرجِـين.

.....indd 173 29/07/2019 12:13:08

"مَسْرَحة" الكتابة

جرى الكلام عن تخاطبيةٍ أعلاه، ثم عن "مسرحة" للذات، في نوع من التوسعة والتبديل لِما هو قائم في أبنية قصيدة درويش من "حوارات" داخلية (بعد الحوار مع "الخارج")، ومن توزُّعِ المتكلم بين أكثر من "أنا"، ما يجعل للقصيدة "كيانًا"، بات هو الشغل الشاغل للشاعر. فالقصيدة، في تغيرات تجربته، لم تعد نداء "موجهًا"، أو استعادة لما جرى خارجها؛ باتت القصيدة تستجمع ما كان متفرقًا، وتفرِّق ما كان متجمِّعًا، على أن الشاعر، أو مَلَكته (كما سبق القول)، يدير أشبه بمخرج مسرحي، بينما هو كاتب النص، وممثله الوحيد.

غير أن ما يشدُّ الانتباه في صورة مختلفة، هو أن انبناء خشبة النص سيختلف، وسيصبح غاية في حدّ

.....indd 175 29/07/2019 12:13:08

ذاتـه، وإن يتـكل أو ينتصـب فـوق خشـبة بعينهـا، للتعبـير عـن موضوعـات بعينهـا. الأكيـد هـو أن قصيدتـه لـم تَعـد "نشـيدًا" أو "أغنيـة"، بـل باتـت تمـسرح ذاتهـا، عـلى مـا أتحقـق في شـعره الأخـير. في هـذا تجلٍّ قـوي للخـبرة الكتابية، وتوسـعةٌ لعدَّتهـا، بمـا يُظهـر الشـاعر في موقـع البنّـاء، الـذي يعمـل عـلى بنـاء صرح دائـم، متنـوع ومتجـدد، للقصيـدة نفسـها. فالعنايـة الكتابيـة التـي تتجـلى في شـعره الأخـير أكيـدة، متماديـة، لدرجـة أننـا نخـال أحيانًـا أن الشـعر يـكاد ينبنـي عـلى الشـعر، ومنـه.

تصبـح قصيدتـه، أحيانًـا، أشـبه بمـسرح لهـا؛ والكتابـة في خدمـة ذلـك، مثـل البلاغـة، واللغـة، والقصيـدة نفسـها. يكتـب في الأسـطر الأخـيرة مـن "في حـضرة الغيـاب":

المجاز، الكتابة، والاستعارة، والتورية

هـي ظلُّ الكلام، فلا

صورةُ الشيء كالشيء... أو عكسُه

إنها حيلة الشعر في التسمية

ولي في المجاز مآرب أخرى

.indd 176 29/07/2019 12:13:08

كأن أترك الأغنية على رِسْلها...

تتلفتُ شرقًا وغربًا

وتقفز بين السماوات والأودية

وتعالج أوجاعها

بقليل من السخرية (م. ن، ص 419).

يريد أن يتركها "على رِسْلها"، كما لو أن القصيدة تتناسل من تلقاء نفسها، مثل نص يتدبر تقدمَه تباعًا. وإذا كان الشاعر، في كتابه هذا، وفي غيره أيضًا، ينطلق من "خطةٍ" كتابةٍ أو معنى، أي من "منطَلَقٍ" للعمل الكتابي، فإن هذا المنطَلَق يتقدم، بل يتلوى، ويتراجع، ويتقدم من دون حساب مضبوط.

القصيدة هي، لنفسها، خطتُها، إذا جاز القول. كتاب "في حضرة الغياب" ينطلق من وضعية كتابية مسبقة، تتعين في استشرافِ ما سيكون عليه درويش بعد الموت، في الفضاء الأبيض، في تلك الهنيهات القليلة التي غاب فيها الشاعر عن جسده، ليكون في منطقة برزخية لم تطأْها قدماه، ولا قصيدته، في سابقِ كتبِه. هذا ما يدلُّ عليه بيتُ مالك بن الريب الذي يتصدر كتابه المذكور:

.indd 177 29/07/2019 12:13:08

بقولون: لا تبعد، وهم يدفونونني

وأين مكان البُعد إلا مكانيا.

بيتٌ أشبه بقصيدة، بكتاب، لدى درويش، مع أنه بنى منطَلَقَ الكتاب من لحظات عاشَها في المستشفى، قبل أن يعيدوه إلى الحياة بصعقة كهربائية (على ما عُرف من تفاصيل عمليته الجراحية في القلب). مع أن لهذا الكتاب منطَلَقًا (كما سبق القول)، فإن الدارس لن يجد خريطة طريق لما باشرَه وأنجزَه. ولو تابعتُ اتِّباعَ الاستعارة التي بنيتُ عليها بعضَ تحليلي – وهي استعارة الخشبة المسرحية – لوجدتُ أن في عددٍ من قصائد وكتب درويش خشبةً وقاعة خلفية لها. هذا ما يجعل للكتابة ظاهرًا وظلًّا (كما ورد في أسطر درويش أعلاه)، قربًا وبعدًا (كما في كلام مالك في موته).

ما يستوقف في أسطره هذه هو أن المجاز والاستعارة والتورية وغيرها باتت غرضًا للنص، ولم تعد أدواتٍ فنية له، تُستعمل لتأدية المعنى، أو تخييلِه. باتت شريكة، بل هي تمثيلُ التمثيل، لو شئتُ الاستمرار في الاستعارة.

.....indd 178 29/07/2019 12:13:09

هنـاك النـص، وهنـاك تمثيـل النـص، حيـث بـات النـص ينكتـب، ويُفكِّـر في مـا يكتبـه.

يُطلـق درويـش عـلى كتـاب "في حـضرة الغيـاب"، بـل يمهـد لـه بإشـارة إجناسـية: "نـص"، مـا لـم يسـتعملها في أي كتـاب مـن كُتبـه. لمـاذا الحاجـة إلى هـذه الإشـارة؟

مـن المؤكـد أن درويـش يقـترح جديـدًا في كتابتـه، وربمـا أبعـد منهـا، مـا جعلَـه يرفـقُ عنـوانَ الكتـاب بهويـة جنسـه. وهـو جنـسٌ غـير موجـود في خريطـة الأنـواع الكتابيـة العربيـة، إذ يـرد ("النـص") صفـةً أو تعبيـرًا أو تعيينًـا للمـادة الكتابيـة وفـق المنظـور اللسـاني البنيـوي، الـذي جـرَّد المـادة الكتابيـة مـن "أدبيتهـا" المعهـودة، محيـلًا عـلى أبنيتهـا النحويـة، مـا يقـع تحـت تسـمية "النـص". إلا أن لهـذا الاسـم تعيينًـا مزيـدًا في الأدب الفرنـسي - "الجديـد" منـه (تيمنًـا بالروايـة "الجديـدة"، مـع آلان روب غرييـه – Alain robbe Grillet - وأقرانـه) -، الـذي جعـل (مـع مجلـة "تـل كل" – Tel quel- تحديـدًا) مـن أي مـادة كتابيـة "نصًّا"، إذ تفـارق جنسـها الكتابـي، وحدودهـا البنائيـة التـي تميـز تعريفـات وقواعـد هـذا الجنـس الكتابـي أو ذاك. هـذا مـا أطلـقَ عليـه أدونيـس (متأثـرًا بهـذه المدرسـة الفرنسـية)،

.indd 179 29/07/2019 12:13:09

في افتتاحيــة مجلــة "مواقــف" في الســبعينيات، تســمية: "الكتابــة الجديــدة"[33]، مــن دون أن يُقــدم أدونيــس عــلى كتابــة "النــص" وفــق هــذا المنظــور. فهــل أقــدمَ درويــش عــلى ذلــك؟

يفاجِــئ هــذا الكتــابُ، منــذ مطلعــه، القــارئَ إذ لا يُحسِــن التقــدم فيــه وفــق معايــير أو قواعــد إجناســية معروفــة ومجرَّبــة، خاصــة في أدب درويــش. مــا يكتبــه، هنــا، لا يشــبه أي ســابق لــه. كمــا تفاجــئ القــارئ "هيئــةُ" الكتــاب الطباعيــة، في تشــكيل أســطره، حيــث إن أكــثر مــن جملــة أو مــن تتابــعِ جُمــلٍ، وأكــثر مــن مقطــع، ينتهــي بالإشــارة الطباعيــة التاليــة: /. مــاذا تعنــي هــذه الإشــارة الطباعيــة؟ مــا وظيفتهــا؟

يفاجــئ قــارئَ الكتــاب تتــالي الجُمــل والســطور والمقاطــع، إذ تنتهــي في الســطور الأولى بالإشــارة الطباعيــة المذكــورة، مــا يعنــي أنهــا تحــلُّ محــل النقطــة. إلا أن درويــش يُنهــي، في جُمــل ومقاطــع غيرهــا، بالنقطــة ختامًــا لهــا. هــذا يعنــي أنــه يســتعمل الإشــارة المذكــورة ويُهملهــا، ثــم لا يلبــث أن يعــود إليهــا: "عــلى رِسْــله"، كمــا كتــبَ وذكــرتُ أعــلاه.

33) أدونيس: "تأسيس كتابة جديدة"، مجلة "مواقف"، بيروت، 1971.

.....indd 180 29/07/2019 12:13:09

في هـذا الكتـاب إشـارة معلنـة إلى أنـه "نـص"، وفي كتـاب آخـر لـه إشـارة إلى أنـه "يوميـات"، وهـو: "أثـر الفراشـة". يتألـف هـذا الأخـير مـن مئـة وسـتة وعشريـن مقطوعـة، مـن دون أن يتضـح فيهـا نسـبتُها الصريحة إلى نـوع: "اليوميات". أهـي يوميـات... ولكـن بالشـعر؟ أهـي مقطوعـات شـعرية كتبهـا يوميًّـا عـلى مـدى سـنةٍ بكاملهـا[34]؟

مـا يتضـح، إثـر مراجعـةِ تجريبـات درويـش في خـرق الحـدود الإجناسـية، هـو أنـه اخترقَهـا في قليـل مـن كتبـه – الأخـيرة تحديـدًا، عـلى أن هـذا عنـى، واقعًـا، إغنـاءً لتجربتـه الشـعرية وتنويعًـا لهـا. فهـو لـم يذهـب إلى النـثر، والـسرد، واليوميـات، لكـي يكتبهـا، وإنمـا ليضيفها إلى سـجل القصيـدة: كتبَهـا لجهـة مادتهـا، مبتعـدًا عـن أسـاليب كتابتهـا، أو حدودهـا وقواعدهـا الإجناسـية، جاعـلًا مـن الشـعر "البيـت" و"الكينونـة".

34) كما أوضحَ ذلك بنفسه عن تاريخ كتابتها، بين صيف 2006 وصيف 2007.

.....indd 181 29/07/2019 12:13:09

"نظمٌ كأنه نثر"

اشـتملَ كتـاب درويـش "أوراق الزيتـون" عـلى أربـع قصائـد عموديـة مـن أصـل سـت وعشريـن قصيـدة تفعيلية، لكنـه لـن يلبـث أن يتخـلى عـن أي بنـاء عمـودي تمامًـا. بـل حـاول، في لاحـقِ شـعره، الاقـتراب مـن القصيـدة بالنـثر، فتكلـم عـن أنـه كتبهـا في بعـض شـعره[35]، ثـم لـم يلبـث أن أنكـر ذلـك. الأكيـد هـو أن الشـاعر تعامـلَ مـع هـذه القصيدة تعامـلًا "نديًّـا"، إذا جـاز القـول، أي متفاعـلًا ومباينًـا لهـا. وهـو مـا لا يمكـن التحقـق منـه إلا عـبر قـراءة متأنيـة – وإن مقتضبـة – لتشـكيلاته الوزنيـة والإيقاعيـة.

أولُ مـا يسـتوقف الـدارس هـو أن تعريفـات نـازك الملائكـة

35) محمود درويش: "مزامير" في كتاب: "أحبك أو لا أحبك"، "ديوان محمود درويش"، المجلد الثاني. م. س.، ص ص 9 - 74.

.....indd 183 29/07/2019 12:13:09

وتحديداتها لـ "الشعر الحر" [36] لم يتقيد درويش بها، إذ "مزج" ما لم تقرَّ به، ولجأ إلى "التدوير" بصورة قوية، ما لم تستسغْه صاحبةُ قصيدة: "الكوليرا".

الأكيد هو أن درويش لم يتقيد، مثل كثير من شعراء التفعيلة، ومن روادها، بأوزان معدودة من الأوزان "الصافية" التي عوَّلوا عليها (ما جعل "تحرر" الشعر من الوزن "تقييدًا" جديدًا له)، بل وسَّعَ من دائرة أوزانها المستعملة، وقام على المزج بينها، متنبهًا بشكل خاص إلى الخصائص التفعيلية والإيقاعية لكل وزن: ما يصلح للشعر الخطابي، أو الغنائي العالي، أو "الملحمي"، لا يصلح لشعرٍ ذي صوت خفيض، "يومي"، ومحتبِس الحزن أو الغضب.

هكذا يتخفف، في مجموعة "ورد أقل"، من الغنائية العالية، بل الخطابية الصارخة أحيانًا و"الشعاراتية"، صوب قصيدة ذات إيقاعات خافتة، معتمدًا على وزن المتقارب؛ وهو الوزن عينه الذي عوَّلَ عليه في "حالة حصار"، كما في "سرير الغريبة".

36) كما سمّتْه، وهو شعرٌ تفعيلي مسبوق في الشعرية العربية منذ العقود الأولى من القرن العشرين.

.indd 184 29/07/2019 12:13:09

فهـو، إن لجـأ إلى الأوزان "الصافيـة"، يجيـز لنفسـه المـزج بـين تفعيـلات بحـور عديـدة، مـا يعنـي تلاعبًـا مفتوحًـا بهـا، ومـا يَجمـع بـين السلاسـة والمرونـة والانسـيابية. وهـو لا يكتفـي، في بعـض اسـتعمالاته للبحـور، بتفاعيلهـا، بـل يتعداهـا إلى جوازاتهـا، مـا يشـير إلى تمكنـه العـروضي، الـذي يبـدو مثـل "سـليقة" مزيـدة، محصَّلـة ومتدرِّبـة. هكـذا أجـده، عـلى سـبيل المثـال، يسـتعمل صيغـة: فَعْلُـن، مـن المتقـارب، وهـي مـن الجـوازات غـير السـارية في الشـعر...

ذلـك أن درويـش، بعـد تقيـده بكثـير مـن قواعـد متَّبعـة في شـعر "الـرواد" (ومنهـم الملائكـة خصوصًـا)، أجـاز لنفسـه، ولقصيدتـه، مـا لـم يسـمحوا بـه أو يُقدمـوا عليـه، إذ وجـدَ في "كـسر" رتابـة الـوزن والتفعيلـة غرضًـا أمثـل لـه. ففـي غـير قصيـدة يمكـن التحقـق مـن "مـزج" البحـور لـدى درويـش (مـا لـم تجـزْه الملائكـة): في "مزامـير" (في مجموعـة: "أحبـك أو لا أحبـك")، يمكـن التحقـق مـن أنـه يبنـي المقطـع الأول فيهـا عـلى البحـر المتقـارب، ثـم المقاطـع، الثالـث والثامـن والعـاشر والثانـي عـشر، عـلى الرمـل. ولقـد تحقـق سـليمان جـبران [37] مـن أن درويـش يمـزج بـين بحرَيـن في "جداريـة".

37) سليمان جبران: "نظم كأنه نثر: التباس الحوار بين محمود درويش وقصيدة النثر"، "الحوار المتمدن"، 2010.

.indd 185 29/07/2019 12:13:09

هـذا يشـبه "الانـزلاقَ" المرغـوب، وفـق وسـائط، بـين بحرَيـن، بـين المتـدارك والمتقـارب، مـا جعـل جـبران يتحـدث عـن وزن جديـد، درويـشي: "المتـدارب".

هـذا مـا بـات يَعنـي غرضًـا "موسـيقيًّا"، وفـق تفسـيري لمـا راح يجرِّبـه وينوِّعـه ويتفنـن فيـه: الملائكـة ألزمـت قصيدتهـا بمحـددات، وهـو مـا فعلَـه غيرُهـا بقـدر مـن المحدوديـة والرتابـة (في عـدد الأوزان المسـتعملة في قصيـدة التفعيلـة): "الشّـعر الحـرّ لا يقبـل أن تـرد فيـه تشـكيلتان (...) فيقتـصر الشّـاعر في قصيدتـه عـلى تشـكيلةٍ واحـدةٍ لا يتخطّاهـا" [38]. أمـا درويـش فانتهـج سـبيلًا آخـر، قوامُـه التنويـع والتجديـد، مـا جعـل النمـط السـائد في شـعره غـير مسـبوق، بـل مفتوحًـا عـلى تمرينـات وتجريبـات: باتـت وزنيـة القصيـدة، بـل إيقاعيتهـا، متحصلـة أثنـاء حدوثها، في جريانهـا، غـير محكومـة سـلفًا أو مضبوطـة تمامًـا. هـذا مـا جعـل مـن ذائقـة درويـش مثـالًا وسُـلَّمًا لهـا، أي الموسـيقية التـي يسـتعذبها في القصيـدة.

لـم يكـن هـذا خيـارًا ذوقيًّـا وحسـب، وإنَّمـا حكَّـمَ فيـه

38) نازك الملائكة: "قضايا الشعر المعاصر"، مكتبة النهضة، بيروت، 1967، طبعة ثالثة، ص 77.

.....indd 186 29/07/2019 12:13:09

محـــددات متوافـــرة في الأوزان، فيتحقـــق مـــن تناســـبها (أو مـــن عـــدم تناســـبها) مـــع نمـــط التعبـــير لـــكل قصيـــدة، أو للمجموعـــة الشـــعرية بكاملهـــا: لجـــأ درويـــش، في شـــعره الغنائـــي والإيقاعـــي العـــالي، إلى البحـــور التاليـــة: الكامـــل، والوافـــر، والرمـــل بشـــكل خـــاص، بينمـــا لجـــأ – ابتـــداء مـــن "ورد أقـــل" – إلى البحـــر المتقـــارب، في جميـــع قصائـــد هـــذه المجموعـــة. هـــذا مـــا جعلَـــه يتوقـــف – في عـــدد مـــن حواراتـــه – عنـــد اســـتعمالاته للبحـــر الأخـــير، لمـــا تتوافـــر فيـــه مـــن خفَّـــة وبســـاطة. وهـــو مـــا يـــراه الـــدارس ماثـــلًا في مجموعـــات لاحقـــة، مثـــل: "ســـريـــر الغريبـــة" و"حالـــة حصـــار"...

إن مقارنـــة بســـيطة تُظهـــر وتؤكـــد ما يذهـــب إليـــه التحليل: قامـــت قصيـــدة "مديـــح الظـــل العـــالي" المطوَّلـــة عـــلى البحـــر الكامـــل، بينمـــا قامـــت مطولـــة "حالـــة حصـــار" عـــلى البحـــر المتقـــارب، مـــع أن الموضـــوع في القصيدتَـــين واحـــد (إذا جـــاز القـــول): كتـــبَ القصيـــدة الأولى إثـــر الاجتيـــاح الإسرائيـــلي لبـــيروت في صيـــف 1982، وكتـــبَ الثانيـــة أثنـــاء الحصـــار الإسرائيـــلي لـــرام اللـــه في العـــام 2002.

المعالجـــة الوزنية-الإيقاعيـــة باتـــت مختلفـــة مـــن مطولـــة إلى أخـــرى، بـــل ميّـــز الشـــاعر هـــذا الاختـــلاف بقولـــه (في أحـــد

.indd 187 29/07/2019 12:13:09

حواراتـه) إنـه طلـب، في "حالـة حصـار"، أن تكـون أشـبه بـ"اليوميـات"، مـن دون غنائيـة عاليـة أو بذخ بلاغـي جمالي؛ كمـا يتحـدث عـن أن السـطر "يبـدو يتحـرك بالنـثر".

لا يتجنـب درويـش الحديـث (كمـا في الشـاهد الأخـير) عــن "تحــرُّكِ" الســطر... بالنــثر، وهــي جُملــة تســتحق التوقـف عندهـا، إذ إن مـا قالَـه ملتبـسٌ، ويحتـاج إلى إيضاح: يبـدو السـطر يتحـرك بالنـثر. هـذا مـا "يبـدو" عليـه، إذًا؛ أي هـو تَشَـبُّه وحسـب مـن دون أن يكـون ذلـك صحيحًـا تمامًـا. هـل يمكـن القـول بالتـالي: إن علاقـة درويـش بالقصيـدة بالنـثر هـي علاقـة تَشَـبُّه، إذ "يبـدو"، في بعـض شـعره، أنـه يكتبهـا، أو "يُدخلهـا" إلى سـطره الشـعري، مـن دون أن تكون كذلـك فعـلًا؟

يقـول درويـش عـن "مزامـير": "بعـد سـنوات عـلى هـذه التجربـة، لـم أجـد أنهـا نجحـت، فكانـت عبـارة عـن خواطـر سُـجلت نثـرًا"، حسـب قولـه. مـا يعنـي هـذا القـول في مـا يـرد في كتـاب درويـش المذكـور؟

تتألـف "مزامـير" مـن 17 مقطوعـة، وتتضمـن – حسـب دراسـة جـبران لهـا – تشـكيلة كبـيرة مـن البحـور: ثـلاث صفحـات مـن المتقـارب، خمـس مـن المتـدارك، اثنتـين مـن

.indd 188 29/07/2019 12:13:09

الكامـل، وثـلاث مـن الرمـل، ويتعـين 22 صفحـة في الأبنيـة النثريـة.

هـذا التجـاور، والتعايـش، بـين النوعَـين الشـعريين، يلقـاه الـدارس في صـورة أقـوى في مجموعـة "في حـضرة الغيـاب": 20 مقطوعـة أو فصـلًا يمتـزج فيهـا التفعيـلي بالنـثري، ضمـن المقطوعـة الواحـدة. لـم تَعـدْ كلُّ مقطوعـة منصرفـةً إلى أسـلوب هـذا النـوع الشـعري أو ذاك، وإنمـا بـات الـكلام يُداخـل بعضـه بعضًـا. قـد ينتقـل مـن النـثري إلى التفعيـلي في نهايـة مقطوعـة، أو في ثناياهـا، فيمـا تتبايـن الأسـطر في كلِّ مقطوعـة بـين أسـطر متصلـة مثـل سـطر النـثر عـادة، وبـين أسـطر منقطعـة مثـل أسـطر الشـعر عـادة.

هـذا مـا يسـتمرُّ، وفـق التجريـب عينـه، في مجموعـة "أثـر الفراشـة"، حيـث إن مقطوعاتهـا (126 مقطوعـة) تتـوزع – حسـبما وزعَهـا جـبران – بـين: 47 تفعيلـة في أسـطر متفاوتـة الطـول، والباقيـة نثريـة البنـاء. مـا حقيقـة التعايـش أو التحـاور، إذًا، بـين النوعَـين، المتخاصمَـين بـل المتنافرَيـن في الشـعر العربـي الحديـث؟

يقـرُّ درويـش بصفـات إيجابيـة كثـيرة للقصيـدة بالنـثر، لكنـه "يُداورهـا"، إذا جـاز القـول، ويمـوِّه العلاقـة بهـا.

.....indd 189 29/07/2019 12:13:09

فلمـاذا؟

إقـدامُ درويـش عـلى كتابـة القصيـدة بالنـثر لـم يكـن بالمكـن لأسـباب مختلفـة. لعـل أقواهـا هـو أنـه يطلـبُ ويحبِّـذُ الغنائيـة في القصيـدة، وهـو مـا لا يسـتقيم مـن دون نظـم الـكلام في نسـق مموسـق. فكيـف إذا كان درويـش متشربًـا بـالأوزان، متفننًـا في صيغهـا!

عِيـب عـلى شـعراء التفعيلـة اقتصـار تجاربهـم الإيقاعيـة عـلى أوزان معـدودة، فمـا حـادوا عنهـا، بـل بـات حديـث الشـعراء الأوائـل عـن "التحـرر" العـروضي يعنـي، واقعًـا، الاكتفـاءَ بـأوزان قليلـة، مـا خفـفَ بالتـالي مـن غنـى الأوزان القديـم: مـا يجتمـع في سـتة عـشر وزنًـا، انتهـى إلى أن يكـون ثلاثـة أو أربعـة أوزان في راهـن قصيـدة التفعيلـة! أمـا درويش - ولا سـيما في شـعره الأخـير - فقـد نحـا وجهـة أخـرى، إلى تنويـع التفعيـلات وإيقاعاتهـا، مـا دام أنـه متمكـن مـن أوزانهـا.

هـذا كان خيـارًا مـن درويـش - خيـارًا تطويريًّـا منـه، هـو المغتـذي مـن خزيـن عـروضي متمكـن مـن ذائقتـه الشـعرية.

لا يعـرف درويـش – عـلى مـا يقـرُّ بنفسـه – أن يكتـب قصيـدة مـن دون وزن، ومـن دون إيقـاع. لكـن الأكيـد هـو

.indd 190 29/07/2019 12:13:09

أن لدرويش تعامُلًا - ملتبسًا بالفعل - مع القصيدة بالنثر. فهو أراد لبعض شعره أن "يبدو" كما لو أنه من معين القصيدة "المنبوذة"، فيما لم يكتبها إلا في بعض المقطوعات في كتبه الشعرية.

يجدُ سليمان جبران أن لجوء درويش إلى المتقارب في شعره الأخير كان بمثابة البديل عن إيقاع القصيدة بالنثر، مع ملاحظة أساسية وهي أن المتقارب يتنقل إلى المتدارك وبالعكس. فإيقاع المتدارك "خفي"، يكاد – إن عوَّلنا على سماعه – يظهر بأنه... نثر. هكذا يُخفي درويش الوزن معوّلًا في ذلك على التدوير.

عملَ درويش على "النَّفَس"، على التواصل المتجدد، ما يلغي التفعيلة أو يُدخلها في غيرها، وما يلغي الوزن ويُلحقه بغيره. هذا ما صرَّحَ به، إذ قال في كتابه الشعري: "لا تعتذر عما فعلت" إنه "سطر واحد"، ما يعني أنه متواصل، ممتد، متلاحق من دون إعاقات أو قيود داخلية. هكذا أحبَّ "الاسترسال" في القصيدة (حسب لفظه). وهو ما قالَه أيضًا في إطلاق الكلام "على رِسْله"، ما يعني الخروج الظاهري-الطباعي، والخروج الصوتي من المعروف والسائد عن الوزني والتفعيلي، لـ"مماشاة"

.indd 191 29/07/2019 12:13:09

القصيدة بالنثر، أو لاستيعابها، أو لمخاتلتها. يقول درويش عن "لا تعتذر عما فعلت": "إذا كتبتُ سطرًا وسكَّنْتُ، ثم كتبتُ بعده سطرًا شعريًّا فسيبدو هذا شعرًا عموديًّا". هذا ما يطلب درويش الخروج عليه، فيكتب قصيدة أو ينظمها شكلاً فوق الصفحة، أو إيقاعًا في بناء جُملها، بما يوحي بأنها تعدَّت نسق الوزن والإيقاع، فيما هي لا تفارقه واقعًا. هكذا يُلاعب، ويستدعي قابليات التلاقي و"الانزلاق" (إذا جاز التوصيف) بين تفعيلة ووزن وبين تفعيلة ووزن آخر. وما يريدُه هو "سطر مُسْترْسِل، وفيه جَيَشان داخلي" (حسب لفظه).

القافية يَخفتُ دَورُها للغاية بحصول التدوير، حتى إنها تبدو ملغاة، ما دام القارئ ملزم، بعد التوقف عندها، لمتابعة لاحقِها. القافية ماثلة، لكنها، حسب جبران، "لا تبرز للعين أو للأذن". يقول درويش: "أحيانًا أُخفيها (القافية)، أطردُها من آخر السطر وأضعُها في وسطه. القافية، بالنسبة لي، أشبه بزوجة مفروضة على رَجُلها، ولا حيلة له بوجودها". ثم يتابع: "القافية جزء من الإيقاع، لكن الإيقاع الأجملَ هو الذي لا يحتاج إلى قافية" [39].

39) عباس بيضون، محمود درويش: "من يكتب حكايته يرث أرض الحكاية"، مجلّة مشارف، العدد 2، أكتوبر-تشرين الأول، 1995، ص 97 - 98.

.....indd 192 29/07/2019 12:13:09

يقــول في القصيــدة بالنــثر إنهــا "الظاهــرة الأبــرز في الشـعر العربـي" خـلال العقدَيـن الأخيرَيـن بصـورة خاصـة، مـن دون أن يكتبهـا تمامًـا، بـل كان مـترددًا في ذلـك. اعـترفَ بكونهـا "ظاهـرة"، لكنـه انتقـدَ بعـض تجلياتهـا التعبيريـة (مثـل الانكفـاء عـلى الـذات، والانفصـال عـن "الخـارج")، أو الأسـلوبية (استسـهال الكتابـة، وشـيوع الأخطـاء فيهـا). أهـذا يعنـي أنهـا "قصيـدة المسـتقبل"، وإن نجـحَ في مقاومـة "احتلالهـا" للمشـهد الشـعري؟

قَبِـلَ تحدِّيهـا، إذا جـاز القـول، مـا جعلـه يُقـدِم عـلى تطويـر قصيدتـه، والمخـزون العـروضي (بهـذا المعنـى) معهـا. هـذا يعنـي أنـه "مُقـاوِم" شـعري بمعنـى مـا، ويقـاوم تبعًـا لحسـابات تخصُـه في خياراتـه، وفـق ذائقتـه. وهـو مـا صرَّحَ بـه لعبـاس بيضـون: "هنـاك بينـي وبـين قصيـدة النـثر بالتـالي حـوارٌ ضمنـي أو مبطَّـن. لكننـي أجـد حلـولي داخـل الـوزن" [40].

يَظهـر، إذًا، أكـثر مـن محاولـة في الجمـع (بـدل الحديـث عـن "مـزج") بـين النـثر والشـعر في القصيـدة الدرويشـية

40) عباس بيضون: "الشاعر لا يطل على التاريخ إلا من بعيد، جريدة" "الحياة"، لندن، العدد 192، 1996.

.indd 193 29/07/2019 12:13:09

الواحـدة، أو بـين قصيـدة وأخـرى في المجموعـة الواحـدة. كمـا لـو أن الشـاعر موسـيقي حقًّـا ينتقـل ببراعـة واقتـدار مـن مقـام موسـيقي إلى آخـر. وهـو مـا يجتمـع أيضًـا في السـطر نفسـه، في "حشـوه"، إذا جـاز القـول، إذ ينتقـل مـن بحـر إلى آخـر بـين جملـة وأخـرى، بمرونـة لا يتقنهـا غـير الخبـير في البحـور، وتفعيلاتهـا، وجوازاتهـا.

إلا أن مـا لـم يَظهـر، كفايـة، بعـدُ – وإن جـرى التعـرُّض الخفيـف لـه – فهـو "هيئـة" السـطر في المقطوعـة أو القصيـدة. وهـو مـا سـبق أن توقفـتُ لدرسـه في غـير كتـاب مـن كتبـي في درس الشـعر الحديـث، حيـث إننـي توقفـت عنـد "هيئـة" القصيـدة، أي عنـد مـا تبـدو عليـه لقارئهـا بوصفـه ناظـرًا إليهـا مثـل "شـكل". وهـو مـا توسـعتُ في اسـتجلائه وفحصـه في درسي القصيـدة المنثـورة أو القصيـدة بالنـثر، فتبينـتُ وجـودَ شـكلَين للسـطر فيهمـا:

- سـطر منقطـع، مـا يعنـي أن القصيـدة لا تقطـع مـع سـلفها العـروضي، فتجعـل السـطر الشـعري يتوقـف عنـد بيـاض طباعـي؛ وهـو سـطرٌ يناسـب القصيـدة بالنـثر، مـن دون أن يعنـي وجـود شـكل آخـر فيهـا.

.indd 194 29/07/2019 12:13:09

- سـطر متصـل، مـا يعنـي أن القصيـدة تتابـع تقـدمَ جريانهـا، مـن دون انقطـاع، أو بيـاض طباعـي، مـا لا يتوقـف إلا عنـد نهايـة المقطـع في القصيـدة؛ وهـو سـطرٌ قريـبٌ بالتـالي مـن بنـاء القصيـدة المنثـورة مـن دون أن يعنـي وجود شـكل آخـر فيهـا.

لـو عـاد الـدارس إلى قصيـدة درويـش الشـهيرة: "أنـا يوسـف يـا أبـي" لتنبـهَ إلى وجـودِ شـكلٍ قلمـا وقـعَ عليـه في شـعره، وهـو السـطر المتصـل:

"أنـا يوسـف يـا أبـي. يـا أبـي، إخوتـي لا يحبوننـي، لا يريدونني بينهـم يـا أبـي. يعتـدون عـلي ويرمونني بالحصى والـكلام. يريدونني أن أمـوت لكـي يمدحونـي. وهـم أوصـدوا بـاب بيتـك دونـي. وهـم طردونـي مـن الحقـل..."[41].

"هيئـة" القصيـدة "تبـدو" كمـا لـو أنها مـن النـثر في تتابع سـطرِها المتصـل، الـذي لا يتوقـف إلا في نهايـة القصيـدة. مع ذلـك ليسـت القصيـدة مؤلفـة مـن جملـة واحـدة، ويمكـن الانتبـاه إلى أن الشـاعر أوردَ النقـاط المناسـبة بعـد نهايـة كل جملـة. بـل حفلـت القصيـدة بأكـثر مـن إشـارة تنقيطيـة

41) محمود درويش: "أنا يوسف، يا أبي"، في: "ورد أقل"، في: "الأعمال الأولى الكاملة"، الجزء الثاني، رياض الريس للكتب والنشر، 2005، بيروت، ص 159.

.indd 195 29/07/2019 12:13:09

دالَّـة عـلى تقطيـعِ جُملهـا، وأجـزاءِ جُملهـا، مثـل الفاصلـة تحديـدًا. وهـو مـا يزيـد مـن "الانطبـاع" البـصري، وهـو أننـا أمـام مقطوعـة نثريـة.

إلا أن قـراءة القصيـدة تأتـي بنتائـج عكسـية لِمـا "بَـدت" عليـه، إذ هـي موقَّعـة، بـل موزونـة تمامًـا، وفـق البحـر المتقـارب (فعولـن...). لكـن القـراءة الوزنيـة التـي أجريناهـا أتـت وفـق تتابـع الإيقـاع في الجُمـل، مـن دون توقـف، في نَفَـس واحـد، مـن اللفـظ الأول حتـى الأخـير فيهـا. ولكـن لـو أخذنـا بعـين الاعتبـار "تقطيـعَ" النـص بعلامـات الترقيـم، أي التوقـف حسـب النقطـة خصوصًـا، لانتبهنـا إلى أن بنـاء القصيـدة يجـري وفـق البحـر المتـدارك (فاعلـن...).

مـا قامـت عليـه هـذه القصيـدة، بـين هيئتهـا الترقيميـة وبـين بنائهـا الوزنـي مبايـنٌ، مـن جهـة، ومتفاعـلٌ ومتداخـلٌ بعضـه في بعـض، مـن جهـة ثانيـة. لم يكـن لدرويـش أن يفعل ذلـك لـولا تنبهـه لإمكانـات "التنافـذ" التفعيلي-الإيقاعـي بـين الوزنَـين، ولـولا طلبـه وخيـاره بالجمـع والتجريـب بينهمـا. هـذا التجريـب إن كان متاحًـا او ممكنًـا نظريًّـا، فإنـه غـير قابـل للتحقـق مـن دون دربـة درويـش الماهـرة في صياغـة الأوزان، والتفنـن بهـا، عـلى طـرف... لسـانه.

.indd 196 29/07/2019 12:13:09

ولقد وجدتُ مثالًا آخر عن الحالة هذه في قصيدة: "إن مشيت على شارع"، فهي على وزن الرمل مضيفًا إليها تفعيلة: مفاعلتن من الوافر. ولكننا إن قرأنا القصيدة وفق تقطيع فواصلها ونقاطها، لوجدنا أنها تنتسب إلى البحر المتقارب.

في شعره - وأنا أستعيده - استعاداتٌ تنتقل من قصيدة إلى أخرى، من مجموعة شعرية إلى أخرى. استعاداتٌ، هي أقرب إلى إلحاحاتِ المعاني، وتجلياتها. استعاداتٌ، وجدتُها، على سبيل المثال، بين حواري معه إثر خروجه من بيروت (تشرين الاول-أكتوبر 1982)، وبين قصائد: بيروت، أحمد الزعتر، مديح الظل العالي وغيرها.

استعادات وابتداءات ما يناسب بناء "موسيقية"، وهو ما يمكن التحقق منه في الترادات واللازمات الإنشادية والدندنات اللحنية، كما في إحالاته الواعية أو غير الواعية إلى أنساق معروفة، من نشيد الأناشيد ومزاميره والسور القرآنية ("سورة يوسف" في القرآن الكريم) في قصيدة: "أنا يوسف، يا أبي"، إلى الأهزوجات الشعبية، والجملة التي تصلح للحفظ، للشعار.

.indd 197 29/07/2019 12:13:09

يــرى عهــد فاضــل أن في شــعر درويــش "عــودة الى الصــوت"، في عــدد مجلــة "نقــد" المخصــص لدرويــش [42]. إلا أن في الــكلام عــن "الصــوت" مــا يعنــي – في مــا يعنيــه - الاحتفــاظ أو التجديــد للشــفوية في الشــعر، أو للإلقــاء حســب محمــد حلمــي الريشــة [43]: هــذا مــا يفــسر – عــلى مــا أدافــع - صلــة درويــش بقبانــي، في هــذا الوجــه وغــيره.

اســتوقفني، في آراء شــعراء شــباب في شــعر درويــش (في مجلــة "نقــد" المذكــورة)، أن غــير واحــد مــن بينهــم تحــدث عــن درويــش ابتــداءً مــن ســماعهم أغنيــات مارســيل خليفــة مــن شــعر درويــش. هــذا لا يكفــي، بالطبــع، لأن مســار القصيــدة بالتــثر، قبــل درويــش ومعــه، وبعــده، بمــن فيهــم بعــض هــؤلاء الشــباب، اتخــذ وجهــة أخــرى: كتابيــة - واضعــين عــلى جنــب "صوتيــة" قصيــدة الماغــوط منــذ "حزن في ضــوء القمــر" وبعــده.

اســتجمعَ درويــش في صوتيتــه مــا هــو أغنــى مــن رتابــة الجملــة القبّانيــة، وهــو التنويــع الموســيقي والتفنــن بــه.

---

42) عهد فاضل: "من الصوت إلى نموذج التفوق: طبيعة غير صامتة في الشعر العربي"، مجلة "نقد"، بيروت، 2007، ص 9.

43) محمد حلمي الريشة: "محمود درويش... آخر شعراء الإلقاء الشعري؟"، مجلة "البيت"، م. س.، ص 168.

.....indd 198 29/07/2019 12:13:09

وهـو بهـذا المعنـى غالـبَ مـدَّ الكتابيـة المتنامـي، واقـترح صيغـة لاقـتْ قبـولًا عنـد فئـات مـن القـراء كانـت مبتعـدة عـن الشـعر، أيًّـا كان.

لهـذا بـدا لي درويـش كلاسـيكيًّا - بأكـثر مـن معنـى - في تجربتـه الشـعرية.

عمـلَ درويـش عـلى مـا يسـمى (affect)، بالفرنسـية، أي الاسـتثارات العاطفيـة بغـير وسـيلة ومفعـول: الاسـتثارة بالموسـقة المتنوعـة (بعيـدًا للغايـة عـن رتابـة الـوزن وطنينـه)، بالإلقـاء، برنـينِ وقـعِ نهايـات السـطر (قبـل أن يُبطلـه لصالـح "النَّفَـس" المتلاحِـق، المتحقِّـق في عـدد مـن شـعره الأخـير)، بلفـظ فلسـطين الكثـير، وصـور الحبيبـة الرومنسـية [44]، وأناقـة العبـارة المسـتقاة مـن سـجل معجمـي منتقـى، أليـف، مأنـوس.

لعـل في وجـع المتنبـي القديـم، الكيانـي، مـا يـتردد في بعـض قصائـد درويـش (وتعلقـه بـه، عـدا مكانتـه في الشـعر العربـي)، ومنهـا: العتـاب، والشـكوى، والتظلـم، والأسى، والمنـاداة الجريحـة، ومواجهـة الزمـن....

44) يحتاج شعر درويش إلى مزيد من الدرس لتبين "صورة" المرأة فيه: في مجموعة "سرير الغريبة"، يكتب قصيدة بعنوان: "درس من كاما سوطرا" (ص 125 - 128)، وتبدو أقرب إلى "سوناتا"، وفي المجموعة ست قصائد تحمل عنوان: "سوناتا".

.indd 199 29/07/2019 12:13:09

نوبل: درويش وغيره

يشـدِّد درويـش عـلى أنـه طلـبَ أن يكـون شاعــرًا منـذ السادسـة مـن عمـره. وهـو مـا عمـلَ مـن أجلـه، في كتابـة القصائـد، منـذ سـنواته الدراسـية، أو في نـشر الشـعر في كتب، وهـو يـكاد، في أولهـا، أن يكـون قـد أتـمَّ الثانيـة والعشريـن مـن عمـره. وهـو مـا لـن يفارقـه أبـدًا، في أي وضـع أو حـال، لدرجة أن كتابتـه النثريـة - وإن تمثلـت في كتابـين أو ثلاثـة ذات خطة ومقاصـد – بقيـت ثانويـة مـع مـا عنـاه لـه الشـعر. هـذا مـا جعـل الشـعر ينسـال منـه في أكـثر مـن عشريـن مجموعـة شـعرية، بحكـم "السـليقة"، أشـبه بشـاعر – حكـى لي عنـه – كان يـرود القـرى الفلسـطينية منشـدًا الشـعر مثـل مخلـوق عجيـب، عـلى الرغـم مـن طلبـه الألفـة مـع الغـير. وقـد يكـون أولى علامـات تقدمِـه، هـو أن مبيعـات كتبـه الشـعرية بلغـت

.indd 201 29/07/2019 12:13:09

في العـام 1977 - حسـب جريـدة النهـار" في حينـه – أكـثر مـن مليـون نسـخة.

غـير أن شـعر درويـش تولّـد وتبـدّل في التفاعل والسـجال تبعًـا لثقافـة، ولنمـاذج، شـعرية بعينهـا: مـن شـعر "الـرواد" العــرب، أو الشــعراء الشــيوعيين في العالــم (بابلــو نــيرودا، ناظـم حكمـت، بـول إيلـوار، لـوي آراغـون وغيرهـم)، قبـل أن يجعــل مــن المتنبــي رفيقًــا دائمًــا لــه، ومــن الغــوص في الملحمـة الإغريقيـة طلبًـا للتشـابه والتـوازي مـع مـا هـي عليـه ملحمـة الفلسـطينيين التراجيديـة.

هكـذا واكـبَ شـعرُه وتفاعـلَ مـع أحـداث "مشـهودة" في حيـاة الفلسـطينيين: مثـل استشـهاد محمـد الـدرة، أو "حالــة حصــار"، أو "حصــار" الإسرائيليــين، قبــل ذلــك، لقـوى منظمـة التحريـر في بـيروت لمـدة شـهرين في صيـف العـام 1982، أو سـقوط مخيـم تـل الزعـتر في بدايـات الحـرب في لبنـان وغيرهـا الكثـير. كمـا صرف لعـدد مـن رفـاق النضـال قصائـد، بعـد عمليـات اغتيالهـم، عـدا أنـه صرف للكثـير مـن الفلسـطينيين، المقاتلـين والمغموريـن، في خروجهـم فـوق سـفن في العـام 1982، قصائـد عامـرة بيومياتهـم وتطلعاتهـم في مجموعتــه: "ورد أقــل".

.indd 202 29/07/2019 12:13:09

هـذا مـا جعـل البعـض يتحـدث عنـه بوصفـه "شـاعر فلسـطين القومـي".

انـصرف أكـثر مـن دارس وناقـد، بـين عربـي وأجنبـي، إلى درس شـعر درويـش، وتوقـفَ بعضهـم عنـد جوانـب فيـه، بـين موضوعاتـه أو وجوهـه الفنيـة، ومنهـم كاتـب هـذه السـطور. إلا أن هـذه العنايـات النقديـة والدراسـية لـم توفـر - بعـدُ - رؤيـة نقديـة، "نصيـة"، فنيـة، صرفـة لشـعره، إذ لا يبتعـد هـذا النقـد عـن ربـطٍ إلزامـي بـين قصيدتـه ووقائـع خارجـة عليهـا، أو عـن معاينـة القصيـدة وفـق منظـار سـياسي صرف. إن نقـدًا كهـذا يجعـل القصيـدة "وثيقـة"، إذا جـاز القـول. وهـو مـا احتاجَـه بعـض النقـد، بـل التوجـهُ السـياسي الماثـلُ في مقاصـد النقـد، لجعـل فلسـطين متعينـة في "كيـان"، في وجـود مـادي لهـا. وهـو مـا يمكـن للـدارس التحقـق منـه، إذ إن قصائـد لدرويـش، بـل بعـض أبياتهـا، "تصنـع" الحـدث بدورهـا، مثـل شـعار يرتفـع فـوق جـدران المخيمـات: "وطنـي ليـس حقيبـة، وأنـا لسـت مسـافر"، أو مثـل أصـوات في أناشـيد، أو في أغنيـات (خاصـة مع مارسـيل خليفـة)، أو في أعمـال فنيـة، خاصـة مـع الفنـان الجزائـري رشـيد القريـشي، في الكتـاب الشـعري-الفني البـاذخ: "أمـة

.....indd 203 29/07/2019 12:13:09

في المنفى" [45]... بل في إمكان الدارس أن ينتبه إلى نوع من التعالقات الأكيدة بين الموقف السياسي، أو الحدث السياسي، في مسار منظمة التحرير الفلسطينية، وبين قصائد درويش، في نوع من التقابل والتقاطع بينها.

لهذا يسهل على الناقد انتهاج سبيلَين في درس شعر درويش:

- نهجٌ يتخذُ من إقاماته، بين مرحلة وأخرى، عنوانًا للتعيين؛
- نهجٌ يتخذُ من محطات النضال الفلسطيني ومراحله عناوين دالة على شعره.

في اعتماد النقد على هذَين النهجَين مقادير من الصحة والتوفق، إذ لا يمكن إسقاط ما هو مطلوب من درويش، أي مِما سعى إليه في انتقالاته من هذه المدينة إلى تلك؛ وهو ما يقوله بنفسه عن تغيرات أصابت شعره، أو طلبَها بشكل عمدي. هذا ما يمكن قوله في صياغات طلبَها وفق تعيينات وجدَها ماثلة في مسيرة النضال الفلسطيني: مثل الجنوح الملحمي ابتداء من خروج

45) رشيد القريشي (مع: محمود درويش، وحسن المسعودي، وعبد الكبير الخطيبي): "أمة في المنفى"، دارة الفنون-مؤسسة عبد الحميد شومان، عمّان، 1997.

.indd 204 29/07/2019 12:13:09

المقاتلين في البحر المتوسطي "الغامض"، أو مثل إدماج تاريخ فلسطين القريب ("النكبة" وغيرها) بتواريخ عالمية أو عربية [46]، في "أحد عشر كوكبًا" (1992).

إلا أن منظورات نقدية كهذه – على لزومها وفوائدها التحليلية أحيانًا – قد تبددُ أساس ما تكتبه قصيدة درويش، بل أساسَ ما يطلبُه منها. لا يَغِيب عن أي متابع كيف أن درويش طلب "مثالًا" للشعر، أو تطلعَ إليه، بحيث تكون "فنيته" هي معيار تقدمه وتوفقه. هذا ما يتضح في اشتغال درويش على تنمية ثقافته الشعرية، وعلى متابعة شعرِ غيره، بمن فيهم شعراء عرب أصغر منه عمرًا، وأقل منه شهرة... وهو ما لم يتأخر عن التصريح عنه في كثير من حواراته – وهي كثيرة في السنوات العشر قبل وفاته – ويتضحُ فيها عملُ درويش على تعديل صورته الشعرية بالمعنى النقدي لها، وعلى تأكيد تجاوبه مع أجيال وأصوات تالية عليه، ومختلفة معه. هذا ما عملَ عليه بتأنٍّ وصبر، على ما كنتُ أتحقق منه عن قرب وعن بعد، في متابعة له، ولمواقفه، ولسلوكاته في هذا المؤتمر أو ذاك: بات درويش

46) مثل حلول كولمبوس فوق الأرض الأميركية التي انعقدت أيامها مع سقوط آخر وجود عربي وإسلامي في إمارة غرناطة: في العام 1492.

.indd 205 29/07/2019 12:13:09

أكـثر إنصاتًـا وتنبهًـا لغـيره، فـلا يتـصرف تـصرفَ "النجـم" مـع "متابعيـه" أو حواريـيـه؛ ولا يُقـدِم معهـم عـلى بعـض السـلوكات "النزقـة"، كمـا في مواقـف وأوضـاع سـابقة. بـات أكـثرَ تأكـدًا مِمـا يتوصـل إليـه، ومِمـا ينجـح في إقـراره مـن قبـل الغـير. بـات أكـثر اسـتماعًا، ولا سـيما بعـد خروجـه مـن منظمـة التحريـر، حيـث بـات عالـم الشـعر والشـعراء عالمَـه الأكيـد والمتبقـي لـه، بوصفـه الدلالـة عـلى وجـوده وعـلى مكانتـه.

هـا مـا عايشـتُه بنفـسي، مـع غـيري، في مـداولات اللجنـة التحكيميـة قبـل سـنة ونيـف عـلى وفاتـه، في القاهـرة، إذ خـرج درويـش في دورة الاقـتراع الأولى بتسـعة أصـوات مـن أصـل عـشرة، حيـث طُلـبَ مـن كل محكِّـم، في دورة الاقـتراع الأولى، اختيـار ثلاثـة أسـماء: هكـذا حصـل شـعراء مثـل سـعيد عقـل ونـازك الملائكـة وأنـسي الحـاج عـلى صـوت واحـد، أو أدونيـس عـلى ثلاثـة أصـوات، مـن مجمـوع أصـوات المقترعـين... فيمـا بقـي للـدورة الأخـيرة ثلاثـة أسـماء: محمـود درويـش، سـعدي يوسـف ومحمـد عفيفـي مطـر (بعـد أن نجـح شـاعر "الجـوع والقمـر" عـلى التقـدم عـلى شـاعر "مدينـة بـلا قلـب"، في دورة الاقـتراع الثالثـة لتحديـد

.indd 206 29/07/2019 12:13:09

"القائمة القصيرة"، إثر تساوي الأصوات بينهما).

هذا الانتخاب لم يكن الدليلَ الساطع على تركز مكانة درويش الشعرية، إذ سبقتْه مؤشرات ودلالات عديدة كانت تُظهره في موقع المتمكن، بل المقتدر، فلا يختلف اثنان على جمعه الفريد بين جماهيرية ساطعة (حتى في فرنسا) وبين تأكدٍ فني متين. هذا ما لم يجتمع في غيره حتى تاريخه: لنزار قباني قاعدة شعرية أوسع من دون شك، وأكثر تنويعًا من جمهور درويش، فيما تتناقص في جمهوره ذائقة النخب؛ والعكس صحيح عند أدونيس، حيث يتناقص جمهوره عن المذكورَين، فيما قد يتقدم أدونيس على درويش في الدرس النقدي لشعره. بل يمكن التنبه – وهو ما أمكنني ملاحظته في أكثر من مدينة ووسط – إلى أن درويش بات يكتسب فئات قراء جديدة، هي من الأكثر تشددًا وتطلبًا في تذوق الشعر العربي.

هذا ما ظهرتْ بعض علاماته في مطالع الثمانينيات، حيث انتشر خبر أن جائزة نوبل ستُعطى لأربعة من الأدباء العرب (مجلة "الدستور"، لندن): نجيب محفوظ، وأدونيس، ومحمود درويش والطيب الصالح.

.indd 207 29/07/2019 12:13:09

مثـل هـذا الخـبر "مدسـوس" مـن دون شـك؛ وقـد كتبـتُ ابتـداء منـه تعليقًـا ساخـرًا في مجلـة "كل العـرب"، مشيـرًا إلى أن هـذا الأمـر غـير ممكـن الحـدوث (أربعـة لنوبـل!)، مـا أطلقـتُ عليـه تسـمية: "جائـزة بالـتراضي". ومـا لبثـتُ، في تعليـقٍ تـالٍ، أن رشـحتُ نجيـب محفـوظ للفـوز بجائـزة نوبـل لـلآداب؛ وهـو مـا تحقـقَ بعـد سـنوات قليلـة...

سـخرَ درويـش عنـد انتشـار خـبر الفـوز المرتقَـب للأربعة، عندمـا فاتحتُـه بالأمـر. لكنـه لـم يُبـدِ رأيًـا في الفـوز، أي في هويـة المسـتحق والجديـر. وهـو مـا لبـث أن ذكَّرنـي بـه بعـد فـوز محفـوظ بالجائـزة (1988). كان درويـش قـد نـشر، قبـل ذلـك، حـوارًا مـع يوسـف إدريـس أجرَتْـه الصحفية السـورية سـلوى النعيمـي، ونشرتْـه في "الكرمـل": عنـوان المقابلـة كافٍ في دلالاتـه، وهـو توقـعُ فـوزِ إدريـس القريـب بالجائـزة، إذ ذكـرَ، في الحـوار مـا يـلي: "الحقيقـة هـي أن هنـاك مـن كتـبَ مقـالات، مثـل الدكتـور (المـصري) صـبري حافـظ، أسـتاذ الأدب العربـي في جامعـة اسـتوكهولم، ليقـول إننـي رُشـحت، هـذا العـام، للمـرة الرابعـة للحصـول عـلى جائـزة نوبـل. كان اسـمي في القائمـة القصـيرة التـي تضـم أربعـة أو خمسـة كُتـاب. وكنـت الثالـث. حتـى ليوبولـد سـنغور لـم يكـن في

.....indd 208 29/07/2019 12:13:09

القائمة". ثم يتابع: "أنا المرشح العربي الوحيد لهذه الجائزة. ليس هناك غيري. وإذا قيل لك إن محمود درويش مرشَّح لها، فهذا ليس حقيقيًّا. ولا نجيب محفوظ. ولا توفيق الحكيم. أنا فقط"[47].

لكن درويش عاش مأساة إدريس عندما حلَّ في القاهرة، بعد فوز محفوظ بها، وإثر اتصال زوجة إدريس بالشاعر للتخفيف من حالة زوجها المكتئِب: كانت حالته (على ما أخبرني درويش) تتراوح بين الاكتئاب والغضب... عندها سألتُ درويش: وماذا عن فوزك بالجائزة المرموقة؟ هل انتهتْ حظوظك؟ فكان أن أجابني بحزم وإصرار: لكَ أن تسأل أستاذك (والمقصود أدونيس)... إذ راجت الأخبار نهارَ فوز محفوظ بها، أن كاتبًا عربيًّا سيفوز بها. هذا ما تكهن به الكاتب المغربي الطاهر بنجلون، عندما اتَّصلتْ به، صباح ذلك اليوم، المسؤولة عن القسم الثقافي في جريدة "اللوموند"، وأبلغتْه أن "التسريبات" التي وصلتْ إليها تقول بفوز كاتب عربي بالجائزة. ثم تابعتْ: لكَ أن تكون مستعدًا لكتابة المقال المناسب. توقع بنجلون، يومها - وهو ما أكدَه لي

47) سلوى النعيمي: مقابلة مع يوسف إدريس: "أنا، أنا، أنا فقط"، مجلة "الكرمل"، قبرص، العدد الثالث عشر، 1984، ص 193.

.indd 209 29/07/2019 12:13:10

بنفسه - أن يكون الفائزَ المحتمَل: أدونيس، نظرًا لتردد اسمه في عداد المرشحِين الدائمِين والمحتملِين للجائزة. هذا ما بلغ بعض أصحاب أدونيس، ممن استعدّوا للاحتفال بالفوز في "مقهى كلوني" الشهير في الحي اللاتيني... وهو ما بلغَني، يومها، من مسؤول القسم الثقافي في جريدة "الحياة"، مصطفى زين (حيث كنتُ أعمل منذ انطلاق الجريدة في لندن): أخبار الوكالات أفادت عن إمكان فوز عربي بالجائزة... أعتقد أنه سيكون أدونيس، وعندها سيكون عليكَ أن تكتب المقال المناسب عنه. وهو ما شرعتُ في الاستعداد له، وإذ بالنتيجة تقلب المتوقَع كابوسًا على مُريدي أدونيس. حتى إن بعض الإشاعات روَّجتْ أن حافظ الأسد بنفسه كان ينتظر بدوره الخبر السعيد...

نوبل أصابت أعدادًا من الكتّاب العرب المرموقِين بسِهامِها، فيما أكدَ لي محمود درويش في مناقشة تالية على الفوز: لستُ متضايقًا من هذا الفوز... كثيرون من الأدباء المصريين يعتبرون أن توفيق الحكيم هو "الأحق" بها من غيره. وهو ما قالَه لي، قبل ذلك، الشاعر أحمد عبد المعطي حجازي عند ترشيحي لمحفوظ، وأديبة

.....indd 210 29/07/2019 12:13:10

مصريــة كانــت تعمــل في إذاعــة "مونتــي كارلــو الدوليــة" بباريــس... لكننــي قاطعــتُ درويــش: ومــاذا عنــكَ؟ توقــف درويــش عــن الــكلام، ولكــن مثــل مــن يهيِّــئ الجــواب بعــد إدارة الــكلام في عقلــه قبــل لســانه، وإذ بــه يباغتنــي بالقــول: ألا تعتقــد بأننــي ســعيد؟ أتعــرف أن محمــد حســنين هيــكل ("الأهــرام") وأحمــد بهــاء الديــن ("المصــوَّر") اســتقبلاني، مــع أقــران لهــم، في القاهــرة، وجعلونــي في مصــاف كبــار الكتّــاب، فيمــا كنــتُ قــد أصــدرتُ حينهــا ثــلاث مجموعــات شــعرية عــلى الأكــثر! ألا أكــون ســعيدًا، وقــد تــمَّ تسريــب اســمي للفــوز مــع ثلاثــة كتّــاب عــرب يتقدموننــي ســنًّا ومكانــة؟

إلا أننــي، مثــل غــيري، كنــت أعتقــد بأنــه كان يأمــل بالفوز بهــا، ولا ســيما بعــد "اتفاقيــة أوســلو"، فــكان أن فــاز بهــا... يــاسر عرفــات مــع إســحق رابــين، بوصفهمــا "بطــلَي ســلام" (1994). كان يأمــل بهــا مؤكَّــدًا، عــلى الرغــم مــن أن البعــض اســتبعدَ فــوزه بهــا لاحقًــا، إذ كان "متحفظًــا"، بــل معارضًــا للاتفاقيــة المذكــورة. كمــا أن البعــض اعتــبر مواقــف درويــش "المهادنــة" أو "التطبيعيــة" (حســب تعبــير معارضيــه) أتــت تســهيلًا لفــوزه، بينمــا نعــرف عنــه أن مواقفــه هــذه ليســت

.indd 211 29/07/2019 12:13:10

بجديدة، وإنما قديمة للغاية. وهو ما بلغ، في عهد تالٍ، كلامَه عن عدم وجوب "شيطنة الإسرائيلي"...

غير أن حكاية نوبل "العربية" لم تنتهِ فصولًا، بدليل ما حصل معي قبل فوز محفوظ بها، وبعده، ابتداء من مكالمة هاتفية أجراها معي المستشرق الفرنسي جاك بيرك، ذات يوم، في بيتي. كانت مكالمته مفاجِئة، إذ لم يتصل بي في السابق، وكنتُ المبادِر إلى ذلك دومًا. موضوع المكالمة كان مفاجِئًا لي بدوري، عندما فاتحني عن موقفي من نشر رواية نجيب محفوظ: "أولاد حارتنا" مترجَمةً إلى الفرنسية في "دار سندباد"، لصاحبها بيار برنار.

هذه الدار كانت دقيقة في خياراتها الترجمية، ومتقنة الصنع في إنتاجاتها، وهي الدار شبه الوحيدة (في تلك الأيام) للأدب العربي منقولًا إلى الفرنسية، بقديمه وجديده (فيما خلا بعض الدور التي كانت تتوكل بنشر بعض الكتب البحثية لكبار المستشرقين الفرنسيين). هذا ما كان قد شرعَ فيه بيار برنار إثر هزيمة حزيران-يونيو 1967 (على ما أخبرَني، ذات يوم) بتوافق مع سياسات الجنرال ديغول "المتفهِّمة" للحق العربي.

بدت عليَّ الدهشة – من دون أن أُظهرها في صوتي عبر

.indd 212 29/07/2019 12:13:10

الهاتـف - عندمـا فاتحَنـي بـيرك في خيـار الترجمـة: لمـاذا تتوجـه إليَّ؟!

لـم أتـردد في قـول موقفـي "السـلبي" مـن هـذه الروايـة، فـكان أن أعـاد الـكلام عنهـا معـي، مؤكـدًا عـلى مـا كنـتُ أعرفُـه، وهـو أن محفـوظ يتخـذ في هـذه الروايـة موقفًـا نقديًّـا مـن المعتقـدات الدينيـة، مـا كان يُشـكل ردًّا "مسـبَقًا" (إذا جـاز القـول) عـلى "الأسـلمة السياسـية" الناشـطة التـي كانـت تتبـدى في المشـهد العربـي العـام.

كانـت دهشـتي مزيـدة، بعـد أن أقفـل بـيرك السـماعة، وقـد عـاد وكـررَ موقفـه، مسـتعيدًا دفاعـه عـن الروايـة المذكـورة. فـكان أن انتهيـتُ، مـن النقـاش معـه، بالقـول بعـدم ممانعتـي لترجمتهـا ونشرهـا.

هـذا مـا اسـتذكرتُه، ذات صيـف، عندمـا انتقلـتُ في القطار في مطالـع شـهر تموز-يوليـو للتوجـه إلى منطقـة "اللانـد" (جنـوب غربـي فرنسـا)، للقـاء بـيرك بعـد اعتزالـه التدريس الجامعـي، واعتكافـه في بيـت والـده، في قريـة سـان-جوليان أون بـورن. تذكـرتُ مكالمـة البروفيسـور الهاتفيـة، وإذا بـي أتذكـر كونـي رشـحتُ محفـوظ للجائـزة، وهـو مـا تناقلتُـه بعـض الصحـف المهاجـرة حينهـا (مثـل "الطليعـة"، مـع

.indd 213 29/07/2019 12:13:10

الصحفـي والشـاعر العراقـي فيصـل جاسـم). وتذكـرتُ "بيـان" الأكاديميـة السـويدية الـذي ركَّـز عـلى روايـة محفـوظ: "أولاد حارتنـا". أيكـون بـيرك أحـد "مستشـاري" الأكاديميـة، في هـذا الفـوز عـلى الأقـل؟ أيكـون قـد اسـتلمَ منهـا ملـف ترشـيحات محفـوظ، ومنهـا ترشـيحي؟

ضحكـتُ، يومهـا، مـن نفـسي، ومـن حـسي "المؤامراتـي"... هـذا لـم يمنعنـي، مـع ذلـك، مـن مسـاءلة بـيرك، بعـد انتهـاء حواراتـي الطويلـة معـه، عـن سـبب مكالمتـه تلـك. فأجـاب أنـه يُقـدِّر مواقفـي الأدبيـة، وأن برنـار نفسـه شـجعَه عـلى ذلـك لمعرفتـه بـي. لكننـي أتبعـتُ جوابـه بالقـول: مـا علاقـة هـذه المكالمـة بفـوز محفـوظ؟ ضحـكَ بـيرك، يومهـا، ضحكتَـه العريضـة مـن دون أن يُصـدر أي صـوت. وعندمـا أعـدتُ طـرح السـؤال، بعـد أن أغلقـتُ آلـة التسـجيل الصغـيرة، أجـاب: لا تعليـق.

لا تعليق.

.indd 214 29/07/2019 12:13:10

لا أريدها أن تنتهي

قد يكون خطاب درويش في احتفال جامعة بير زيت، عند منحه شهادة الدكتوراه الفخرية، لحظةً مناسبة لاستشراف ما كان يراه من دوره المقبل، في وضعيته الجديدة، بعد العودة في العام 1994: "كنتُ هنا من قليل، في أول لقاء على هذه الأرض، يجمعني بما كان فيَّ من أمس، وبما سيكون عليَّ أن أكونه، في غدٍ، بعد قليل (...). لا أحد يعود. لا أحد يعود تمامًا إلى ما كانه وإلى ما كان فيه. لا أحد يعود"[48].

لا أحد يعود، في أول تحققٍ مأسوي له، لكنه يستدرك: "لا يزال المكان في مكانه (...)، هذا المكان الذي لا مكان لنا، ولا لأحلامنا سواه، جحيمًا كان أم نعيمًا". يعود محمَّلًا

48) محمود درويش: "المكان في مكانه"، في: "حيرة العائد" (مقالات مختارة)، رياض الريس للكتب والنشر، بيروت،2007، ص 25.

.....indd 215 29/07/2019 12:13:10

بشعور الخسارة إثر "اتفاقية أوسلو"، ما تشير إليه بعض عباراته الجارحة: عملت الاتفاقية على "تعديل حبكتنا التاريخية في اتجاه الاعتذار عن سيرتنا"؛ ويتحدث عن "السلطة الوطنية" الناشئة مذكِّرًا بأن السلطة ليست "نقابةً وطنية لإدارة شؤون السجناء"، أي الدور المنوط – واقعًا – بالسلطة الناشئة، من دون سيادة على أرضها؛ فكيف إذا "حولنا العدو إلى خصم"!

مع ذلك يشدد درويش:"لا عودة إلى الوراء"؛ و"لا نريد أكثر من أن نكون بشرًا عاديين" (م. ن.، ص 30).

عاد من دون أن يعود تمامًا، فتوزعتْ إقامته بين رام الله وعَمان. عاد شعريًّا على الخصوص، بكتب شعرية متعاظمة، وبأمسيات شعرية التقى فيها مع جمهوره القديم، ومع من كان لا يعرفهم. اللافت، في عودته، هو أنه استلهم الكثير من التاريخ، الخصوصي والعمومي، لكي يكتب شعره... حتى مناخات "النضال" باتت أكثر تأملًا، كما في "حالة حصار".

عاد إلى التاريخ، بينما كان يجد أن "اتفاقية أوسلو" قد جعلت الفلسطينيين "من دون ماض".

لكنه بقي متنصتًا ومتابعًا لما يجري، بينما كان

.indd 216 29/07/2019 12:13:10

يُضيِّق الخناق على الممكنات المستقبلية للاتفاقية. سألتُه، في زيارة له لبيروت، عن مروان البرغوثي، في ذروة تألقِ نجمِه السياسي في قيادة "الانتفاضة": أهو قائد "مستقل" فعلًا؟ ضحكَ يومها، في لقاء ضمَّنا مع الروائي إلياس خوري، وأجاب: مستقل!؟ إنه يلتقي، كلَّ مساء، بياسر عرفات ويتلقى منه "التعليمات"...

اعتُقل البرغوثي في العام 2002، ثم حُكم عليه بالسجن المؤبد. حُوصر ياسر عرفات في "المقاطعة" (مقر السلطة الوطنية)، وبدا حصاره تضييقًا، ليس على الاتفاقية نفسها، وإنما على قدرة أبي عمار المشهود له بها في "التحريك" و"التجييش"، مثلما فعل في غير مكان في العالم: إنهاضًا لفلسطين، ورفعًا لكيانها السياسي.

بدا حصار أبي عمار في رام الله (في وجه شارون) مختلفًا عن حصاره في بيروت (في وجه شارون): هناك خرج برفقة سلاحه الفردي ومشروعات إنجاز الدولة الفلسطينية، فيما خرج من "المقاطعة" في طوافة عسكرية إلى فرنسا، لتلقِّي علاجه الأخير قبل الموت (11 - 11 - 2004).

كانت الأيام تتغير، بدليل ما بات يحدث في عالم

.indd 217 29/07/2019 12:13:10

التواصل: سخرَ مني درويش، في العام 1986، عندما عَلِم بكوني التحقتُ، في هذه السنة، بدورة تدريبية على... الحاسوب. لم يكن يأبه بهذا كله، ما دام أن هناك ورقًا وأقلام حبر سائلة. هذا ما كان يرغب في اقتنائه، وفي التمسك به أداة للكتابة والكتاب. كان قد أدخل تنظيمات عديدة على حياته المهنية، في باريس تحديدًا، إذ بات يخصص صباحاته للكتابة، من دون أي موعد آخر: الكتابة هواية، لكنها حرفة خصوصًا، كما كان يردد. تنظيمات مستجدة، ولكن من دون أن يفارق الورقة البيضاء والحبر.

لم تفارقه يده الكاتبة بالحبر السائل حتى في أمسياته، إذ كان يكتب قصائده بخط يده، ثم يطوي الأوراق في جيب سترته، قبل أن يُخرجها للإلقاء. طالبْته ذات يوم، بعدد من مسودات شِعره، وكنتُ قد شرعتُ، في ذلك الوقت، بدراسة "المسودات الأدبية"، أو علم ما قبل النص. لكنه رفض مجرد الفكرة رفضًا جازمًا. لهذا بدت عليَّ الدهشة والاستغراب، بعد موته، عندما أخبرني أحد معارفه الأردنيين بأن درويش كان يتهيأ قبل موته، بسبب مضايقات مالية، لعرض مسودات من شعره... للبيع في مزاد علني!

.indd 218 29/07/2019 12:13:10

كانت الأيام تتغير، في سياسات العالم، كما في سياسات فلسطين، من دون أن يتحقق أحيانًا من عميق تغيراتها، أو من قادمِها: كتبَ، في صحيفة فلسطينية، بعد تفجيرَي 11 أيلول-سبتمبر: "لا شيء يبرِّرُ الإرهاب". بل رأى أن الثقافة "الانتحارية" لا تعكس "ثقافةَ موت"، وإنما تعكس "إحباطًا من الاحتلال". إلا أن هذا الإحباط بات أوسع، يتخطى السياق الفلسطيني ليشمل قطاعات واسعة، عربية ومسلمة، ما لحقت بعضُ آثاره بمحمود درويش نفسه بعد وفاته.

كان درويش متفائلًا، إذ يقول في الصحيفة عينها: "علينا تفهّم سبب التراجيديا، لا تبريرها. ليس السبب أنهم يتطلعون إلى عذارى جميلات في الجنة، كما يصور المستشرقون ذلك. الفلسطينيون يعشقون الحياة إذا منحناهم أملًا – حلًّا سياسيًّا - فسوف يتوقفون عن قتل أنفسهم" (نقلًا عن "الغارديان" في ترجمة جريدة "الدستور"، م. س.).

لا، إن بعض "الانتحاريين"، حتى لا أقول غالبهم، لا يُشبهون هيئة المقاومين في شعر درويش، بمن فيهم بعض المقاومين الفلسطينيين. وقد شهد درويش بنفسه

.....indd 219 29/07/2019 12:13:10

بعض آثار هذا الارتداد "العنيف" على "الذات" (عربية أو إسلامية)، فكيف إن تعرضَ له البعض بالتهشيم! تعرَّضَ درويش لكثير من النقد و"التخوين" في حياته، لا سيما بعد تصدع منظمة التحرير (وهو ما نتلمس بعض آثاره في حواري معه في العام 1986، والمنشور في هذا الكتاب)، وهو ما بادلَهم إياه في حينه. إلا أن ما شهده درويش في السنوات السابقة على موته لا يشبه في أي حال الانقسام السابق، إذ بات الخلاف يتعدى السياسة ليشمل كل وجه من وجوه حياة الفلسطينيين، عدا أن قسمًا من "ولاءات" القوى (و"الشخصيات") السياسية الفلسطينية قد تبدل، وزاد في اصطفافاته خارج حدود "السلطة الوطنية" نفسها.

يكتب درويش إلى سميح القاسم في رسالة (في 21 - 11 - 1986): "من البدء ونحن نسافر في ما ليس سَفَرًا بقدر ما هو اقتلاع، وليس سَفَرًا بقدر ما هو ضياع، وليس سَفَرًا بقدر ما هو صراع". ثم يستكمل كلامه: "لكنني أعرف أنني لا أسافر. هي الريح تجري بي وأظن أنني أُحرِّكُها. هي الدوامة السريعة. لا أسافر كالناس، لأن المسافر هو العائد إلى مكان الخطوة الأولى. هو العائد إلى العتبة الأولى، أو الأخيرة التي خرج منها. هو العائد إلى

.indd 220 29/07/2019 12:13:10

عنوان شبه ثابت، ينتظرني فيه أحد أو رسالة، أو سجان، أو قبر. لأن المسافر هو العائد. أما المسافر من مكان ليس له إلى مكان ليس له، المسافر خارج مكانه، فليس أكثر من تائه، حتى لو رفعَ المعنى إلى مكانة البحث عن الفكرة، أو الأغنية، أو الحب الذي يحولُه مرضُ الروح إلى مرفأ... قابل للانكسار". هكذا يتذكر درويش كيف أنه سافر مرتين: مرة مع القاسم إلى صوفيا، إذ انتقلا من بلدهما ثم عادا إليه. أما السفرة الثانية فقد كانت، إبّان عمليته الجراحية الأولى للقلب، في فيينا، حيث "سافرت من الحياة إلى الموت"، ثم "عدتُ من الموت إلى الحياة".

هذه المرة توقف قلبه، من دون أن يستعيد النبض فيه، كما في عملية سابقة.

لم يُدفن في أرض الجليل كما تمنى، وكما طالب بذلك أصدقاؤه المقرَّبون في بيان بعد رحيله، إذ كانت مقبرته ستصبح "محجَّة" في قلب إسرائيل نفسها، ما سيفاقم مشاعر العداء لها من قبل فلسطينيي "النكبة".

في المقابل، طمعتْ إسرائيل في الاستفادة من صيته، بعد موته: منعتْ، في حياته، إدراج بعض نصوصه في مناهج التعليم، لكنها سعت، بعد وفاته، إلى تأسيس

.indd 221 29/07/2019 12:13:10

جائـزة أدبيـة إسرائيليـة تحمـل اسـمه ومخصصـة للتفـرغ الأدبـي. لكـن الاقـتراح ولـد ميتًـا، إذ رفضتـه عائلتـه.

يكتـب: "أجـد نفـسي هنـا. لـم أذهـب ولـن أرجـع، لـم أذهـب إلا مجـازًا. ولـم أعـدْ إلا مجـازًا" [49]. أتـى، ولـم يصـل. وجـاء مـن دون أن يعـود! ومـاذا عـن "بلوغـه" الشـعري؟ هـل "وصـل"؟

"هنـاك شيءٌ واضـحٌ بالنّسـبة إليّ، وهـو أنّـي لـن أبلـغ منطقـة الرّضـا. أنـا شـديد التّطلّـب وملـولٌ مـن المُنجـز. وأشـعر، صادقًـا، بأنّـي لـم أصـلْ إلى حـدود مـا يسـمّى الشّـعر الصّـافي. الشّـعر الصّـافي مسـتحيلٌ، لكـن علينـا أن نغـذّي أنفسـنا بوهـم وجـوده. الشّـعر الصّـافي متحـرّرٌ مـن تاريخيّتـه ومـن ضغـط الرّاهـن، أي أنـه يعانـد الزّمـن. لكنّنـا مـا زلنـا نقـرأ، بكامـل المتعـة، الكثيـر مـن الشّـعر العظيـم الّـذي كُتـب في لحظـةٍ زمنيّـةٍ عـن واقـعٍ معيّـن. التّاريـخ والواقـع ليسـا، عـلى مـا أظـنّ، عبئًـا عـلى صفـاء الشّـعر الّـذي يأتـي مـن طيـن الحيـاة، لا مـن أزهـار الفـلّ. الشّـعر

49) محمود درويش: "البيت والطريق"، في "حيرة العائد" (مقالات مختارة)، م. س.، ص 37.

.indd 222 29/07/2019 12:13:10

الجيّـد يعيـش خـارج شروطـه الزّمنيّـة"[50].

سـعى درويـش إلى أكـثر مـن ذلـك، إذ طلـب اسـتعادة إرث الشـعر العربـي، القديـم مـع المتنبـي، والحديـث مـع مجدديـه، عامـلاً عـلى اسـتيعابه والإضافـة إليـه. هـذا مـا جعلَـه، في عمارتـه الشـعرية الباسـقة، يبنـي "كلاسـيكية" القصيـدة العربيـة المقبلـة، منـذ اليـوم. يكتـب في "جداريـة":

لا أريد الرجوع إلى أحد

لا أريد الرجوع إلى بلد

بعد هذا الغياب الطويل

أريد الرجوع فقط

إلى لغتي في أقاصي الهديل (م. س.، ص 67).

كما يكتب أيضًا:

لا الرحلة ابتدأت، ولا الدرب انتهى (م. ن.، ص 16).

50) مقابلة مع حسين بن حمزة: "متقدمًا من الموت... بشعرية فتية: محمود درويش: لستُ الناطق الرسمي باسم الشعب الفلسطيني"، جريدة "الأخبار"، بيروت، العدد 214، 28 نيسان-إبريل 2007.

.indd 223 29/07/2019 12:13:10

بل أنهي معه، دومًا في "جدارية":

ولا يكفي الكتابُ لكي أقول:
وجدتُ نفسي حاضرًا ملءَ الغياب.

يكتب في الصفحة الأولى من نسختي، من كتاب "حصار لمدائح البحر"، الإهداء التالي: "إلى شربل داغر، إلى الصداقة التي لا تغيب. بحب. باريس، 4 - 5 - 1984: لا تغيب.

.indd 224 29/07/2019 12:13:10

الباب الثالث:

عندما ينهض من بين الكلمات

.indd 225 29/07/2019 12:13:10

إشارة

يجتمع، في هذا الباب الثالث والأخير من الكتاب، أربعة حوارات صحفية أجريتُها مع محمود درويش في باريس، بين العام 1979 والعام 1986: واحد منها كان لإعداد كتاب عنه بتكليف من دار نشر فرنسية، والحوارات الثلاثة الأخرى نُشرتْ في مجلتَي: "الوطن العربي" (1979) و"كل العرب" (1982 و1986)؛ أنشرها، هنا، من دون حذف أو تعديل أو إضافة. أما الحوار في "الوطن العربي" فقد جرى عند عملِ درويش فيها؛ والاثنان الآخران: واحد غداة وصوله إلى باريس إثر غزو إسرائيل للبنان، في خريف العام 1982، والثاني والأخير جرى أثناء إقامة درويش في باريس (1986).

.indd 227 29/07/2019 12:13:10

كتابي... المؤجَّل (1986)

أزور المكتبة لأشتري كتابًا، فأشتري غيره.

أزور مكتبتي بحثًا عن كتاب، فأجد غيره، بل أجد رسائل مودعة منذ سنوات تنتظرني...

مِما عثرتُ عليه مجموعةُ أوراق بخط يدي، تدون معلومات عن طفولة محمود درويش.

كنتُ أعدُّ هذه الأوراق لمشروع كتاب، طلبتْه مني إحدى دور النشر الفرنسية (Publisud) في الثمانينيات، بعد خروجه من بيروت، وإقامته في باريس.

الكتاب لم يبصر النور... ما بقي من المشروع، هذه الأوراق القليلة. أنشرُها أدناه كما وردتْ، أي مقطَّعة ومتناثرة. ذلك أنها أثر كتابي، لا يجوز العبث به، كما أظن:

.....indd 229 29/07/2019 12:13:10

-أنـتَ الآن في باريـس، وهـا نحـن نبـدأ حـوارات مـن جديـد. كان يمكـن لنـا ألا نلتقـي...

-أنـت الآن مـن جديـد، مـن دون بيـت عائـلي، مـن دون عنوان ثابت...

-مــن أنــت؟ مــن يعــرِّف بــك: هويتــك؟ جــواز ســفرك؟ عائلتــك؟ شِــعرك؟...

-أيضايقك الأمر أنك لا تعرف يوم ميلادك؟

-أين وُلدت؟

-ماذا يعني لك أنك ولدت فيها؟

-أتشعر أنك تنتسب إليها؟

-حين تشعر بالوحدة الكلية، هل تعود إليها؟

-صفْهـا لنـا. تذكرْهـا. مـن يشـهد عـلى وجودهـا السـابق غـير كلامـك؟

...

عنـاصر المشـهد الطفـولي: الـبروة، 1941: العلاقـة مـع العالـم عِـبر الجـد، التـي تتيـح حريـة نسـبية في الحركـة: طائـش، ثرثـار، واثـق مـن نفسـه، مغامـر... حيـاة هانئـة،

.indd 230 29/07/2019 12:13:10

ريفية... العالم يتكون من "الديوان"، بسهراته وأقاصيصه وشخصياته. محاولة الخروج الأول إلى العالم: عكا. العودة الصعبة. دائمًا خارج البيت. هذا الهوس بعدم الرجوع.

لبنان، دير الأسد، كفرياسيف... 1948: ينكسر المشهد الطفولي. من كانت حياته مستقرة، يتعلم الانتقال بين مدن لبنان وفلسطين وبعدها. ينكسر المشهد عنفيًّا (تدمير القرية، منع الإقامة فيها...): ضرورة المرجع الأولي. تدهورٌ في حالة العائلة معاشيًا. الهروب مجددًا (إلى الوعر والمغاور)، خاصة أن البيت ضيق. المخيلة. الرجل الفار الغامض. القصيدة الأولى. التورط بالشعر، بداية النضال. المشاركة بأول مهرجان.

1941: لا يعرف النهار في آذار-مارس. ولا الساعة، ولا النهار [51]. في (قرية) البروة. رقم 2 في العائلة. ثمانية في العائلة. (الوالد) مزارع يستطيع قراءة الجريدة. مع نشوء إسرائيل، فقدَ أرضه وبيته. صار يعمل في مقالع الحجر، وعاملًا زراعيًّا. ما كان عندي اهتمام بالعائلة، وبنسبها. يقال إن والد جدي مهاجر من الضفة الغربية. عائلة كبيرة: نصف القرية. انتماء عائلي قوي، تحت

51) ورد في نبذات عديدة أنه من مواليد 13 آذار-مارس من سنة 1941.

.indd 231 29/07/2019 12:13:10

العشيرة والقبيلة. أمي من الدامون، قرية مجاورة (شُقر، وعيون زرقاء: مشهورون بذلك).

قرى في سهل عكا، المشهورة بأن بونابرت انهزم أمام أسوارها، وبنى فيها سورًا: تل الفخار، وهو موجود حتى اليوم. خيَّمَ (بونابرت) سنتَين هناك. قريتنا من قضاء عكا، وهي مرجعنا. تقع على تلة صغيرة في وسط السهل. غربها امتداد السهل، وشمالها يبدأ بمرتفعات الجليل، وهي محاطة بسهول الحبوب، وبغابات واسعة من الزيتون، وتعتمد على الزراعة. قرية جميلة ونظيفة. يمتاز أهلها بالعصبية، بالعصاب والافتخار وبالانتماء إليها. مشاكل مع الجيران. روح فروسية، وإحساس بالتفوق. طباع جبلية، رغم أنهم يعيشون في السهل وفي مقدمة الجبل. ربما لأنهم في احتلال. مقاتلون أشدّاء. حرروها بعد أسبوع على احتلال إسرائيل لها في 1948: شربوا شاي الإسرائيليين ساخنًا...

أبادوا (الإسرائيليون) القرية إبادة كاملة. دمَّروها، وأخذوا الحجارة منها. أبقوا فيها كنيسة. تعايشُ طائفي نموذجي بين نصف القرية المسيحي والنصف الآخر المسلم. كان جدي يأخذني لزيارة الخوري عند الدكان.

.indd 232 29/07/2019 12:13:10

حـــي النصـــارى: أكـــوام "البـــزَّاق". شـــوارع مبلطـــة، وأكـــثر نظافـــة مـــن غـــيره.

جـــدي (لوالـــدي) هـــو الـــذي ربّانـــي. كان مـــلاكًا كبـــيرًا. أبـــي يديـــر الأراضي. جـــدي هـــو البيـــت، مـــن دون عاطفـــة... "الديـــوان" (قهـــوة) يســـتقبل الـــزوار دومًـــا. كان (جـــدي) يفـــرح لأننـــي أقـــرأ الجريـــدة، وأنـــا صغـــير. كان يأخذنـــي إلى عـــكا، ويشـــتري لي ملابـــسي.

جـــدي هـــو عائلتـــي. أمـــي بعـــض القســـوة. أبـــي بعـــض الإهمـــال. لا دلال مـــن أبـــي أو أمـــي. الحنـــان مـــن جـــدي. كنـــت أشـــعر بـــأن البيـــت كلـــه بيتـــي، لأن جـــدي يُوليـــني ســـلطاته. وأنـــا في السادســـة مـــن عمـــري، قـــرأتُ الجريـــدة. كنـــت منطلقًـــا، شـــقيًّا، مشـــاغبًا، ثرثـــارًا وفضوليًّـــا. دائمًـــا أتدخـــل في أحاديـــث الكبـــار، خاصـــة في "الديـــوان".

جـــدي وأمـــي غـــادرا إلى عـــكا (ذات يـــوم)، لحقـــت بهمـــا مشـــيًا. مشـــيت "دغـــري" (بشـــكل مســـتقيم) مـــن دون أن أشـــعر بالخـــوف. الضيـــاع ســـهل، لكـــن العـــودة أصعـــب. القريـــة تبحـــث عنـــي في آبـــار المدينـــة. كنـــت في الخامســـة مـــن عمـــري.

.....indd 233 29/07/2019 12:13:10

أول خـروج مـن البيـت. جـدي أطعمنـي حلـوى (بعـد العثـور عـليَّ)، وأمـي ضربتْنـي. في 1948، رحنـا إلى قريـة شـعب المجـاورة. حـرروا القريـة، عدنـا. ثـم احتلوها مجـددًا. في الليـل الطويـل، في مضـارب البـدو وجدنـا أنفسـنا قـرب الحـدود الفلسـطينية-اللبنانية. تسـللنا إلى لبنـان، وعشـنا في جزيـن حـوالي نصـف سـنة. في الشـتاء رحلنـا إلى الدامـور وبـيروت. كنـا أشـبه بسـياح: سـنعود، في انتظـار "جيـش الإنقـاذ".

بهجـة كبـيرة، سـلة كبـيرة، فواكـه وألـوان، و"الترامـواي" آلـة عجيبـة. في السادسـة دخلـت إلى المدرسـة. كلُّ الصفـوف مـع بعضهـا في الـبروة.

العـدو يعنـي: الوحـش، خـوف الطفـل. رأيـت قوافـل: مـن يحمـل كيسًـا، حقيبـة... منظـر مخيـف. الرحيـل الأول.

قضيـت سـنة. دائمًـا (أثـير) مشـكلة: أيـن أنـا؟ دائمًـا يجـيء الليـل، وأنـا لسـت في البيـت.

العودة إلى البيت: مشكلة قديمة.

كويـتُ رجـلي. أدخلـتُ سـكينَ فـرمِ التبـغ في ركبتِـي، في الرابعـة مـن عمـري. أضـعُ نفـسي فـوق الحصـان، وأتركُـه

.indd 234 29/07/2019 12:13:10

يأخذني. المغامرة، المخاطَرة، عدم الإحساس بالمخاطَرة، أي الثقة.

لو كنا عارفين أن الوطن غير موجود، لما كنا عُدنا ربما... لبقينا في لبنان ربما. في قرية دير الأسد (الجليل الأعلى)، قرية وعرة، عرفت البؤس الحقيقي. 5 و6 أفراد في بيت من طين: هنا كل شيء. تحول أبي إلى عامل حجارة.

مات جدي في الجديدة (1962 - 1963)، وهو ينظر من حدودها المجاورة إلى قرية البروة.

أذهب إلى الوعر للقراءة. شبه جوع. شعور بالقهر. شفقة مدمرة على أبي.

تسلية القرية: سيرة عنترة... تخطفني المقاطع الشعرية منها، فأحفظها. في دير الأسد، كان هناك رجل غامض فار من الجيش الإسرائيلي على أساس أنه مقاتل. كان يجلس على مكان مرتفع، وعينُه على الطريق العامة، خشية قدوم البوليس. في القرية مغاور عميقة. ناطور القرية، لَما يأتي البوليس، كان يُعلمنا. العتم كان الشرطة... كان الفار زجالًا، مغنيًّا. وكان يتكلم دومًا

.indd 235 29/07/2019 12:13:10

عـن شيء مفقـود، وغـير آمـن. في العـاشرة، قلَّـدتُ المعلقـات. كتبـتُ قصيـدة داليـة، أصـفُ فيهـا خروجنـا مـن فلسـطين، وعودتنـا إليهـا. بـين 10 و15 مـن عمـري حفظـتُ قصائـد من الشـعر المهجـري. قـرأت (طـه) حسـين والعقـاد ونيتشـه. المعلِّمـون سـاعدوني في القـراءة، وأصدقـاء أخـي. القـرآن لـم يسـتهوني أبـدًا في تلـك الفـترة.

نـشرتُ أول قصيـدة: "حـب يمـوت"، في مجلـة عربيـة أسـبوعية: "حقيقـة الأمـر" (في 14 أو 15 مـن عمـري).

في المدرسـة، لَمـا كانـوا يسـألونني، كنـت أجيبهـم: "شـاعر"، مـن دون أن أعرفـه. بالنسـبة إليَّ، كان (الشـاعر) الشـخص الـذي يقـول كلامًـا غريبًـا.

مـا فكرتُ أبـدًا بمسـتقبلي المهني. مـا دخلـتُ إلى الجامعة. (حصَّلـتُ) دراسـتي الثانويـة في كفـر ياسـيف، وهـي في الجليـل، وقريبـة مـن البروة: نضـال، مـن دون التـزام. تحـولَ طيـشي وطاقتـي ضـد دولـة إسرائيـل. كنـتُ أنـشر قصائـد، قصصًـا قصـيرة، مقـالات، بحيـث إننـي كنـت أدفـع (بعائـد) المكافـآت مرتبـات مدرسـتي. دُعيـت للمشـاركة في مهرجـان شـعري في قاعـة سـينما "البسـتان". البـوّاب رفـض إدخـالي، لأنـه (المهرجـان) مـش للصغـار، وأنـا بالشـورت. ألقيـت

.....indd 236 29/07/2019 12:13:10

قصيدة طويلة، عنوانها: "الشهيد"، واستُقبلت استقبالًا حماسيًّا. مجلة "الجديد" نشرتها كاملة...

وجدتُ، بين أوراقي أيضًا، صفحتَين بالفرنسية تخصان الكتاب الذي لم يبصر النور. تتحدث الورقتان عن: "مسارات مع محمود درويش". وأتكلم، فيهما، عن "حياة في جسد متنقل"، بين مدينة وأخرى، بين بلد وآخر، في توازٍ مع تنقلات شعبه...

أفيد، في الورقتين، أنه سيكون للكتاب مسار زمني (انتقالات درويش)، من دون أن يلتزم به تتابعيًّا، ما دام أن لدرويش مسارًا "داخليًّا" يتعين بين السياق والخطاب، بين التنقل والتبلور.

.....indd 237 29/07/2019 12:13:10

اشتقتُ إلى نفسي (1979)

جازمًا كالحزن الذي لا يخونه، وكالقصيدة في تمتماتها يتردد بين الأجوبة.

محمود درويش نستقبله... زميلًا في المؤسسة على طريقتنا: أيُّ صمت طويل جعل الصارخ في براري الخيانات العربية متلعثمًا!؟ أيّ عذابات عميقة أبعدتْه حتّى عن "شهوة" القول وعنفه!؟

بهذا الصمت المتمادي (طوال سنتين ونيّف) كان محمود درويش كمن يراجع ويدقّق ليقبض حساباته المقبلة، وكمن يهيئ مجابهة مماثلة لعنف حمولات هذا الصمت.

ماذا يقول حين تزاوج فلسطين الكتابة، والأنثى تشاطرهما الحضور والغياب؟ ماذا يقول حين يمتلئ

.....indd 239 29/07/2019 12:13:10

بالشعر وتختنق الكلمات؟ ماذا يقول محمود درويش الشاعر- الرمز لمحمود درويش الإنسان ذي الانشغالات اليومية "التافهة"؟ أيُّ اشتباك يجري بين الرمزي واليومي؟ هل يرتبك محمود حين "يشتاق إلى نفسه"؟ هل يتردّد بين التجوالات المستمرّة واللقاء الدائم... والمنتَظر بفلسطين؟

يستقرّ محمود درويش في باريس أو لندن... مؤقّتًا، كما يقول. هل ستطول إقامته كما جرى في "هجراته" الثلاث... "المؤقتة" في موسكو والقاهرة وبيروت؟ واثقٌ بفلسطين دومًا، لكنّه يتنقّل أبدًا. ففلسطين عنده ليست أسطورة أو طقسًا، إنّها الفعل التاريخي اليومي. إنها عذاباته فيها وبعيدًا عنها. إنّها سؤالاته الدائمة. يبتعد عنها (أو يهرب منها) ليلقاها: في كلّ مرّة يجرّب طريقة، ويختبر نوعًا جديدًا من... "حرب العصابات". إنّها الكتابة، والقصيدة المفتوحة التي لا تكتمل. ففي كلّ "هجرة" يبتكر جديدًا في الشعر، وذلك أنّ "التشابه للرمال" والشعر "للأزرق".

يقف في طليعة شعرائنا الحديثين، بعد أن ظلّ زمنًا مسوّرًا بإطار صورة "شاعر الأرض المحتلة"، وكانت

.....indd 240 29/07/2019 12:13:10

صفتــه النضاليــة تحجــب صوتــه الشــعري. منــذ هجرتــه الثانيــة خاصــة (إلى القاهــرة) راح محمــود درويــش يميّــز حضــوره: توفــقٌ إبداعــي في المــزج المركَّــب (دراميًّــا وغنائيًّــا) بــين الآنــي والتاريخــي، بــين اليومــي والأســطوري، بــين "الجــرح" الفلســطيني و"الجســد" الكونــي، في لغــة شــعرية صافيــة ونظيفــة، حــادة وغازيــة. إنّــه يشــتغل لغتــه، بحيــث تبــدو مصفّــاة مــن أيّ عوالــق أســلوبية متداولــة، ويبتكرهــا بحيــث تأتــي موقَّعــة ببصمــات المعــاش والمحســوس. لغــة يتــزاوج فيهــا المرئــي والتجريــدي، الصــوري والذهنــي، التركيــب البنائــي و"اللقطــة" الشــعرية.

بعيــدًا عــن "القصيــدة الأســطورية" (المميــزة لشــعر "الــرواد")، حيــث الحــاضر لا يحــضر شــعريًا إلاّ بقــراءة جديــدة للمــاضي، يفتتــح محمــود درويــش في الشــعر ويبنــي أســطورة المعــاصرة. فهــو، مــن دون "المســيح" أو "فينيــق" أو "تمــوز"، يســتحضر "سرحــان"؛ وهــو ليــس بطــلًا نموذجيًّــا (كمــا هــي الحــال مــع الرمــوز الأســطورية المســتعملة في الشــعر)، أو "إيجابيًّــا". إنّــه "بطــل" مأســاوي، ولا ينتــصر بالــضرورة.

.....indd 241 29/07/2019 12:13:10

• هجرة رابعة

ـ مـن فلسسـطين إلى: موسـكو، القاهـرة، بـيروت... والآن باريـس أو لنـدن. هـل هـي "الهجـرة الرابعـة"، لمـاذا؟

• لا أعـرف كيـف أصفهـا بدقّـة. فالمهاجـر في الهجـرة لا يهاجـر، أي لا يقتلـع. كنـت دائمًـا أقـول: مـن خـرج مـن مدينـة حيفـا لا تكـون لـه مدينـة أخـرى، أو يصبـح عصيًّـا عـلى الاسـتيطان. وحيفـا ليسـت مدينتـي بالـولادة، ولكنّنـي صغتُهـا عـلى هيئـة روحـي، فصـارت تفاصيـل خصوصيّتـي وجوهرهـا منهـا... إلى أيّ مـكان آخـر الهجـرة لا تنتهـي إلاّ بهـا.

في موسـكو، تعمّقـت في دراسـة النظريـة عـلى مقربـة مـن التطبيـق، فقـد كنـت طالـب فلسـفة. وفي القاهـرة، منـذ السـاعات الأولى، وأنـا أنظـر إلى السـلالم بـين الأحيـاء والنـاس، أدركـتُ أنّ شـهر حزيـران (يونيـو) مـا زال شـهرًا ثابتًـا في السـنة العربيـة. مـن هنـا تبـدأ

.indd 242 29/07/2019 12:13:10

الهزيمة، وليس من الحدود. في بيروت المتناقضة، سرعان ما وجدتُ نفسي منخرطًا في رثاء أصدقائي الذين أخذوا المدينة معهم. لا أستطيع أن أحتمل فكرة دفعي ثانية إلى الفراغ. ولا أستطيع، من ناحية ثانية، أن أتحمّل عبء انتصاري. لذلك ستبقى مساحة الالتحام ببيروت محافظة على مساحتها. مدينة غير قابلة للقاء، وغير قابلة للوداع. وليس مسموحًا لي، في لحظة سياسية محدّدة، أن أغادرها، وليس مسموحًا لي أن أسكنها. إنّها مدينة الإحراج والاستقرار المؤقّت.

ستأخذ هذه الحالة أشكالها المتعدّدة في كلّ مكان، إلى أن يتأسّس الوطن الفلسطيني المستقلّ. عندها أواجه الخيار الحقيقي في الهجرة أو الاستقرار. أمّا الآن، وقبل الآن، فإنّي أحوم حول الحلم، وحول الشعر، وحول المعرفة الجديدة. وباريس، أو لندن، ليست هجرة، إنها رحلة.

ـ أيّ هواجس وظروف تدفعك لاختيار هذه التنقّلات؟

• الفارق بين الهواجس والظروف هو الذي يعدّد الفوارق بين الهجرة والرحلة. الهجرة الأولى، وهي الحقيقية، حدّدتْها ظروف ما بعد هزيمة حزيران (يونيو)

.indd 243 29/07/2019 12:13:10

الشـهيرة، وتبلـور النشـاط الفلسـطيني المضـاد، كليًّـا وجذريًّـا، لصيغـة إصـلاح المجتمـع الصهيونـي، التـي تحكـم النشـاط الديمقراطـي داخـل الأرض المحتلـة.

إنّ مـا كان شعـرًا في الحالـة الفلسـطينية قـد صـار فعـلًا، وصـار هـذا الفعـل شـعر العـرب الخارجـين مـن دهشـة التعـرّف إلى ذواتهـم التـي انهـارت مقوّماتهـا في سـاعات. وفي عمليـة انهيـار الانسـجام القومـي القائـم عـلى أسـس اجتماعيـة نخـرة، كانـت الإشـارة الفلسـطينية الجديـدة هـي مـشروع المسـتقبل الشـامل.

لـم تكـن هجرتـي إلاّ اختيـارًا فرديًّـا في عمليـة المخاض التـي هـزّت القـارة العربيـة. وكان وطنـي الحـرفي، بالنسـبة لي، يتخـلّى عـن قيمتـه المحـدّدة لينصهـر في الميـلاد الكبـير، وكان هـو الـذي أعلـن إشـارة البـدء.

نذكـر الوعـد الكبـير والحـروب الأهليـة، وكيـف خرجـت الإقليميـات والطفيليـات والنزعـات الطائفيـة لـوأد هـذا الوعـد. مـا زال أبنـاء جيـلي شـهود مظاهـر الخيبـة وشـهداءها. وصحيـح، أنّ الـردة - لا أتيقّـن مـن دقّـة هـذا التعبـير - قـد فرضـت لغتهـا الجارفـة، فصـار مفهـوم التحريـر، مثـلًا، يثـير سـخرية الواقعيـين الذيـن

.indd 244 29/07/2019 12:13:11

استولوا على المسرح. ولكنّ البداية ما زالت تبدأ، وما زال الصراع مفتوحًا.

أعرف أنّ ما أقوله ليس هو الإجابة المباشرة عن سؤال شخصي، ولكنّني أرمي إلى تضييق الخناق على المسألة الفردية. والهاجس هو: أن أختبر مدى القدرة على تجديد النفس والتعبير، والتقاط الجوهري من ركام التفاصيل، ودخول المغامرة باستمرار.

-هل تحاول النسيان، الابتعاد، أم رؤية الدائرة الفلسطينية من آفاق أرحب؟

• أحاول إلغاء النسيان الذي تفرزه، ببطء واستمرار، تفاصيل إقامتي الطويلة في بيروت (سبع سنوات)، وأجدّد التحامي بالحلم، ورؤية الجوهر الفلسطيني من آفاق أرحب. لقد انخرطت كثيرًا في أعمال إدارية لأسباب طارئة وملحّة، ومن المفيد أن أعرف أنّ علاقتي بفلسطين وبالثورة الفلسطينية أعمق بكثير من علاقة الوظيفة. علاقتي الحقيقية الوحيدة هي علاقة الدم والحلم والحرية. إنّ الثورة الفلسطينية تواصلُ عملية تحريري وإطلاق طاقاتي. في مناخها أمارس حريتي، وأثمن ما أستطيع تقديمه لشعبي،

.indd 245 29/07/2019 12:13:11

وهـو الشـعر المعـبّر عـن روح شـعبي. كادت المؤسسـة تخنقنـي، فاشـتقت إلى نفـسي التـي تراكمـت عليهـا الملفـات. اشـتقت إلى نفـسي لأكتـب، وفلسـطين ليسـت هنـا، وليسـت هنـاك. وذات صبـاح، لـم أجـد فلسـطين في فلسـطين فخرجـت لأبحـث عنهـا.

• فلسطين ما زالت فينا

-أيـن تقـف فلسـطين الآن عنـدك، بعـد "جولاتهـا" الأوروبية المتعـدّدة و"السـيناريوهات" الأميركيـة، و"خيانـات" السـادات؟

• مـا زالـت فينـا، عـلى أرضهـا وفي خطـى مقاتليهـا، وفي تفـرّد الثـورة الفلسـطينية وقدرتهـا عـلى اسـتقطاب إرادة التغيـير في الأمـة. فلسـطين تتقـدّم، تنتـشر، وتفيـض لتصبـح قضيّـة هـذا العـصر. وحـين تفتـح أوروبـا آذانًـا للإصغـاء إلى الصـوت الفلسـطيني ورسـالة فلسـطين إلى العالـم، فـإنّ الدافـع الأسـاسي لذلـك هـو إدراك أوروبـا لمتانـة العلاقـة، السـلبية أو الإيجابيـة، بـين مصالحهـا ومصلحـة السـلام الفلسـطيني المؤثـرة في اتّجـاه ريـح

.indd 246 29/07/2019 12:13:11

الـشرق. لقـد يئسـت أوروبـا مـن جـدوى الالتحـاق بالدمـوع اليهوديـة التـي لا تُغْنـي عـن مصـادر الطاقـة.

إنّ الاعـتراف الأوروبـي بنـا، مهمـا كانـت دوافعـه، هـو نتـاج صراعنـا في منطقـة الـصراع. إنّـه ليـس عطـاء، بـل هـو قليـل مـن صـدى الـدم الـذي قدمـه المقاتلـون في الثـورة الفلسـطينية لتثبيـت الإشـارة الفلسـطينية في الأفـق العربـي، وللاقـتراب مـن فلسـطين في انتشـارها الجغـرافي والسـياسي والاجتماعـي فيهـا وفيمـا حولهـا.

لا يلغـي اعترافنـا بأهميـة الاعـتراف الأوروبـي بنـا إدراكنـا للثمـن السـياسي والمعنـوي الـذي نطالـب بدفعـه مقابـل إدراج مصلحتنـا الوطنيـة في معادلـة السـلام أو الحـرب. ولا يضلّلنـا الأمـل السريـع بإعـداد حقائبنـا للسـفر إلى الدولـة الفلسـطينية المسـتقلة التـي سـتعدُّها لنـا أوروبـا. فالدولـة الفلسـطينية لا يؤسّسـها إلاّ الـصراع القـادر عـلى تغيـير موازيـن القـوى التـي قلبتْهـا ظاهـرة السـادات رأسًـا عـلى عقـب.

يبـدو لي أنّ أخطـر مـا في ظاهـرة السـادات الحافلـة بالمخاطـر، هـو أنـه اقتنـص مـن الوضـع العربـي العـام نقطـة الضعـف وحوّلهـا إلى ظاهـرة رئيسـية، وإلى مـا

.indd 247 29/07/2019 12:13:11

يشبه قانون التحرّك الآني في المنطقة، فصار الصراع مع إسرائيل وأميركا يأخذ شكل السباق العربي- الإسرائيلي نحو أميركا، ونحو البرهنة على أيّ الطرفين أكثر جدوى في خدمة المشروع الأميركي في المنطقة. أي صارت أميركا هي المثال، وتحوّلت إسرائيل إلى مجرّد منافس. وسيحتاج النضال العربي إلى جهد كبير لخلخلة هذا المسار الذي يطبع النشاط العربي الراهن بطابعه العام.

-لماذا هذا الصمت المتمادي، يا درويش؟

• ها أنذا أتكلم...

ليس صمتًا. احتجاب، تأهّب، مراجعة. هو شكل من أشكال صياغة الهامش، ومحاورة الكتابة يقتضي حالة الاستغناء عنها. شيء ما حدث للغة؛ تشابهت، ترهلت. الانفجارات تملأ الشوارع وتكسر النافذة.

لقد أدمنّا امتحان الذات وتعذيبها. لماذا يكتب من يستطيع ألا يكتب؟ أو لماذا يكتب من لا يستطيع أن يكتب؟ وماذا بعد؟! لا تعود أنت أنت، ولكن كيف نشكو الكتابة بغير الكتابة؟ لا مفرّ! ماذا يعطي الصمت من المعاني غير معنى العجز الذي لا

.indd 248 29/07/2019 12:13:11

يعـترف بـه أحـد؟ هـا أنـذا أحـاول مـرّة أخـرى، سـأهدم السـفوح... سـفوحي كلّهـا. ودائمًـا أبـدأ كأنّـي أتعلّـم الأبجديـة الآن. أفتـح الـوردة لتمـر الريـح: شيء كهـذا الـشيء يقولـه شـاعر يونانـي، وتكـون الكتابـة أبسـط مـن الصمـت.

أن تكـون طازجًـا في كلّ مـرة، تلـك مسـألة صعبـة. وألاّ تكـون طازجًـا، فتلـك مسـألة نهائيـة. مـن أيـن تأتـي الوهلـة الأولى؟ مـن الغامـض. وحـين تـدرك أنّهـا شرط تفـرّ منـك وتـتركك تلهـث... اذهـبْ في الرحيـل، إذن! ولكـن كيـف تنـسى أنـك راحـل لتبحـث؟ حـين كنـت صامتًـا كنـت أحسـبني أعـبّر بشـكل أفضـل. وحـين التفـتّ الآن إلى صمتـي أراه نهايـة. سـأقفز... سـأقفز. لقـد اسـتولوا عـلى لغتـي كالجـراد، جميـل جـدًا أن تكـون مؤثـرًا، ولكـن ليـس جميـلًا أبـدًا أن تراهـم يتبرّجـون بأشـلائك، وهكـذا لا أسـتردّ قصيدتـي إلاّ إذا كتبـت. سـأكتب.

-علاقـة فريـدة تربـط بينـك وبـين فلسـطين، علاقـة مـن التـورّط الإبداعـي...

• أنـا أحـد أصـوات فلسـطين، وأنـا الفلسـطيني الـذي يرفـض ألقـاب فلسـطين، لا لأنّنـي لا أحـبّ الصفـات

.indd 249 29/07/2019 12:13:11

الرسـمية فحسـب، بـل لأنّنـي مشـبع بفلسـطين إلى درجـة تدفعنـي إلى اللعـب خارجهـا أحيانًـا، فأرانـي فيهـا مـن جديـد إلى درجـة الإغـراء بتمـرّد طفـل عـلى أمّـه. إنّـي أسـعى إلى الفطـام. وكثيـرًا مـا قلـتُ: أنا لسـت حجـرًا. شـعري مـليء بهـذا الإعـلان. فأنـا واثـق مـن علاقتـي بهـا إلى الحـدّ الـذي يبيـح لي أن أقـول لهـا مـا أشـاء، وأبتعـد عنهـا كمـا أشـاء. ذلـك هـو أحـد جوانـب تورّطـي الإبداعـي.

هـل هـو مـأزق الموضـوع الواحـد؟ هكـذا ينهـال عـليّ الذيـن لا فلسـطين لهـم - عـلى طريقتـي وصورتهـا - ويقلّـدون فلسـطين الوطنيـة، فلسـطين المسـألة. في هـذه المسـاحة الواسـعة أتـدلّى مـن غصـن الشـجرة إلى الأفـق، أواجـه كلّ المواضيـع وكلّ الوجـود وسـياق التكويـن.

• أنقذوني... أنقذوني

-لفـترة مضـت كنـتَ تصنـف شـعريًّا بوصفـك أبـرز شـعراء الأرض المحتلـة. ألـم تكـن صفـة "الرمـز" تطغـى عـلى صفتـك الشـعرية الخاصـة؟

.indd 250 29/07/2019 12:13:11

• عيّنوني رمزًا ولم أصدّق، فصرخت: أنقذوني! كنت شاعرًا مجتهدًا أحاول أن أحفر صوتًا على صخرة. وأكثر من ذلك خرجت لأهرب من دور الرمز، لكي لا أكون صنمًا. هكذا أنقذت نفسي وشعري. هكذا تطوّرت حين حقّقت الانفصال بين الشاعر والرمز.

-صرت راهنًا تصنّف بين طليعة شعرائنا الحديثين. هل الشاعر يتخطّى "الرمز" ليثبت حضوره الخاص؟

• بالنسبة لي، دائمًا يتخطّى الشاعرُ الرمز ليثبت حضوره الخاص. أمّا كيف تجرى العملية فتلك مسألة لا أعيها بغير الهاجس... الهاجس الذي يقول لي دائمًا: لم تبدع شيئًا.

-أي علاقة أو كيف يشتبك "الرمز" و"الشخص- الشاعر" عندك؟

• عندي لا يشتبكان، أو أحاول ألا يشتبكا، أو يشتبكان إلى درجة لا أراها. لأن الآخرين هم الذين ألفوا هذا الاشتباك. ولكنني من جهتي أصرّ على التمييز. أصرّ على التقدم شاعرًا، لكي لا أخدع، ولا أوهم، ولكي لا أتقدم إلى الناس باسم فلسطين. ولعل هذا الخوف

.indd 251 29/07/2019 12:13:11

مـن الاتّـكاء عـلى قداسـة عامـة خارجـة عـن الشـعر، في علاقـة القصيـدة بعنـاصر شـاعريتها، هـو الـذي طـور التـوازن بـين الشـاعر والمواطـن فيّ، وأعطانـي القـدرة عـلى خدمـة فلسـطين أكـثر وأفضـل.

-قـد تكـون أشـهر شـاعر عربـي حديـث في العالـم، وقـد لا تكـون في ذات الوقـت "أبـدع" شـاعر عربـي حديـث... هـل يضايقـك هـذا الافـتراض. لمـاذا؟

• يضايقنـي أن أتضايـق. شـهرتي عالميـة، كمـا تسـميها، مصدرهـا أننـي صـوتُ شـعبي. أي أننـي أكتـب في سـياق الحركـة والمُعـاش. مـاذا يكـون الإبـداع في الفـراغ؟ لا أعـرف. مـا زال النقـاد والشـعراء منقسـمين وسـيظلون منقسـمين: بعضهـم لا يعـترف بالشـعر خـارج الميتافيزيقـا، وخـارج "تسـمية الآلهـة"، وأنـا لسـت منهـم. وفي نظرهـم لا أهميـة لشـعري. أمـا أنـا فإنـي أرى أهميـة لشـعرهم عـلى الرغـم مـن ان عالمهـم ليـس عالمـي.

عـلى مسـتوى آخـر وأبسـط أقـول: ليـس هنالك شـعر وسـط. هـذا الشـعر المتوسـط رديء. وينقسـم الشـعر، في رأيـي، إلى قسـمين: ممتـاز أو منحـط. وأنـا أسـعى، مـع غـيري مـن الشـعراء، إلى كتابـة شـعر ممتـاز.

.indd 252 29/07/2019 12:13:11

• أنا نتاج أجمل أرض

-أي ارتبـاك يصيبـك في هـذه العلاقـة الفريـدة ربمـا في شـعرنا؟

• لسـت مرتبـكًا. كانـت تربكنـي شـهرة "الرمـز" السـابقة. بعـض الآخريـن هـو المرتبـك. إننـي أشـفق عـلى الذيـن لا قـراء لهـم إلا الملائكـة. وأشـفق عـلى خصومـي الكثيريـن الذيـن يكرهـون فلسـطين وسـائر العـرب لأنهـم يكرهـون شـعري. ويحييهـم الأمـل في أن اسـتقلال فلسـطين سـيكون نهايـة شـعري فيقعـون في ارتبـاك مميـت. لتتحـرر فلسـطين والأمـة العربيـة وليذهـب كل الشـعر العربـي الحديـث إلى الجحيـم، ولا أسـتطيع أن أعدهـم بـشيء غـير الصـبر.

-اللـون في شـعرك عنـصر بنائـي. إنـه ليـس صفـة لـشيء أو حالـة كمـا في معظـم شـعرنا العربـي ... مـا هـو "الرمـادي"، ولمـاذا اسـتقررت عليـه بعـد أن كان شـعرك ينضـح بالألـوان الزاهيـة والفرحـة الصارخـة أحيانًـا؟

.indd 253 29/07/2019 12:13:11

• لعـلّي، ككائـن بـشري، نتـاج أجمـل أرض عـلى اليابسـة. قـد لا يعـرف الكثـيرون عـن جمـال فلسـطين الكثـير. لقـد صبغتْهـا الكارثـة بالأحمـر في ذهـن النـاس، ولكـن ألـوان طبيعتهـا لا تنتهـي، وخاصـة عندمـا تنفجـر التربـة، فجـأة، بشـقائق النعمـان وملايـين مـن الأزهـار الأخـرى. البحـر فيهـا جـار الجبـل، والجبل جـار الـوادي، والوادي جـار البحـيرة، والبحـيرة جـارة الغـور والصحـراء، وفي سـاعات قليلـة تـرى موجـز الكـرة الأرضيـة.

مـن هنـا، بـدأ تشـكلي اللونـي، ثـم حولتـه العمليـة الشـعرية إلى عنـصر بنائـي أسـاسي، إلى درجـة بالغـتُ فيهـا حتـى صـارت الصفـة هـي أصـل الـشيء ومصـدره. لـم أسـتقر عـلى الرمـادي. وإن كان مرحلـةً طويلـة قـد تمتـد باختـلاط الألـوان والصفـات والخيـارات والسـبل. إنـه زمـن.

هـل قـرأت روايـة "موبـي ديـك" ورأيـت وحشـية البيـاض الـذي يرمـز في الانطبـاع الشـائع إلى الطهـارة؟ ليـس اللـون جاهـزًا أو محايـدًا بدلالتـه. إنـه يأخـذ مـن داخلـك ومـن علاقاتـك في تجربـة أو مشـهد مـا.

.....indd 254 29/07/2019 12:13:11

- أحد النقاد العرب يقول عنك "شعر محمود درويش يختصر الشعر العربي الحديث". ماذا تقول؟

• أقول ما يقول. فالشاعر المتميز لا يأتي من منطقة الصفر، ولا يستطيع أن يتميز إلا إذا لخص تاريخ أمته الشعري.

تاريخيًا، لم أكن من فصيلة "الرواد"، ولم أكن من جيلهم. لذلك يهملني نقاد المدارس لعدة أسباب، منها: أنهم لم يدرسوني في الجامعة على يد أحد الرواد الذي يكونهم على هيئته، ويتوقفون عن المعرفة بعد الجامعة. ومنها، أن بعض النقاد الباحثين عن جيل جديد في الشعر يبحث عن الأعمار فيبدأ من السبعينيات، فيضيعني ما بين الرواد وما بين هذه الفترة. ومنها، أن متطلبات تأليف ثقافة وطنية تقتضي إلغاء الغرباء. كلُّ ذلك لا يهم إلا لإبداء ملاحظة سريعة. لقد بدأتُ كتابة الشعر بعد تكوّن بدايات حركات الشعر الحديث فكانت هي نماذجي. لذلك ترى في شعري مراحل تطور الشعر العربي الحديث وانعطافاته ومستوياته. بهذا المعنى "ألخِّص" ما سبقني من تجارب الشعر الحديث، وأصوغ شخصيتي الشعرية المستقلة.

.indd 255 29/07/2019 12:13:11

• "شعر" ليست الحركة، بل مشروع حركة

-محاولات منظَّمة تعيد في المساجلات النقدية لمجلة "شعر" وحدها ريادة شعرنا الحديث... ماذا تقول، وأين تقف في هذه الأرض؟

• لم أطلع على مجلة "شعر" إلا بعد توقفها عن الصدور، وبعد هجرتي إلى العالم العربي في بدايات السبعينيات. هكذا ترى أنني، وعلى الرغم من كوني شاعرًا حديثًا، كنت في منأى عن رياح "شعر" مما يدل على أن ثمة شعرًا حديثًا نما في غير هذا المناخ.

كانت مجلة "شعر" مشروع حركة في الشعر العربي الحديث، وليس مشروع حركة الشعر العربي الحديث. وأرى أن من الضروري أن نتحفظ على سهولة استخدام مفهوم "حركة"، لأنه من العسير على الشكل الشعري الحديث أن يوحد التيارات الإيديولوجية المتنافرة، ففي الوقت الذي كانت مجلة "شعر" تروّج لمفهوم ما للشعر، كانت مجلة "الآداب" تروّج لمفهوم آخر. وكما أن المستوى الإيديولوجي

.indd 256 29/07/2019 12:13:11

والفكري لم يكن واحدًا في تلك الفترة، كذلك لم يكن الشعر الحديث حركة بالمعنى العلمي للكلمة. كان انفجار البدايات الثائرة على عمود الشعر العربي القديم يوحي بهذه الوحدة ولم يكن يؤسسها.

لعل هذه المناسبة صالحة لإبداء الاعتراض على اعتماد مجلة "شعر" أو غيرها مصدرًا وحيدًا لتاريخ الشعر العربي الحديث، إذ إن الإقرار بذلك يعني طرد كل من: عبد الوهاب البياتي، وأحمد عبد المعطي حجازي، وصلاح عبد الصبور، وسعدي يوسف، وغيرهم من الشعر العربي الحديث. فالمجلة منبر، وفي ظرفٍ ما تشكل تيارًا ما، وفي داخل التيار الواحد يتميز كل صوت شعري، لأن الغناء العظيم لا يكون إلا فردي التأليف، جماعي البعد. أما عشرات الأسماء الأخرى فتكون أفرادًا في جوقة، أو كوادر لخلق المناخ ـ إذا جاز التعبير.

-في آخر حديث صحفي لك قبل سنتين ونيّف. اتّهمتَ "شعراء الجنوب اللبناني" بالتأثر بشعرك وشعر أدونيس، وأثار رأيك حفيظتهم بعد سنتَين، وقد نشر معظمهم مجموعاته الأولى. ماذا تقول عنهم؟

.indd 257 29/07/2019 12:13:11

• لـم أتهـم أحـدًا، فـإن مـن لـه تاريخًـا يتأثـر. ومـع ذلـك، اتخـذوا مـن جريـدة "السـفير" قاعـدة وهجمـوا عـليّ كراجمـات الصواريـخ. أرجـو لهـم مزيـدًا مـن المجموعـات الشـعرية، ومزيـدًا مـن الافـتراق، وقـدرة التمـرد عـلى لقبهـم الجماعـي.

• لماذا هذا المأزق؟

-السـهرات الشـعرية في أوروبـا، وباريـس خاصـة، تختفـي. فيمـا لا زالـت أمسـياتك وغـيرك مـن الشـعرا العـرب تسـتدعي الآلاف... هـل شـعرنا مصـاب بحالـة مـن الصفـاء والصحـة جماهيريًـا؟

• جماهيريـة الشـعر مفهـوم معقّـد ومركّـب. هـل العـدد هـو المقيـاس؟ إذا عثرنـا عـلى مليـون قـارئ عربـي للشـعر، فـإن هـذه الإحصائيـة المنشـودة تعنـي أن الشـعر مـا زال للخاصـة.

ولكـن، لمـاذا نجـرّ الشـعر والشـاعر إلى هـذا المـأزق؟ أنـا لا أقيـس جـدوى الشـعر بالـرواج، ولا أقيسـها أيضًـا

.indd 258 29/07/2019 12:13:11

بالعزلــة. إنــي أقيســها بالتأثــير في الوجــدان العــام وفي المنــاخ الثقــافي في آنٍ واحــد. الشــعر الجماهــيري ليــس هــو الشــعر الــذي يحــرّض الغرائــز أو يجامــل الأميّــة، بــل هــو الــذي يطــوّر علاقــة الإنســان بنفســه وبالنــاس والأشــياء. هــو الــذي يغــيّر ويبرهــن عــلى قــدرة الإنســان عــلى إعــادة تشــكيل ذاتــه وتاريخــه. هــو الــذي يعــبّر عــن طاقــات النــاس، وليــس مــن الــضروري أن يعــبّر بلغتهــم.

.indd 259 29/07/2019 12:13:11

أصبحتُ قادرًا على القتل (1982)

كنت مرتبكًا في بداية الحوار، وخائفًا خوفَ من يراقب الحرب عن بعد من دون أن تأتيه شجاعة من يعايشونها. كنت مستعدًا (وقابلًا) لأن أراه ضعيفًا، مهزوزًا، بعد حصار خانق ومواجهة غير متعادلة طوال أربعة أشهر. كنت مستعدًا لأن ألقاه حيًّا... فقط. ألم ينجُ من بيروت (بعد أن احتلها جنود إسرائيل) في ظروف بوليسية "دراماتيكية"؟ كنت مرتبكًا لدرجة أفاقتني فيها ضحكته الكبيرة من شرود الخائفين. إنها ضحكته المجلجلة. إنه محمود درويش. كأنه ما تغير، ومنذ أن تعرفت إليه قبل عشر سنوات: عاشق الحياة. أليس نهمُه الفائق الدلالة على الإصرار الفلسطيني بالحياة، على الرغم من فصول التيه والتشرد المتكاثرة تاريخيًا؟

.....indd 261 29/07/2019 12:13:11

ثـوانٍ معـدودة كفتْـه، كفتنـي، لأن أخـرج مـن حزنـي وخـوفي. كان يـروي النـكات، كان يضحـك كمـن ينتقـم، كمـن يشـفى. لا، كان يضحـك، وكفـى، كمـن يعيـش حقًّـا، كمـن تليـق بـه الحيـاة.

دقائـق معـدودة، مـا لبـث بعدهـا محمـود درويـش أن اسـتوى واعتـدل في جرحـه العميـق، وإذا بصوتـه يتقطـع وجعًـا، وينتفـض صراخًـا: يشـعر بالغـبن وبالظلـم في حـرب غـير متكافئـة بقـدر مـا يشـعر بجسـارة الصمـود.

محمـود درويـش تغـير بعـد هـذا الحصـار: إنهـا "ولادتـه الثانيـة"، ومعموديـة النـار. حـرب لبنـان أجبرتْـه عـلى الاختـلاء بالنفـس مـدة طويلـة، في ظـروف قاسـية، بحيـث خـرج مـن التأمـل القـسري (قـسري، طالمـا أنـه منهمـك ومنشـغل دومًـا بالحيـاة)، أكـثر توحّـدًا وتعمقًـا مـع ذاتـه. محمـود درويـش، مـن دون وطـن ولا منفـى، يتخـذ مجلسًـا لـه في القصيـدة.

حينمـا غـادر بـيروت إلى دمشـق، ومنهـا إلى باريـس، حمل معـه دفـتر ملاحظاتـه اليوميـة، واضطـر في دمشـق لـشراء "ديـوان" المتنبـي مـرة جديـدة: رفيـق سـفره الدائـم. الشـعر: بطاقـة الهويـة، وأي هويـة لشـاعر "المهمـات الصعبـة" في الشـعر الفلسـطيني؟

.indd 262 29/07/2019 12:13:11

• لن نغفر لهم

-خرجت من بيروت وحدك، بعد خروج المقاتلين الفلسطينيين منها. لماذا لم تخرج معهم؟

• كنت أفضل البقاء في بيروت. لأن الاتفاق حول الخروج من بيروت كان يقتضي خروج المقاتلين والقادة. وأنا، كما تعلم، لست مقاتلًا، ولا قائدًا. أنا شاعر فقط. ولكن عندما وصل الجيش اليهودي إلى بيروت الغربية، واحتلَّ شوارعها، وحاصرَ كل البيوت، وجدتُهم بعيني في الطرقات، أمام منزلي، وكأنهم يطاردونني من حيفا إلى بيروت. كان عليّ أن أخرج، وأن أعلم بأن تأخري في بيروت كان خطأ، وأنني لست شاعرًا فقط.

-خرجتَ من بيروت بعد حصار طويل، كيف عشتَ أيام الحصار طوال أربعة أشهر؟ أي صور بقيتْ في الذاكرة؟

• بقي كل شيء في الذاكرة. الذاكرة مزدحمة بكل الأصوات والخراب والبطولات، إلى درجة أنها تفيض عن حجم

.....indd 263 29/07/2019 12:13:11

استيعابي لها. لقد كانت الأشهر الأربعة في بيروت أطول أيام في تاريخ حياتي. لا أعرف كيف أمدُّ يدي لأمسكَ بعض الصور. أخطر ما في هذه التجربة هو أنها دمرت أفكارًا. ويبدو لي أن القصف الإسرائيلي كان يهدف إلى قتل الناس وتدمير البيوت، وكان يهدف أيضًا إلى قصف الأفكار. لقد قُصفت أفكار كثيرة في مسيرة حياتنا العربية، وسنحتاج إلى وقت طويل لإجراء مراجعة عامة لمنظومة أفكارنا وتحديد الفكر الجديد الذي ينتجه الواقع الجديد، من دون أن نقع في الخضوع للهدف الإسرائيلي بتدمير أفكارنا. نحن مطالبون بالبحث والمراجعة من دون أن نفعل ذلك تحت قوة الضغط الإسرائيلي. لذلك نحتاج إلى مدة طويلة لترتيب الصور والأفكار والمشاعر. أما الشيء الباقي فهو أننا لن نغفر لهم.

-هل كتبتَ؟ ماذا كتبتَ؟ ماذا عنتْ لك الكتابة في هذا الحصار؟

• لم أكتب شيئًا مهمًّا طوال الحرب، مع يقيني بأن هذه التجربة ستقلب الكتابة، على الأقل كتابتي. كنت واثقًا بأنها ستتغير. وأنا أعتبر بأن كل ما كُتب

.indd 264 29/07/2019 12:13:11

قبل بيروت هو تقليدي. تجربة بيروت تستلزم كتابة جديدة، لأن ما جرى في بيروت هو أكثر من تجربة عادية في تاريخ شعب. هو أكثر من زلزال. إنه انقلاب كامل لكل المفاهيم والأفكار، وللتكوين البشري للناس. الكتابة أمام عبث الجنون كانت تعتبر نوعًا من الترف لأنها تحتاج إلى جنون مضاد. ولأن ما كنا نحتاج إليه هو الكتابة المادية والسلاح والتضامن الفعلي، ولم نكن بحاجة أبدًا إلى بعث الحماسة بين المقاتلين. فقد كنّا نتعلم، من المقاتلين، كيفية التعلق بالحياة الحرة والشرط الإنساني، وكيفية كتابة الجديد والحياة الجديدة. لذلك كنت أعتقد، ربما على خطأ، بعدم جدوى الكتابة.

فضلتُ كتابة صمتي خلال أيام طويلة. ولكن بسبب عجزي عن القيام بأي دور غير الكتابة في هذه الحرب عدت إلى الكتابة، لكتابة بعض المقالات الصحفية التي لا تعني أي قيمة إبداعية. لذلك أقول بأنني ما كتبت.

لقد كتبتُ صمتي بطريقة جديدة. أعدتُ التفكير بكل كياني الإنساني والسياسي والثقافي، وحتى

.indd 265 29/07/2019 12:13:11

البـشري. وشـعرت بـأن أي خدمـة عمليـة يقـوم بهـا أي مواطـن هـي أعظـم مـن أي إنجـاز أدبـي.

أي ثقافـة في الوقـت الـذي يتحـول فيـه اللحـم الفلسـطيني واللبنانـي إلى حقـل تجـارب لأحـدث منجـزات العلـم الإنسـاني!؟

أي ثقافـة طالمـا أن القيـم التـي صاغهـا الإنسـان، عـبر تاريخـه الدامـي الطويـل، معرضـة للـزوال أمـام عربـدة الذئـاب اليهوديـة التـي حملـت أحقـاد قـرون وصبَّتْهـا عـلى مدينـة، لا ذنـب لهـا إلا أنهـا سـمحت لنفسـها بالتفكـير في بنـاء مصـير إنسـاني آخـر، وحاولـت أن تفتتـح حيـاة مختلفـة عـن حيـاة التـشرد والقمـع!؟ ذنـبُ الفلسـطينيين هـو أنهـم أصروا عـلى الاحتفـاظ بحلـم مـا: حلـم بسـيط جـدًّا، هـو أن يعاملـوا كجميـع أنـواع البـشر التـي يزدحـم بهـا هـذا الكـون الواسـع. ولكـن العقليـة اليهوديـة الحاكمـة، لا في إسرائيـل وحسـب، بـل في العقـل السـياسي الـدولي المحتـل، تسـتكثر وتسـتعظم عـلى غيرهـا أن يعيـش عـلى هـذه الأرض... أرض البـشر.

فتحـت القصـف لا تسـتطيع أبـدًا أن تشـعر بقيمـة القلـم والورقـة والكتابـة. كانـت هنـاك ورقـة واحـدة

.indd 266 29/07/2019 12:13:11

مشـهرة في وجوهنـا هـي حكـم الإعدام. للأسـف الشـديد، الصمـت العربـي والـدولي يوحـي لنـا بـأن مـا يجـرى كان اسـتجابة لحالـة الانهيـار العـام العربيـة، والانهيـار العالمـي الخلقـي. لـم يكـن الصمـت أرحـم مـن القصـف الإسرائيـلي، وكنـا وحدَنـا كليًّـا. كنـت أشـعر بـأن كل إنسـان مقيـم في بـيروت لـه الحـق بـأن يشـعر بوحـدة الأنبيـاء أمـام الظـلام وعنـف الـشر. وصلنـا إلى درجـة لـم يكـن لنـا خيـار فيهـا إلا أن نتمسـك بحلمنـا وأن نـزداد عنـادًا. فالمـوت أصبـح مسـألة عاديـة ويوميـة، لا قيمـة لهـا. فضَّلنـا أن نمـوت أحـرارًا عـلى أن نقـول: نعـم لهـذا النـوع مـن الغـزو اليهـودي، ولهـذا النـوع مـن الجريمـة العربيـة والدوليـة.

• الدلع اليهودي

-مـاذا عنـت لـك المواجهـة مـرة ثانيـة مـع العـدو الإسرائيـلي، أنـت الـذي رفضـت البقـاء في الوطـن المحتـل، وأنـت المهـدد بالاعتقـال عـلى الأقـل؟

• عنـتْ لي شـيئًا واحـدًا، أن العلاقـة بيننـا وبـين الصهيونيـة

.indd 267 29/07/2019 12:13:11

ستبقى علاقة مواجهة، وأن البحث عن صيغ للتعايش وعن الاعترافات المتبادلة والدخول في الشرعية الدولية من باب إلغاء الذات، ما عادت تعني لي إلا العبث، إلا زرع الأوهام. فقد بتُّ مقتنعًا بأنه لا يمكن أن يكون هناك تعايش بين هذه العقلية وبين أي مواطن على وجه الكرة الأرضية.

لقد برهنَ يهود إسرائيل أنهم مصرون على بعث مفاهيم التلمود الظلامية، وهي أن العالم ينقسم إلى قسمين: اليهود وغير اليهود، وأن علاقة اليهود مع غيرهم هي علاقة عداء. لقد أصروا على إحياء أبشع ما في الصورة اليهودية، وهو عدم إمكانية تعايشهم مع غيرهم من الشعوب. فالفكر الصهيوني اليهودي مغلق إلى درجة قتل الآخر. أعتبر أن لا مستقبل لعلاقات إنسانية وعادية بين الصهيونية وأي شعب، عربي أو غير عربي. ففي خلفية الفكر الصهيوني تقوم فكرة أن كل الأمم والشعوب معادية لليهود ومتآمرة عليهم. حتى مجرد تقديم النصح لإسرائيل من أميركا وغيرها بات معتبرًا منها عدوانًا على السامية. "إذا مات غير اليهودي فهذا حسنٌ لليهودي": تلك هي تعاليمهم

.indd 268 29/07/2019 12:13:11

المقدسة. والبيت الإسرائيلي لا يطمئن إلا على دمار الآخرين. لقد تحكمتْ هذه العقلية بهم، وطبقوها على بيروت.

أنا خارج من هذه التجربة أكثر إصرارًا على أنه لا يمكن أن يكون هناك أي تعايش وأي حل بين الصهيونية وشعوبنا، وبين الصهيونية والوجدان العالمي.

-لا تتحدث، منذ بداية حوارنا، إلا عن اليهود، دونما تفريق بينهم وبين الإسرائيليين وبين الصهاينة. أهناك تغير في اللغة، في الموقف؟

• هو ليس تغيّرًا في فهم الصراع. كل الشعوب في العالم خاضعة لابتزاز إسرائيلي هو أنه علينا، نحن العرب وغيرنا أيضًا، أن نحذر من استعمال لفظة "يهودي" في الوقت الذي لا يتصرف فيه اليهود ولا يتأسسون ولا يتحكمون إلا على أساس "التفوق اليهودي" و"الحق اليهودي" و... الدلع اليهودي.

أنا لا أشتمهم حين أسميهم"اليهود"، مثلما لا أشعر بأي إهانة حين يسموننا "العرب". هذا لا يعني

.....indd 269 29/07/2019 12:13:11

أنني لا أميز بين يهود متعصبين ويهود مسالمين. أما العقلية اليهودية السائدة في المجتمع الإسرائيلي فهي تقدم أدلة يومية على إمكانية عودة الفكر الغربي إلى مرحلة العداء للسامية. السلوك الإسرائيلي هو الذي يقدم للوعي الغربي ذكريات كان من الأفضل أن تبقى منسية. هناك إلحاح إسرائيلي على الوجدان والوعي الغربيين للتمييز بين مصطلحات كان يفضِّل الغرب عدم ذكرها وعدم تذكّرها. بيغين هو الذي يذكّرنا بأسوأ ما في سلوك شعب ما من مزايا. هو الذي يعيد إلى الأذهان ملامح تراث فضَّلنا أن ننساه. وعلى الضمير اليهودي الحي أن يخوض معركة الدفاع ضد عدوه الحقيقي: إسرائيل.

-ماذا يعني لك الموت، أنت الذي عايشته في أكثر من لحظة، خلال أربعة أشهر؟

• كان إحساسي بأن الحياة، لا الموت، هي المصادفة. فالموت امتلكَ في حينها الحق بالكلام، برًّا وبحرًا وجوًّا. لم يقدم لنا العالم إلا الموت. فكان علينا أن نقبل بهذا المصير في سياق دفاعنا عن الحرية، لا في سياق البحث عن سلامة العبيد. كان علينا أن

.indd 270 29/07/2019 12:13:11

نمسك بالمعادلة: الحرية أو الموت. لم يكن أمامنا أي خيار آخر، والموت لم يكن نهاية أي شيء. كنا نثق بأن دمنا لا يمكن أن يذهب سدى. لا بد لهذا الدم أن يحرك شيئًا في هذا السكون، وأن يكون شاهدًا على عصر يموت...

كان المسيح، بصورته ومعناه، مهيمنًا على حياتنا: التضحية حتى الموت، الحلم حتى الموت، الإحساس بالوحدة حتى الموت. كان يحضر فينا أشياء غابت، ويبلور نوعًا من الصفاء: كأننا أول سكان جاؤوا على الأرض.

أكاد أقول إن الموت لم يكن قضية تثير الرعب أو الخوف، لأن التعايش معه، في كل ساعة، يسمح للأفكار الكبيرة بأن تأخذ مساحتها، التي كانت مفقودة. فلم يعد للإنسان ما يخسره إطلاقًا. في هذه اللحظات تصبح الكرامة والعناد جوهر الوجود عند أي كائن. أستطيع أن أقول لك بأن الناس، بعبقريتهم البسيطة، استطاعوا أن يعيدوا الوضع العادي إلى حياتهم، وأصبحت الحياة طبيعية وعادية. لقد تكيفوا، وتمَّ الاحتيال على كل ما ينقص الإنسان من

.indd 271 29/07/2019 12:13:11

وسـائل الحيـاة. أسـتطيع أن أسـجل، هنـا، أن عبقريـة شـعبية تولـدت خـلال هـذه الحـرب، بصلابـة وتماسـك وتعاطـف.

• أعادني إلى البيت الأول

-بمن كنت تفكر في تلك اللحظات القاسية والمرعبة؟

• كنـت أفكـر كثيـرًا بالبيـت الأول، بعائلتـي في الوطـن المحتـل، لأن المـوت بهـذه الكثافـة والصلافـة والإلحـاح، أعادنـي إلى بيتـي الأول وعـرَّى التاريـخ مـن تطـوره.

كلُّ شيء يعـود إلى أولـه. فكـرتُ كثيـرًا بأمـي وبأخوتي. وشـعرت بحنـين جـارف للقائهـم، في أحلامـي وطـول نهـاري وليـلي. لا أعـرف مـا هـي العلاقـة بـين خطـر المـوت والعـودة إلى الطفولـة. وكأن مـا يقدمـه لنـا المـوت مـن اقـتراح – لأنـه هـو نهايتنـا – قـد أكمـل الدائـرة، فعدنـا إلى الطفولـة. قـد نجـد في هذا تفسيـرًا مقنعًـا. الآن نتفلسـف ونحـاول أن نترجـم أحاسـيس غامضـة. عـدت إلى طفولتـي مـن جديـد، لأننـي ربمـا رأيـت في لاوعيـي

.indd 272 29/07/2019 12:13:11

نهايتـي. دورة الحيـاة اكتملـت فولـدت مـن جديـد. صرنـا نتعلـق بمكونـات السـعادة البشريـة، واكتشـفنا أن السـعادة تتكـون مـن عنـاصر في منتهـى البسـاطة: عندمـا نـرى رغيفًـا نفـرح، كأنـه إشـارة الحيـاة ورمزهـا. عندمـا كان يهـدأ القصـف سـاعة كنا نسـترخي في سـكون جميـل جـدًّا. ولكـن أيضًـا عندمـا كان يطـول الهـدوء كنـا نحـس بأننـا افتقدنـا شـيئًا. هـي العـادات التـي تكونـت فينـا، وكأن فينـا حنينًـا إلى إعـادة الصلـة بمـا انقطـع مـن سـياق. فالحـرب خلقـت بيننـا وبينهـا علاقـات يوميـة وحميمـة وخاصـة، بحيـث كانـت سـاعة الهـدوء تبـدو طويلـة، مملّـة، حـين كانـت تتوقـف الحـرب. سـاعة الهـدوء كانـت مزيجًـا مـن الفـرح بالسـلامة والشـوق إلى شيء آخـر... يصعـب ضبـط هـذه الأحاسـيس. فبعـض الدقائـق كانـت أطـول مـن الأيـام، وبعـض الأيـام كانـت أقـصر مـن الدقائـق. بـدأت كتابـة عمـل شـعري كبـير، ويبـدو أن الشـعر هـو أفضـل مـن الروايـة، أي الـسرد، للتعبـير عـن هـذه التجربـة. لأن الشـعر في أحـد أشـكاله هـو المزيـج مـن اكتنـاز غمـوض يتضـح عندمـا نتعامـل معـه. فالقصيـدة أحيانًـا تفسـير لـشيء لا نفهمـه، فـلا

.indd 273 29/07/2019 12:13:11

نفهمه إلا بعد التعبير عنه.

ولكن أخطر ما في هذه الحرب هو أننا تعودناها. فبات من الطبيعي أن تمر الطائرات فوق رؤوسنا. وإذا ما أتت القذيفة فلتأت، هذا قدر، نموت أو نحيا، ليست قضية كبيرة، المهم أن لا نستسلم أمام هذا الوحش.

حرب بيروت مخالفة لسائر قوانينها، وصمودها الأسطوري نادر بدوره لأنه لم يكن من حقنا أن نحيا مع حضور هذا الوحش. وهذا ما يفسر الصمود الأسطوري. لأن قوانين الحرب تقتضي شراء الحياة بالهزيمة، أما نحن فقد فضَّلنا شراء نصر الإرادة بالموت.

-ولكنكم اضطررتم إلى مغادرة بيروت. هل هي هزيمة أم نصر؟

• لا أستطيع القول بأننا انتصرنا، ولا أقبل القول بأننا انهزمنا. لا أعرف كيف تحدد الهزيمة؟ ولا أعرف على من انتصر الإسرائيليون؟ هم انتصروا على وضع عربي، فأعلنوا فضيحته.

.indd 274 29/07/2019 12:13:11

نحـن لـم نتقـدم مـن مـشروع الأمـل العربـي بوهـم أننا قـادرون وحدنـا في بـيروت، أو أن بـيروت وحدهـا قـادرة عـلى هزيمـة إحـدى أحـدث آلات الحـرب في هـذا العـصر. مـن هنـا لا أسـتطيع أن أقـول بأننـا هُزمنـا في إمكانياتنـا الذاتيـة. نحـن نجحنـا عـلى اليـأس العربـي، وقدمنـا نموذجًـا عـلى أن بوسـع شـعب صغـير، وبوسـع حفنـة مـن الأفـراد، أن يتصـدوا لأحـدث آلات الحـرب. خسرنـا مواقعنـا وأعـدادًا مـن أخوتنـا، لكننـا لـم نخـسر أنفسـنا، لـم نخـسر فكـرة الحريـة. أمـا الوضـع العربـي الرسـمي فقـد خـسر نفسـه، خـسر شرعيتـه. حتـى إسرائيـل خـسرت نفسـها. في نهايـة الأمـر يمكـن قيـاس الربـح والخسـارة ونحـن لسـنا جيشًـا ولا دولـة. نحـن جسـد وفكـرة.

ولكـن في محاكمـة مـبررات وجودنـا اسـتطعنا الإبقـاء عـلى حقنـا في أن لا نخـسر أنفسـنا، فيمـا خـسرت إسرائيـل كل شيء في أكـبر هزيمـة أخلاقيـة. ومـا ربحتـه هـو: أن تدمـر، أن تقتـل الآخريـن. إسرائيـل خـسرت شرعيتهـا، سـمعتها، وأعـادت إلى التاريـخ اليهـودي محاكمـةً كان مـن الـضروري أن لا تتـم. الخطـر الآن ليـس

.....indd 275 29/07/2019 12:13:11

على الصهيونية، بل على اليهود، على الأقل أخلاقيًّا. لأن ما قدَّمَه العالم من مبالغة في تأنيب الضمير تجاه المصير اليهودي قد انقلب الآن، ويتعرض الضمير اليهودي الآن – وأنا أعتقد بوجوده – إلى محاكمة لم يتعرض لها في تاريخه. ومستقبل التعايش اليهودي–العالمي يتعلق بما يتمكن الضمير اليهودي من نقد الذات ومحاكمة العصابة الحاكمة. وفي المقابل تكثف الحضور الفلسطيني، وحررت الصورة الفلسطينية حقيقتها من التزوير، وتجلت في كل بيت في العالم كما هي: صورة حرية وحق وعدل.

وفي جدل "فائض القوة" الذي تمثله إسرائيل، و"فائض الحق" الذي تمثله فلسطين، لا يستطيع العالم أن يهرب من الامتحان.

• بيروت، معبد المعاني

-قبل سنة كتبت "قصيدة بيروت" الشهيرة. ما هي بيروت الآن بالنسبة لك، ومرة ثانية؟

.....indd 276 29/07/2019 12:13:11

• بـيروت تحولـت مـن مدينـة عاديـة إلى معبـد للمعانـي. كلُّ شيء في بـيروت مقـدس الآن. بـيروت هـي مريـم المجدليـة الجديـدة. كلُّ تفاصيـل بـيروت ومعانيهـا السـابقة لهـا قداسـة لـم تتمتـع بهـا مدينـة مـن قبـل. وبـيروت أيضًـا تطهـرت ولـم تعـد عاصمـة. لأن مفهـوم العاصمـة، خاصة العواصـم العربيـة، قـد كان دومًـا سـلبيًّا. عواصمنـا تعنـي دومًـا الهزائـم. بـيروت اسـتثنت نفسـها وخرجـت مـن لقبهـا السـابق حـين كانـت تسـلّي الأثريـاء. بـيروت تفوقـت، حتـى عـلى دمهـا، ولـم يمـرّ فيهـا نبـي بشـكل سريـع، لأن جميـع أطفالهـا أنبيـاء، وكلُّ مـن دافـع عنهـا مقـدس. ولـن يسـتطيع أي تطـور لاحـق أن يزيـل أي معنـى مـن هـذه المعانـي التـي امتزجـت بأسـمنت بناياتهـا. لا أسـتطيع أن أسـتبق مشـاعري حـين سـأراها مـرة أخـرى – أتمنـى ذلـك عـلى أي حـال – أظـن أننـي سـأكون في حضرتهـا طفـلًا آخـر، وسـأمشي في شـوارعها بخجـل وبرهبـة. لأننـي كنـت شـاهدًا عـلى ولادة أجمـل مـدن التاريـخ البـشري مـن بـين الأنقـاض. أنقـاض بيروت ليسـت قبيحـة كمـا يتصـور البعـض. كنـت أشـعر بـأن بناياتهـا أذرع بشريـة. والذيـن لا يـرون مـن بـيروت إلا

.indd 277 29/07/2019 12:13:12

معنـى الخـراب فهـم لا يعرفونهـا أبـدًا، لأنهـا معنـى الإبـداع والخلـق. وهـي معنـى أن يشـهر الكائـن البـشري كل أسـلحته للاحتفـاظ بنفسـه، وبـأن لا يبيـع نفسـه للشـيطان. وهـل أنـسى حقـد العيـون في بـيروت والصمـت البليـغ لسـكانها أمـام الدبابـات الإسرائيليـة؟ هـذا الصمـت الـذي لـم يحمـل إلا الاحتقـار لهـذه الآلات التـي لـم تنتـصر إلا عـلى الظـلال، لا عـلى المقاتلـين المدافعـين عنهـا.

بـيروت لـم تفعـل مـا فعلتـه غيرهـا مـن المـدن أمـام الغـزاة. حتـى الحـد الأدنـى مـن التعامـل مـع الغـازي مـن أجـل توفـير سـلامة العيـش مـا قدَّمَـه أهـل بـيروت لجنـود الاحتـلال. لقـد كانـت المقاومـة سـلبية، نهائيـة ومطلقـة. كان الاحتقـار واضحًـا، حتـى في عيـون الأطفال. لأن أهـل بـيروت، الذيـن عرفـوا كيـف يكونـون جديريـن بهـذه المدينـة، وكيـف جعلـوا هـذه المدينـة جديـرة بدمهـم، لـم يعـودوا يخافـون أي شيء. فمـا رَمُـوا عليهـم الـرز أو "الملَبَّـس". بـيروت ظلـت أمينـة لمعانيهـا ولـدم مقاتليهـا ولمسـتقبلها أيضًـا. مـن هنـا فـإن إخضـاع بـيروت عمليـة مسـتحيلة، كذلـك فـإن لعنـة بـيروت، عـلى ظالميهـا، سـتكون أقـسى اللعنـات.

.indd 278 29/07/2019 12:13:12

مـن أيـن أتـى الخـوف الـذي منـع شـعوبنا مـن أن تتظاهـر؟ بـيروت سـتبقى دعـوة لتحريـر المواطـن بحيث يتخـذ دوره في عمليـة الدفـاع عـن الوطـن.

-قلـت في "قصيـدة بـيروت": "بـيروت خيمتنـا الأخـيرة، بـيروت نجمتنـا الأخـيرة". ولكـن الشـعب الفلسـطيني، بنواتـه المقاتلـة، معـرَّض الآن، ومـرة أخـرى، للتـوزع بـين الأقطـار العربيـة؟

• بكيـتُ كثيـرًا عندمـا ودعتُ الفـوج الأول من الفلسـطينيين الـذي غـادر إلى عـرض البحـر المتوسـط. أسـتطيع القـول إننـي فكـرت كثيـرًا في التراجيديـا الإغريقيـة وسـط بـكاء طـال، هـو ليـس بـكاء النهايـات، بـل بـكاء التأثـر العميـق تجـاه مصـير شـعبي. بـدا لي أن التراجيديـا الإغريقيـة، أمـام هـذا المصـير الفلسـطيني الجديـد، هـي عبـارة عـن روايـة بوليسـية كتبَهـا كاتـب أميركـي، لأن غضـب الإلـه اليونانـي عـلى البطـل كان ينتهـي عـادة بمصالحـة مـا بينهمـا، أو بتدخـل إلـه ثالـث.

إن رحلـة عوليـس مـن بحـر إيجه بـدت رحلة بسـيطة، ورحلـة ذات صلـة برحلـة الفلسـطيني الجديـدة. الشـعب الفلسـطيني يُعـرف منـذ التاريـخ القديـم بأنـه

.indd 279 29/07/2019 12:13:12

شعب بحري هاجر من كريت إلى فلسطين. طبعًا أنا لا أدَّعي الصلة بين ذلك الشعب والشعب الفلسطيني العربي الآن. ولكن الميثولوجيا تستطيب هذه الرموز وهذه العلاقات. ونحن أيضًا نتاج هذه الأرض بكل شعوبها وتراثاتها. يطيب لي أن أجد العِرق الإغريقي فيّ، على الأقل على المستوى الحضاري.

رأيتُ السفينة ذاتها التي حملت عوليس تحمل أحد أحفاده الجدد في القرن العشرين، وعادت من الشاطئ الشرقي للمتوسط إلى أصلها في كريت. هزَّتني الدلالة الجارحة لهذا التيه، الذي لم يجد له شاطئًا عربيًّا، فعاد إلى المرفأ الأول، من دون أن يتدخل أي إله في اللعنة التي قدَّمَها إله آخر ضد هذا البطل. الرحلة ملأى بالجراح وبالشعر أيضًا. ولا أعرف متى يرسو هذا التائه الفلسطيني؟ ولا أعرف إن كان جرحه سيلد بيروتًا أخرى، أو قدسًا أخرى؟ ولكنني أعرف أن هذه الرحلة هي من أعظم رحلات البحث البشري عن مصير حرّ، وعن مصير آخر. وبدت لي الإقامة على الأرض، أو في دولة، خالية من المعاني تجاه هذا الشموخ الأسطوري المتجدد. لقد

.indd 280 29/07/2019 12:13:12

تمكـن المقاتـل الفلسـطيني مـن أن يعيـد إلى الأسـطورة إمكانيـة تحديثهـا. نحـن نعيـش في عـصر لا أسـاطير فيـه، إلا هـذه الأسـطورة: التائـه مـن الشـاطئ الفينيقـي إلى الشـاطئ الإغريقـي يعيـد للـروح البشريـة حيويـة مفقـودة، ويعيـد للعلاقـة بـين الأرض والكائـن البـشري معنـى آخـر غـير المصادفـة والإرث. لذلـك فـإن مـا حصـل في بـيروت هـو تلمـس للإمسـاك بـروح شردت مـن البـشر. هـي عـودة الـروح إلى زمـن لا روح فيـه.

وللحيـاة الفلسـطينية الحافلـة بالبطـولات والظلـم متطلبـات أخـرى: المعيشـة العاديـة. إن مـا يجرحنـا هـو أن هـذا الشـعب السـاكن في حقائـب لا بـد لـه أن يرسـو في مـكان مـا. إن الناحيـة الجماليـة والروحيـة لا تكفـي، ولا بـد للمواطـن الفلسـطيني مـن هويـة. طبعًـا الهويـة الفلسـطينية باتـت أكـبر الآن مـن أن تحـدد بورقـة رسـمية. إنهـا هويـة الـدم العـالي، والصمـت العـالي الواقـف كالشـجر عـلى سـطوح كل منـازل العالـم. لكـن متطلبـات الحيـاة المعـاصرة لا تتحمـل هـذا الكـم مـن الشـعر في التيـه الفلسـطيني، فـلا بـد مـن وطـن مـا، مـن سـقف مـا، عمـلي، مـادي، محـدَّد، يقيـم فيـه

.indd 281 29/07/2019 12:13:12

الفلسطينيون. وهذا ما يجعل الحديث السياسي وسط هذه الأسطورة ضروريًّا، لأنه لا يمكن أن يُقاد شعب بأكمله من مذبحة إلى سفينة، إلى حقيبة، إلى مذبحة، إلى سفينة...!

إنني أرى التشرد اليهودي يتحقق مرة أخرى. لقد خرج الإسرائيليون كليًّا وربما إلى الأبد من الأسرة البشرية ومن القيم البشرية. وخرجوا من لغة دفعَ فيها البشر بحارًا من الدم لكي تتشكل وسيلة وقوانين للتعامل بين البشر. طرد الإسرائيليون أنفسهم من هذه اللغة، وأصبحوا طفيليات على جسد البشرية والحضارة. أي مفارقة غريبة بين تشرد الفلسطينيين الجدد، وبين خروج اليهود، الصميمي والحقيقي، من الوعي العالمي. عندما كان الفلسطينيون يحملون حقائبهم ويمضون في اتجاه البحر، كان الإسرائيليون يتجهون نحو الضياع، ويخرجون من الشرعية الدولية. وكان تأنيب الضمير العالمي السابق يأخذ شكلًا معاكسًا لأنه صار يتعلق بالمصير الفلسطيني. المفارقة تنمو وأرى أن أي كوخ وأي حقيبة يسكنها الفلسطيني هي أكثر متانة من

.....indd 282 29/07/2019 12:13:12

وزارة الدفاع الإسرائيلية. لأننا انتصرنا على مستوى الحق، على مستوى إنسانية الإنسانية، وهم انتصروا على عقدة واحدة: عقدة الانتقام من كل ما ليس يهوديًّا. لقد استطاعوا أن يجدوا لحمًا فلسطينيًّا يغرزون فيه أحقاد خمسة وعشرين قرنًا. ولكن هذا اللحم يمتلك مناعة ستجعل الإسرائيليين يدركون أنهم لم ينتصروا إلا على الوهم للدخول في وهم آخر. لقد ضيقوا "الغيتو" الإسرائيلي وطردوا أنفسهم حتى من عند من يرعاهم، وبرهنوا على أنهم غير جديرين بأي شيء، بأي إقامة آمنة على أي أرض.

• الصوت الفلسطيني النشاز

-الموقف العربي اتسم، في أقل تقدير، بالسلبية. كيف تفسّره، أنت الفلسطيني المهدد دومًا بالخيانات والتخلي، وأنت الذي قلت "كلما آخيت عاصمة رمتني بالحقيبة" ("أحمد الزعتر")؟

• أنا لستُ من الذين يتسرَّعون لإلصاق تهمة الخيانة بأحد. إلا أن أصعب سؤال سيواجهنا في مرحلة

.....indd 283 29/07/2019 12:13:12

تقييم ما جرى في بيروت: ماذا جرى للعرب؟ هناك خلل ما، هناك منظومة من الأفكار تتساقط، على علماء الاجتماع والأنثروبولوجيا والمفكرين أن يبذلوا جهودهم للبحث عن منطقة الخلل العربي في البيئة العربية.

إحساسي يقول لي بوجود خلل ما، من دون أن أستطيع تعريفه. ولا أعتقد أن هناك مسألة نظرية أكثر أهمية وإلحاحًا من محاولة البحث عن منطقة هذا الخلل. ولكن من الواضح أننا مدعوون، وبشكل ملح، لإعادة النظر بكل ما يحكم أفكارنا من نظام، لا لاستبداله بعكسه، بل لفهم طبيعة هذا الانهيار الشامل. ولا يمكن بالتالي أن نكون منهارين عسكريًّا من دون أن نكون منهارين ثقافيًّا. الانهيار شامل دومًا. إعادة النظر يجب أن تعالج مسائل: القومية العربية، فكرة التطبيق العربي البائس للاشتراكية ... هذه الأسئلة باتت ملحة إلى حدّ أن تكون شرطًا في أن نعيش أو لا نعيش، في أن نكون أو لا نكون...

أنا لا أستطيع شخصيًّا، ولا مئات من أمثالي، الوصول إلى الإجابة عن هذا السؤال الشاق جدًّا:

.indd 284 29/07/2019 12:13:12

مـا هـو الخلـل؟ مـن هنـا يبـدو أن خـروج المقاومـة الفلسـطينية مـن بـيروت، أو انتهـاء مرحلـة مـن مراحـل النضـال الفلسـطيني، والدخـول في مرحلـة جديـدة ولغة سياسـية جديـدة، كان أمـرًا محتومًـا. لأن مـشروع الثـورة الفلسـطينية كان صوتًـا نشـازًا في الجوقـة العربيـة الرسـمية، وكان اعتـداءً يوميًّـا عـلى مجمـل الوضـع العربـي الراكـد. هـذه تهمـة لا أسـتطيع إنكارهـا: نحـن فعـلًا خطـرٌ عـلى الأمـن العربـي الرسـمي العـام، خطـر عـلى الأمـن الاسـتهلاكي، لأنـه وضـعٌ اسـتبعدَ كليًّـا أفـكار الحريـة والاسـتقلال والتحريـر والديمقراطيـة والعـدل الاجتماعـي. إنـه وضـعُ مجتمعـات اسـتهلاكية لا تنتـج شـيئًا. هـل تعـرف أن العـرب لا يسـتطيعون أن يؤمّنـوا قوتهـم مـن أرضهـم، ويسـتوردون كل شيء مـن الخـارج؟ هـل تعـرف أن العـرب هـم مـن أغنـى أمـم العالـم حاليًّـا؟ وأن معدتهـم محتلـة تمامًـا كعقلهـم وأرضهـم؟

ـ ما هو سبب الكارثة؟ ما هو سبب الخلل؟

• أكاد أجن، ولا أعرف.

النظـام العربـي يبـدو لي متشـابهًا، والشـعارات المكتوبـة عـلى الحيطـان المختلفـة لـم تقـدم لنـا أدلـة

.indd 285 29/07/2019 12:13:12

عمليـة عـلى اختلافهـا المفـترَض. النظـام العربـي يبـدو لي واحـدًا، والحاكـم العربـي واحـدًا ومتكاثـرًا. انتقلنـا مـن فكـرة الوحـدة العربيـة إلى الأمـن الإقليمـي. انتقلنـا مـن الأمـن الإقليمـي إلى الأمـن الطائفـي، ومـن الطائفـي إلى العائـلي...

تدهورنـا يتدهـور! لا قـرار، ولا نهايـة لـه! يبـدو أن النظـام العربـي لـم يُسـتفز لمـا جـرى لنـا في بـيروت. لكنـه متـى يسـتفز؟

قلّمـا سـمعنا أثنـاء هـذا الحصـار مواقـف لكتّـاب وأدبـاء عـرب. مـا هـي حـال الأديـب العربـي في هـذا الوضـع؟

اتفقنـا عـلى أن الانهيـار يشـمل الثقافـة أيضًـا. لا يحـق لنـا أن نحاكِـم موقـف الأديـب العربـي مـن حـرب بهـذه الـضراوة. مـا كنـا نحتـاج خلالهـا إلى البيانـات والمواقـف، بـل إلى الطائـرات والصواريـخ. أنـا شـخصيًّا وأخلاقيًّـا لا ألـوم الأديـب العربـي. أنـا واثـق بـأن معظـم الأدبـاء العـرب كانـوا يتمزقـون، وكان القصـف الإسرائيـلي وقصـف الصمـت العالمـي يشـملهم. الأديـب العربـي عامـة، هـو جـزء مـن هـذا الشـعب المقهـور. أنـا كلّي ثقـة

.indd 286 29/07/2019 12:13:12

بـأن نفـس وروح الأديـب العربـي قـد تمزقـت كمـا تمزقـت أرواحنـا وأجسـادنا. وأنـا واثـق مـن أنهـم يطرحـون المسـألة ذاتهـا التـي تؤرقنـي، ومـن أنهـم سـيُعبِّرون لاحقًـا عـن هـذا الانهيـار في كتابـة جديـدة أتبـين صدورهـا عنهـم في وقـت قريـب.

لقد سـقط كل شيء، إلا حلمنا في أن نسـاهم في إسـقاط مـا يجـب إسـقاطه. والأديـب العربـي حـارس هـذا الحلم: علينـا أن نـرى عمليـة السـقوط، وعلينـا أن نميّـز بـين سـقوطهم وسـقوطنا.

حلمنـا بسـيط: قـول الحقيقـة، منـعُ هـذا الانهيـار مـن أن يشـمل الفكـر المضـاد والموقـف المضـاد. وأخطـر مـا نشـعر بـه هـو أن الفـروق تـزول بـين الغـزاة والطغـاة. لقـد تسـاوى الطغـاة والغـزاة في حفـر هـذا النفـق الأسـود. نحـن في النفـق الطويـل، ونـرى شـيئًا واحـدًا ومضيئًـا، هـو عنادنـا وإصرارنـا عـلى أن نسـتمر في الحلـم وفي حقنـا في أن نحلـم.

-كيـف تفـسر هـذه "الرزانـة"، هـذا "التعقـل"، هـذا "الاعتـدال" عربيًّـا بعـد هـذه الحـرب؟

.indd 287 29/07/2019 12:13:12

- الفكر السياسي العربي يفهم الواقعية على أنها قبول بالأمر الواقع، ولا يفهم الواقعية على أنها تعاملٌ مع الواقع من أجل تغييره. مسيرة هذا الفكر بدأت منذ 1967: إنه فكر ينظر للعجز العربي، القائم على مبدأ واحد، هو التعامل مع الشرعية الدولية تعاملًا خاملًا، أي أن يحل الآخرون مشاكلنا بالنيابة عنا. إن تعاملَ العرب مع الشرعية الدولية تعاملٌ مضحك. فهم لا يفهمون منها إلا الاعتراف بحق إسرائيل في الوجود، متناسين أن السلوك الإسرائيلي يتناقض أصلًا، وعلى طول الخط، مع الشرعية الدولية. هكذا تصير أفكار الثورة والتحرير وبناء حياة جديدة مناقضة للشرعية الدولية المرهونة دائمًا بـ"فيتو" أميركي. إن معركة العرب مكرسة، فعلًا، للحيلولة دون "الفيتو" الأميركي، ولخدمة شروطه.

فالعلاقة الأميركية–العربية، في هذا السياق، ليست علاقة عمالة، ولا صداقة بريئة، لأن ارتباط العرب بأميركا بات عضويًّا. أنا لا أستطيع أن أتهم الحكام العرب بأنهم يحبون إسرائيل، ولكن طبيعة علاقتهم العضوية بالسياسة الأميركية تجعلهم عاجزين عن

.indd 288 29/07/2019 12:13:12

بنـاء مقومـات الـصراع مـع إسرائيـل. في هـذه العلاقـة أصبـح الوضـع العربـي أكـثر هشاشـة لأنـه مهـدد بالخطـر في حـال تناقضـه مـع المصالـح الأميركيـة. لذلـك فـإن كل هـذا التعقـل هـو انصيـاع الفكـر السـياسي العربـي لمتطلبـات العلاقـة العضويـة بأمـيركا عـلى حسـاب أي شيء آخـر، مِمـا أطاح بالاسـتقلال السـياسي والاقتصـادي والثقـافي العربـي. ومـن المفيـد أن يندرج هـذا المـأزق في مجمـل مـآزق اسـتقلال العالـم الثالـث، وإن كان يتخـذ في الحالـة العربيـة شـكل العـار.

-كيـف تقـوِّم مثقفـين وسياسـيين إسرائيليـين انتقـدوا وعارضـوا سياسـة إسرائيـل في لبنـان، في الوقـت الـذي افتقدنـا فيـه قيـام أي تظاهـرة عربيـة؟

• أنـا لا أسـتطيع إلا أن أبتهـج للخلافـات في المجتمـع الإسرائيـلي، ولكننـي لا أسـتطيع أن أعلّـق أحلامًـا عربيـة عـلى هـذا الخـلاف. مـن جهـة أخـرى لا اسـتطيع إلا أن أقـارن، حتـى لـو كان مبـدأ المقارنـة ضدنـا. مـن حقنـا فعـلًا أن نتسـاءل عـن هـذه الطاعـة غـير المفهومـة للشـارع العربـي. نحـن ننعـت الوضـع العربـي بـكلّ التهـم السـوداء، ولكـن مـن حقّنـا أن نحاكـم أنفسـنا عـن

.indd 289 29/07/2019 12:13:12

مـدى التناقـض بـين الحاكـم وبنيـة الوضـع العربـي. أمّـا حـين نطـرح السـؤال عـلى مسـتوى سـلوك الجماهـير العربيـة، فالسـؤال يصبـح أكـثر حزنًـا وحـذرًا. مـن هنـا تتّخـذ مسـألة مراقبـة الوضـع العربـي شـكل الدمعـة، لأنّـه ليـس مـن حقّنـا أن ندين الضحيـة، بـل أن نفسّرهـا. فنسـأل: هـل بلـغ القمـع حـدًّا أصبـح فيـه الجمهـور المرشـح لأن يكـون قطيعًـا فعـلًا؟ إذا كان الأمـر كذلـك فـإنّ ذلـك يسـتدعي منّـا إعـادة النظـر بلغتنـا وبوسـائل تعبيرنـا: لأنّنـا نكـون في وادٍ، والأمّـة في وادٍ آخـر. أليـس مثيـرًا للعجـب أن يُذبـح أبطـال الأمّـة في بـيروت مـن دون أن يثـيرَ ذلـك تمـرّد الشـارع العربـي؟ هـذا أيضًـا ينـدرج في مهمّـة البحـث عـن الخلـل العضـوي الـذي يقتلنـا ولا نـراه، ولا نسـتطيع أن نضـع إصبعنـا عليـه حتـى الآن. كان مثيـرًا للحـزن العميـق والنشـيج الداخـلي أن نـرى الإسرائيليـين يتظاهـرون لاسـتنكار مـا يفعلـه جنـاحٌ منهـم ضدّنـا، وكان الإحسـاس الـذي تثـيره هـذه الظاهـرة هـو إحسـاس أنّـك وحيـد. وهـذا هـو أحـد أشـكال الانتصـار الإسرائيـلي، وهـو أنّهـم قـادرون عـلى القـول إنّهـم بالديمقراطيـة فيمـا بينهـم لـم يخـسروا، فيمـا

.indd 290 29/07/2019 12:13:12

نحـن خسرنـا الحـرب بـدون الديمقراطيـة التـي يعتبرهـا حاكمنـا فـوضى. حالتنـا نحـن العـرب صـارت مخزيـة إلى درجـة أنّنـا إذا تظاهرنـا ضـدّ الغـلاء نُتّهـم بأنّنـا نُضعـف المعركـة مـع إسرائيـل. كلّ مـا يُعـبّر عنـه المواطـن العربـي مـن غضـب عـلى متطلّبـات عاديـة، يُتّهـم بخدمـة أغـراض الصهيونيـة. خطـرُ هـذه الظاهـرة هـو أنّهـا تشـيع خرافـةَ تفـوقِ المجتمـع الإسرائيـلي عـلى المسـتوى الأخلاقـي والحضـاري. للأسـف الشـديد، هـذا الخطـر يتحقّـق، وهـذه الخرافـة تتأكّـد يومًـا تلـو يـوم في الذهنيـة العربيـة. انظـرْ إلى هـذه المفارقـة القاتلـة: المجتمـع الإسرائيـلي يذبحنـا والمجتمـع الإسرائيـلي يتظاهـر مـن أجلنـا. المجتمـع الإسرائيـلي ينتخـب بيغـين مـن أجلنـا. والمجتمـع الإسرائيـلي يسـقط بيغـين مـن أجلنـا. ونحـن، نحـن لا دور لنـا، لأنّنـا لا نعنينـا!

لا أريـد أبـدًا، وفي أيّ حـال، التخفيـف أو عـدم اعتبـار أهميـة التناقضـات الإسرائيليـة الداخليـة، ولكـن عـليّ أن أحـذّر العـرب مـن أنّ مـا يجـري مـن تظاهـرات إسرائيليـة لا تنطلـق لخدمـة الحـقّ الفلسـطيني أو العربـي، بـل لتصحيـح وتعديـل صـورة إسرائيـل المهمّشـة والموسـخة.

.indd 291 29/07/2019 12:13:12

وعـلى العـرب أن لا يبتهجـوا، فهـذه التظاهـرات، في أسـوأ التقديـرات، تقـوم بالنيابـة عـن التظاهـرات العربيـة.

إسرائيـل مدينـة في نشـوئها إلى المجـازر النازيـة، فعندمـا يتحـوّل حفيـد الضحيـة إلى ضابـط نـازي، فهـذا سـيزيل عـن إسرائيـل سـتار التعاطـف، وتتحـوّل الشـخصيّة اليهوديـة، التـي عاشـت فـترة طويلـة كضحيـة تسـتدر الشـفقة والعطـف والـدلال، إلى قاتـل.

إنّ المعارضـة الإسرائيليـة اسـتوعبت تمامًـا قـدر المخاطـر الـذي يصيـب شرعيـة إسرائيـل الدوليـة والخلقيـة حـين تتحـوّل صورتهـا مـن الضحيـة إلى القاتـل.

• بيغين ذئب تلمودي

-إلى أيـن تتّجـه إسرائيـل؟ بيغـين هـل هـو "هاملـت" المعـاصر أم الـذي مـضى "بعيـدًا في الجريمـة بحيـث بـات التقـدّم فيهـا أسـهل مـن التراجـع عنهـا" (حسـب شـخصية شكسـبيرية أخـرى)؟

• بيغـين ليـس هاملـت... إنّـه ذئـب تلمـودي جائـع للحـم الفلسـطيني منـذ قـرون. وهـو أيضًـا خطـر عـلى صـورة

.indd 292 29/07/2019 12:13:12

اليهـودي في العالـم، لأنّـه قـادر عـلى أن يعيـد اللاسـامية إلى الوعـي، لأنّـه يمثّـل أبشـع مـا في الصـورة التـي بذلـت أوروبـا جهـودًا للتحـرّر منهـا: الكـذّاب، المرابـي، الحاقـد، الابتــزازي. إنّــه قــادر عــلى أن يــؤذي اليهــود روحيًّــا وأخلاقيًّــا أكــثر ممّــا يؤذيهــم أيّ عــدوّ آخــر. بيغــين لا ينتمـي إلى عصرنـا، فعقليتـه ظلاميـة، تلموديـة، تدميريـة، وهــو حــين يغــرز أصابعــه في لحــم شــعبنا كأنّــه ينتقــم مـن كلّ الاضطهـاد الـذي تعـرّض لـه اليهـود في السـابق. إنّـه يجسّـد الأعـداء فينـا. قـد يأتـي يـوم ويُسـجل فيـه بيغـين أنّـه مـن أخطـر أعـداء اليهـود.

ولكــن، أعَــلى الفلســطينيين أن يُقتلــوا بــالآلاف لكــي يعــترف الغــرب بهــم كشــعب؟ أعليهــم أن يموتــوا كضحايـا سـلبيين، كمـا في مجـزرة صـبرا وشـاتيلا، لكـي يــرى الغــرب العدالــة في قضيّتهــم؟

لا ضمـير للغـرب، أو قـد نسـيَه مـن زمـان. فبمجـرّد أن يضـع الغـرب، في أولويـات علاقاتـه الدوليـة، الحـرص عــلى أمــن وســلامة إسرائيــل، وبمجــرّد أنّــه لا يتعاطــى مـع الفلسـطينيين إلاّ عـلى أسـاس اعترافهـم بإسرائيـل، وبمجـرّد أن يُعطـي إسرائيل أحـدث آلات الفتـك والتدمير،

.indd 293 29/07/2019 12:13:12

أثبتَ هذا الغرب أنّه من دون ضمير، لأنّ موقف الغرب المتفرّج إزاء كافّة تعديات إسرائيل للقوانين والأعراف الدولية والأخلاقية، لا يعني سوى أنّ الغرب يُجري تمارين حيّة لأسلحته على أجسادنا، بحيث يختبر فاعليتها.

ولكن عندما وصل الدم إلى وجه كلّ مشاهد تلفزيوني في الغرب، امتعض الغرب وتحرّك، وذلك أنّه يفضّل الضحايا المخفية.

أيّ مفارقة أقسى من هذه المفارقة: علينا أن نكون لكي يرونا. نحن لا نُرى إلاّ شهداء أو ضحايا، أي أنّهم لا يروننا كناسٍ لهم الحقّ في الحياة وفي عطلة يوم الأحد. نحن لا نُرى إلاّ جثثًا. هذه أكبر إدانة لما يُسمّى الضمير الغربي. علينا أن نموت لكي يسمعوا صوتنا.

-تحدّثنا كثيرًا عن الموت والدمار والانهيار، أين الحب، أين الحياة، أين المرأة. أين الوردة؟

• أنا قدّمتُ طلبَ انتساب للحياة في آخر قصيدة نشرتُها، وذلك قبل حرب بيروت، "سنة أخرى فقط".

.....indd 294 29/07/2019 12:13:12

فقط طالبتُ بالمرأة، بالوردة، بـ "خريفٍ ما في مكان بعيد". ولكن يبدو أنّ قدرنا هو أن لا تنشأ علاقة دائمة بيننا وبين إشارات الحياة.

بعد طلب الانتساب لم أرَ إلاّ الدم، ومزيدًا من الأصدقاء "خانوني" فماتوا. يبدو أنّه ليس من حقّنا أن نحقّق حياتنا، وأن لا نجد وردًا إلاّ في جراحنا. ويبدو أنّه ليس من حقّنا أن نحلم خارج قارتنا الوحيدة. أي الصليب الضخم. عليه يجب أن نجلس ونأكل وننام ونكتب ونسافر ونحبّ ونتزوّج وندافع في حروب شرسة عن أنفسنا في بلاد واحدة ووحيدة اسمها هذا الصليب.

هناك ورد في القلب، نحلٌ وفراش في الحلق، ونساء وذكريات... كلّ الحياة الجميلة موجودة في جسدنا الممزّق، المثبت على الصليب منذ ألفَي سنة. فوق هذا الصليب نتمتّع بحياة غنية، لا سؤال ميتافيزيقيّ فيها.

-أُجبرتَ خلال الحصار على أن تكون مع نفسك، ووحدك، وفي أكثر من لحظة. قد لا تكون توفّرت لك سابقًا، أنت المولع والمنهمك بالحياة، فرصة التأمّل هذه بشخصك

.....indd 295 29/07/2019 12:13:12

كما توفّرت لك أثناء الحصار، فماذا كانت حصيلة التأمّل؟

• صحيح أنّ هذه الفترة أتاحت لي فرصًا للتأمّل، على الرغم من مشاغبات القصف. دائمًا كنت أصحو على صوت عصافير الجيران في الصباح الباكر. في أحد الأيام، في 4 آب/أغسطس – وهو أطول يوم في التاريخ بالنسبة لي – بدأ القصف البحري منذ الثالثة فجرًا. بين الصاروخ والآخر كانت العصافير تتابع إنشادها، بحيث سميتها "العصافير الغبية"، وصرت أحتار بين الاستماع لصوت العصافير الغبية أو إلى القنابل البحرية. في السادسة فجرًا تدخّل الطيران في أطول غارة (ساعة متواصلة). بمجرّد تدخّل الطيران توقّف إنشاد العصافير وخرستْ تمامًا.

هذه الحادثة الواقعية تُغري المرء بأن يربط الغناء، الذي هو الشعر، بصوت الصواريخ، الذي هو صوت الحرب: ماذا يفعل الشاعر في الحرب؟ طبعًا هذا الإغراء سهل. لأنّني أعتقد أنّ الشاعر لا يغنّي بين قذيفتَين، بل قبل القذيفة وبعدها. وهو يغني بشكل جميل، لا كمثل ذلك العصفور الغبي. وأنت في

.indd 296 29/07/2019 12:13:12

الأزمة لا تفكّر في أنّها تجربة قابلة لأن تغني حياتك. أنا أعتقد أنّ هذه الحرب غيّرتني. غيّرتني بمعنى أنّها حرّرتني من أيّ مطالب حياتية، وإلى درجة أنّني لا أملك، ولا يحقّ لي أن أملك، إلاّ أن أقول ما أعتقد أنّه حقيقي، أي – وهذا هو تعريفي للشعر – كلّ ما تعتقد أنّه الحقيقة.

أنا سعيد بنجاتي مرّتَين: فقد كنت معرّضًا كغيري وفي كلّ لحظة لأيّ صاروخ مصوّب أو طائش، ونجوتُ ثانيةً بأنّني ما وقعتُ في الأسر. فأنا أفضّل الميتة على الأسر. فليست عندي أيّ شهية لمحاورة جنود إسرائيل وقضاتها.

ازددتُ قناعة – وهي قناعة نهائية – بأنّني يجب أن أعمل على شعري، وأنّه ليس لي وطن ولا منفى. لا وطن لنا ولا منفى. هذه أعجوبة أخرى في مسلسل عجائب الشعب الفلسطيني. الفلسطيني، منذ طرده من أرضه، محروم حتى من المنفى!

لا منفى، لا وطن. لكن هناك شيئًا لا يستطيع أحد حرماني منه، هو القصيدة.

.....indd 297 29/07/2019 12:13:12

راجعت حياتي على هذا الأساس، على أساس ملكيتي الوحيدة وصلتي الوحيدة بالمظاهر والمشاهد والفكر والتاريخ. لا أقول إنّ الشعر سلاح، وإنّه لافتة تشير إلى الحق والوردة. فقط أقول: وجدتُ الإجابة عن السؤال الصعب – وهذه ميزة تتوفّر لي -: ما هو مبرّر وجودي؟ بعدما راجعتُ حياتي، وجدتُ أنّ مبرّر حياتي الوحيد هو قصيدتي. من هنا "جوهرتُ" أسئلتي ووجودي البشري ومعنى إقامتي على أيّ أرض وفوق أيّ بحر.

أثناء الحرب كتبتُ ملاحظات يومية، ردودَ فعلٍ خام على ما يجري. الشعر لم يتحرّك فيّ بحركته العنيفة إلاّ حين بدأت عملية النزوح. أصابتني موجة بكاء، واكتشفتُ أنّ الدمعة مغطّاة بقشرة ناعمة جدًّا، إذا ثُقبت لا يتوقّف البكاء. وقتَها شعرتُ بكامل الخسارة. ولكنّني تساءلت: إلى أين سيتّجه شعبي؟ عند طرحي هذا السؤال عقصتني نحلة الكتابة في حلقي. وعندما تعقصك نحلة الكتابة في الحلق فما عليك سوى الإمساك بالورقة والقلم. الإحساس الكامل بالخسارة هو الذي أطلق الشعر.

.indd 298 29/07/2019 12:13:12

• نوح بعد الطوفان

-صوتك يصبح أكثر عمقًا، كأنّك نوح بعد الطوفان.

• لقد تغيّرتُ فعلًا. صارت ساعات لعبي بالحياة أقلّ، وكأنّه ليس من حقّي أن ألعب. من كثرة معاشرتي للموت اقتنعتُ بأنّني قابل للموت، بسهولة، فعلَيَّ إذن أن أكرّس طاقتي لقول شيء ما. الآن أنا زاهد بالحياة، لا أطلب منها شيئًا إلاّ أن أقدّم شهادتي على ما جرى لشعبي، على ما جرى من محاولة اغتيال للأحلام البسيطة للناس. أنا الآن أبحث عن طريق جديدة للانخراط مجدّدًا، وفي مهام قد لا تكون من اختصاصي.

أنا قادر الآن على القتل: قتل نفسي وقتل عدوي. أنا لم أحمل مسدّسًا في حياتي. كان بحوزتي أثناء الحرب مسدس-هدية. جهّزته وتدرّبت عليه لكي أطلق الرصاص في حال وصول العدوّ الإسرائيلي إلى منزلي، عليه... وعلى نفسي.

.....indd 299 29/07/2019 12:13:12

تغـيّرت فعـلًا، وباتّجـاه الانخـراط الأعمـق للبحـث عـن مصـير يخصّنـي، إلى درجـة التـلاشي فيـه. أنـا لا أريـد إلاّ أن أقـول شـهادتي. سـتكون شـهادتي جارحـة، وستشـكّل طلاقًـا بينـي وبـين الوضـع العربـي السـائد. لـن يتحمّلنـي أحـد بعـد الآن.

-مـاذا كانـت وسـيلة التسـلية، التلهـي في هـذا الحصـار الخانـق؟

• كانـت تنقصنـا مجموعـة مـن الهمـزات ليكـون وضعنـا أحسـن حـالًا في لحظـات الحصـار والوحدانيـة والوحدة. عرايـا أمـام المـوت الزاحـف. يحـقّ للمحـاصر أن يضحـك قليـلًا، وأن يجـد فسـحة للفكاهـة. كـم كنّـا نضحـك حـين كنّـا نراقـب خـوف بعضنـا البعـض! وكـم كنّـا نضحـك حـين نسـمع الإذاعـات العربيـة! وكـم كنّـا نضحـك حـين كنّـا نُنصـح بالانتحـار! وكـم كنّـا نضحـك حـين كنّـا نتلقّـى برقيـات التأييـد والأخبـار عـن الشـوارع الخاليـة مـن الغاضبـين! في هـذه العزلـة وجدنـا مسـألة الهمـزة. عدوّنـا هـو الهمـزة: لا مـاء، لا كهربـاء، لا غـذاء، لا دواء، لا نسـاء، لا أشـقاء، لا أصدقـاء، لا حلفـاء!

.indd 300 29/07/2019 12:13:12

-مـاذا سـتفعل في الأسـابيع المقبلـة؟ بمـاذا فكّـرت أول مـا نجـوت؟

• أعجبتنـي الكيفيـة التـي غـادر بهـا المقاتلـون الفلسـطينيون بـيروت. لـم يسـمح لأحـد بـأن يحمـل معه حتّـى حقيبتـه، للقـول – وهـذا قـرار مـوحٍ اتّخـذه يـاسر عرفـات – : نحـن نخـرج مـن بـيروت ولا نحمـل معنـا شـيئًا إلاّ مـا تبقّـى مـن دمنـا، ولسـنا كالآخريـن.

هـذه الطريقـة أثّـرت فيّ كثيـرًا. كان يحزننـي أمـر أنّني سـأتخلّى عـن لوحاتـي وكتبـي. خرجـت فقـط بدفـتر ملاحظاتـي اليوميـة. أوّل مـا فكـرت فيـه الاختفـاء عـن الأنظـار والأصدقـاء طـوال شـهر لكتابـة شـهادتي، ومـا زلـت مشـغولًا بهـذا العمـل.

بعـد ذلـك سـأفكّر بمصـير مجلّـة "الكرمـل" (التـي كان يديرهـا الشـاعر في بـيروت): أيـن سـتصدر؟ عنـدي رغبـة وإصرار عـلى الاسـتمرار في صدورهـا لأنّ مرحلـة مـا بعـد بـيروت ستشـهد تحـوّلًا عـلى المسـتوى الإبداعـي والفكـري العربـي. وأنـا أرشّـح "الكرمـل" للقيـام بـدور أسـاسي في هـذا التطـوّر. سـأكون مرتبطًـا بهـا، وليسـت مرتبطـة بـي. مسـألة ومـكان صدورهـا هـي التي سـتحدّد

.indd 301 29/07/2019 12:13:12

مـكان إقامتـي. سـأولي الجانـب الثقـافي والنقـدي منهـا خاصـة، أهميـة أساسـية. شـاغلي هـو النقـد، فبدونـه لا نسـتطيع القيـام بالمراجعـة الشـاملة.

-القصيـدة تصبـح عنوانـك الوحيـد، ولا تشـعر بـأيّ حـرج كمبـدع أمـام مقاتـلي شـعبك: أين صـارت "فلسـطينيتك" شـعريًّا؟

• سـابقًا كنـت أرفـض الإجابـة عـن مثـل هـذه الأسـئلة لأنّها كانـت تنطلـق مـن مواقـع اتّهاميـة. أمّـا الآن فأجيـب: لا عقـدَ لي مـع شـعبي مطلقًـا. أنـا لا أتباهـى على أحـد بأني فلسـطيني، ولا أقبـل أن يرتفـع شِـعري تبعًـا لجنسـيتي، وعـلى أكتـاف الشـهيد والبـؤس الفلسـطيني. أنـا أخوض التحـدي الإبداعـي متحـرّرًا مـن جنسـيتي، وأرفـض أن يحـوّل بعـض الشـعراء الفلسـطينيين جثـثَ قتلانـا إلى منـبر للخطابـة. لأنّ كثيـرًا من الأدب الفلسـطيني لا قيمة لـه، وهـو مفـروض عـلى النـاس بسـبب كونـه فلسـطينيًّا. عنـدي ميـلٌ أو إحسـاسٌ لأن أكـون أكـثر "فلسـطينية"، مـن دون أن أعـرف شـكل هـذا "الأكـثر".

أنـا كـبرت عـن التواضـع وعن الغـرور أيضًـا. أنـا تغيّرت شـعريًّا، ومنـذ زمـان، لأنّنـي لا أخـشى سـوى التفاهـم

.indd 302 29/07/2019 12:13:12

بينـي وبـين مواطنـي الفلسـطيني في شرط متطلّباتهـم الحاليـة. مثـلًا: يتوقّـع الفلسـطينيون منّـي كتابـة قصائـد حماسـية، وأنـا لـو كانـت عنـدي عقـدة نقـص أو إحسـاس بالذنـب أو إحسـاس بهامشـية واسـعة، لكنـتُ اسـتجبتُ لهـذه المتطلبـات المتوقعـة. ولكـن أنـا منخـرط بقضيـة شـعبي بطريقـة تجعلنـي أحيانًـا أخيِّـبُ ظنّـه في طريقـة ردّة فعـلي عـلى همّـه. أنـا صامـت شـعريًّا منـذ شـهور عديـدة مـن دون أن أخـاف العتـاب مـن شـعبي. لأنّ ثقتـي بشـعبي وثقـة شـعبي بـي كبـيرة. وأنـا أعـرف أنّ الفلسـطيني يفـرح لشـاعره محمـود درويـش حـين يكتـب قصيـدة تتحـاور مـع أعـلى مسـتويات الإبـداع في العالـم مـن دون أن يفهمهـا خمسـون في المئـة مـن سـكان المخيمـات، فهـو يفهـم أنّ لقضيتـه مثـل هـذا البعـد. ويعـرف أنّ بـين الشـعراء الفلسـطينيين كثيريـن ممّـن يعـبّرون عمّـا كان يريدنـي التعبـير عنـه.

أنـا رجـل المهمّـات الصعبـة في الشـعر الفلسـطيني. أنـا تجـاوزت امتحـان الوفـاء، وامتحـانَ تقديـم الخدمـات الوطنيـة للشـعر، وفي الشـعر.

.indd 303 29/07/2019 12:13:12

• ياسر عرفات: مقيمٌ في أحلامنا

-تعيش عن قرب مع ياسر عرفات، ومنذ سنوات. كيف عايشته؟ لو تصفه لنا في شهور الحصار.

• أن ترسم صورة لياسر عرفات، معناه أن تكون جيدًا بكل العلوم. هو الرجل العصيُّ على الوصف، لأنه يستطيع – إذا احتاج – أن يفرك أذنَ الغموض، ثم يشهر وضوح الحقائق دفعة واحدة.

غزالٌ فلسطيني وسط وحوش الغابة. يعرف متى وكيف يكون فولاذًا، ومتى يتحول إلى ندى. لذلك قاد أصعب ثورة في الزمن الوغد، واحتل المرايا بجدارةِ القادرِ على توظيف صراخ الطفل في حوار العمالقة. يكره الجمود الفكري وساعات الفراغ. يمرض إذا استراح ساعة، ويزدهر في الأزمات. ديناميكي إلى درجة استفزاز الآخرين. إنساني ومتواضع إلى حدّ الإحراج. خادم الأطفال، سيد البراكين. مؤمنٌ حتى العبادة بخصوبة الدم. لا شيء يذهب سدى. لا شيء يضيع. راسخٌ في المبادئ، وساقية في المناورة. يستطيع أن يأخذ الملاك بيده اليمنى، والشيطان بيده اليسرى،

.indd 304 29/07/2019 12:13:12

مـن أجـل صياغـة جملـة. يمـشي بـين قطـرات النـدى دون أن يبتـل. ويسـير في حقـول الألغـام دون أن يفقـد المسـار.

ونحـن ـ الفلسـطينيين ـ نبايعـه أولًا، ثـم نختلـف معـه. نحـن جنـوده في المعـارك، وأنـداده في إبـداء الـرأي. هـو قائدنـا ورمـز تاريخنـا الحديـث. نثـق بمـا يمتلـك مـن حـواس سياسـية سريعـة الالتقـاط، وبموهبتـه في أن يسـبق. ولا نخـاف عليـه إلا مـن الغـدر... ومـن الطائـرات الإسرائيليـة.

في الحـرب لـم نكـن نخـشى عـلى حياتنـا بقـدر مـا كنـا نخـشى عليـه. لقـد تحـوَّلَ قائدُنـا، في قلوبنـا، إلى طفـل يحتـاج إلى الحمايـة والحنـان. كنـا نخبئـه عميقًـا، هنـاك في القلـب. وكان يقفـز كالـدوريِّ إلى مواقـع الخطـر، وتفقـدِ الجرحـى، والإشرافِ عـلى رفـع الأنقـاض. كنا نفكر كثيـرًا في مشـكلة نومـه: هـل نـام القائـد؟ هـل وجـد مكانًـا ينـام فيـه؟ كان ينـام أحيانًـا في سـيارة عـلى الرصيـف، لأن ضمـيره لا يتحمـل مزيـدًا مـن الخـراب.

كانـت الطائـرات الإسرائيليـة مشـغولة في البحـث عـن خطوتـه. صـارت خطوتـه موقعًـا عسـكريًّا، خندقًـا، لغمًـا

.indd 305 29/07/2019 12:13:12

يهـدد مسـتقبل إسرائيـل، حتـى صـار حـذاء عرفـات كابـوس إسرائيـل ومداهـا الحيـوي، وحوَّلَهـا إلى سـيدة القتلـة في تاريـخ البـشر. إذ لـم يحـدث مـن قبـل أن دُمـرت المبانـي السـكنية الضخمـة عـلى مئـات المدنيـين بحجـة أن خطـوة عرفـات قـد مـرت مـن هنـاك.

وكان يقفـز في قطـار المـوت في كل يـوم، ويبتسـم. فـلا تكـون ابتسـامته سـلوى بقـدر مـا تكـون أمـلًا وإلحاحًـا عـلى الصمـود. خُذْنـا إلى أي مـكان، أيهـا القائـد! خُذْنـا إلى الـوردة، أيهـا الطفـل، فنحـن معـك! وكنـا نتسـاءل سـاخرِين: كيـف سـتحلُّ دولـة القتلـة مشـكلتها المسـتحيلة مـع خطـى عرفـات، خاصـة أن هـذه الخطـى قـد مـرَّت عـلى شـوارع عـشرات المـدن في العالـم، وخاصـة أن عرفـات سريـعُ الحركـة وكثـيرُ التنقـل؟ وكنـا نقـول: هـي الحـرب المسـتحيلة. هـي الحـرب الغريبـة. لأن يـاسر عرفـات لا يسـكن هنـاك، ولا ينـام هنـاك. إنـه مقيـمٌ في أحلامنـا. وهـو يعمـل ويتحـرك، مطمئنًـا، آمنًـا، في قلـوب ملايـين البـشر المقيمـين عـلى سـطح الكـرة الأرضيـة. ولـن تكـون إصابـة الطائـرات الإسرائيليـة مبـاشرة، إلا إذا تمكنـت "العبقريـة" الإسرائيليـة مـن إبـادة قلـوب البـشر، كل البـشر، في هـذا الكـون.

.indd 306 29/07/2019 12:13:12

وعندمـا كان عرفـات يـودع بـيروت، كانـت بـيروت تصحـو عـلى الصدمـة، وترتطـم بصخـرة الرحيـل القاسـية. كانـت بـيروت تعـضُّ عـلى قلبهـا، وتبكـي. وكانـت دمعـة بـيروت هـي الأرض الوحيـدة في هـذا الوطـن العربـي الكبـير، وكان الرصـاص حزينًـا. كان الرصـاص يبكـي بـكاءَ اليتيـم. ولـم يكـن خـروج عرفـات مـن بـيروت خـروجَ آدم مـن الجنـة، بل كان دخـولَ الفـارس إلى القلوب المفتوحـة في كل مـكان. كان عرفـات يمـدُّ كفَّـه الصغـيرة، في هـدوء موجـع، إلى السـتارة وينزلهـا عـلى نهايـة المسرحيـة الهزليـة التـي اسـتوجبت الاسـتنجاد بجيـوش أجنبيـة لحمايـة أهالينـا.

ولكـن بـيروت كانـت تبكـي أرزًا وَوَردًا وحشرجـة. إلى أين تذهـب؟ وكان أبـو عمـار يـدقُّ خطوتـه، ويعطـي لأسـاطير الإغريـق هويـة فلسـطينية. وكان الوحيـد، الوحيـد، الوحيـد الـذي ينتـصر في معركـة المعانـي والرجولـة والـشرف. وكان يُمـلي شروطـه عـلى البحـر والمسـتقبل.

.indd 307 29/07/2019 12:13:12

أكتب لأنّني سأموت (1986)

مكاشـفة جارحـة، أي جريئـة وصادقـة، مـع نفسـه قبـل غـيره، مـع قيـادة منظمـة التحريـر الفلسـطينية قبـل المنشـقين عنهـا، فـتراه في هـذا الحـوار الشـامل يعـترف بأمـور مفاجئـة: شـاعريته تتجـلّى في نـثره أكـثر منهـا في شـعره، ويحلـم بكتابـة روايـة موسـوعية، لكنّـه محافـظ وجبـان، ويقـدّس سـاعات العمـل الأدبـي اليوميـة تقديسًـا كامـلًا... اعترافـات وآراء فيهـا مـن النقـد الجـريء والصريـح ومـن التأمـل الهـادئ والناضـج في باريـس المنفـى.

- ورد في إحـدى رسـائلك الأخـيرة إلى صديقـك الشـاعر سـميح القاسـم أنّـك تريـد العـودة إلى الوطـن: هـل تريـد العـودة حقًّـا، أم هـي عـودة وجدانيـة وحسـب؟

• دائمًـا أريـد العـودة. حتـى في لحظـة خروجـي، كنـت

.....indd 309 29/07/2019 12:13:12

أظـنّ أنّنــي ســائر في طريــق العــودة. ولكــن مــا عــبّرتُ عنــه، في إحــدى رســائلي، كان انعكاسًــا لحنــين إنســاني وشــخصي جــارف، قــد يكــون مصــدره الإحســاس بالزمــن، أو مــا يشــبه دورة الفــراغ في أوروبــا، أو العــودة في الكتابــة. أنــا أطالــب دائمًــا بحقّــي الشــخصي وبحــقّ شــعبي في العــودة إلى وطنــه، وكلّ هــدفِ عمــلي العــام هــو أن أشــارك في صياغــة هــذا الحــق، وأن أعــود. لا أســتطيع، مهمــا تعــدّدت أشــكال ضعفــي الإنســاني، أن أفصــل العــودة الشــخصية عــن العــودة العامّــة. عــلى المســتوى الشــخصي، الرســائل التــي أكتبهــا إلى الداخــل حقّقــت نوعًــا مــن "العــودة الوجدانيــة"، كمــا ســميتها، أو مــن العــودة الذهنيــة. وكثــير مــن القــرّاء العاديــين، الذيــن لا يفلســفون الأمــور مثلنــا، نحــن الكتّــاب، لاحظــوا وقالــوا لي، في كلام مبــاشر أو عــبر الرســائل، إنّنــي موجــود هنــاك، في الوطــن. قــد تكــون كتاباتــي عــن العــودة، إذن، حقّقــت شــيئًا مــن العــودة الشــخصية، وقــد تكــون أيضًــا أحــد أشــكال إفــراغ الشــبق الجــارف، الــذي أصابنــي وحــرّك هاجــس العــودة.

.indd 310 29/07/2019 12:13:13

• العودة لا تزال صعبة

-ولمَ لا تعود فعلًا؟

• العودة الشخصية لم تزل مسألة صعبة جدًّا، لأنّ لا شيء جديدًا قد حصل ليسهّل إمكانية هذه العودة، والأسباب التي أرغمتني على الخروج ما زالت تزداد سوءًا. لا أستطيع أن أتصوّر أنّ السلطة الإسرائيلية ستسمح لي بالعودة، حتى لو فجرت فضيحة في هذا الشأن. الفكرة هذه بدأت، بعيدًا عن الكتابة، من الخشية التي أصابت بعض أصدقائي هناك، من جرّاء النشيج الذي عبّرت عنه كتابتي في اتّجاه الداخل، وخافوا عليّ من مرض الحنين، وقالوا: لمَ لا نطرح قضية عودتك إلى وطنك على المستوى العالمي، ونثير حولها ضجيجًا، قد يرغم الإسرائيليين على تقديم إجابة، فإذا كانت سلبية، ستكون فضيحة لهم، وإذا كانت إيجابية، تكون قد عدت إلى وطنك، وليس في الأمر ما يدين أو ما يثير اللغط؟

أنا لا أعتقد إطلاقًا أنّ الإسرائيليين سيسمحون بذلك، وأنا لن أتقدّم أبدًا بطلب العودة إليهم، كما

.indd 311 29/07/2019 12:13:13

أعتقد أيضًا أنّ المقارنة بين الوضع الذي تعيشه المقاومة – وهو انعكاسٌ للتدهور العربي العام – وبين الوضع الإسرائيلي غير صالحة أبدًا، لأنّ مثل هذه المقارنة ظلمٌ مسبق وجاهز ضدّ العرب.

-هذه العودة، الوجدانية أو الذهنية، تعني فيما تعنيه خسارة في مراهنة قمت بها وهي خسارة تطال شعبك عبر مقاومته حاليًا.

- لو سُمح لي أن أعود، ولو وافقتُ على العودة، فليس هناك أيّ شكّ بأنّني أتقدّم نحو هزيمة ما، أو أعلن وأجاهر بهزيمة ذاتية وعامة. وهذا هو السبب الذي يجعلني أكبح جماح حنيني الشخصي، وأقبل شروط المنفى لكي لا أضعها في خدمة الإفصاح عن هزيمة لم تتحقّق. نحن في حالة صعبة جدًّا. لسنا في هزيمة، ولا في نصر. الجديد في المسألة يتمّ على مستوى الوعي: المشروع الثوري، الفلسطيني والعربي، ليس رحلة تتحدّد عواملُ نجاحها وفشلها بعوامل زمنية محدّدة، بل هو رهان على مستقبل طويل وسيرٌ على طريق لا تبدو له نهاية... المهم أن نسير، وأن نُبقي الفكرة حيّة والجذوة مشتعلة، وأن

.indd 312 29/07/2019 12:13:13

نقبل قياس النجاح، ليس بالنجاح المرئي، بل بكمية العمل المبذول في سبيل هذا النجاح، وكميةِ الإيمان التي تَخلق حوافز السير على الطريق، حتى لو لم تظهر فيه أيّ علامة. أنا أوافقك الرأي بأنّ العودة الفردية - إذا تمّت – فيها شيء من إعلان التعب، إذا لم نقل الهزيمة. أكابر تعبي وجراحي وأواصل السير الجماعي في طريق، قد لا نصل إلى منتهاه، بل يصل غيرنا.

-قلتَ لي، ذات يوم، إنّ ما يؤلمك في الحالة الفلسطينية الراهنة ليس خسارة هذا الموقع العسكري أو ذاك، بل "انخداش" الروح الفلسطينية نفسها.

• نعم. الحالة الفلسطينية ليست موقعًا عسكريًّا محدّدًا، تسقط فيه الفكرة بمجرّد سقوط هذا الموقع، وعلى لغتنا السياسية أن تتخلّص من مصطلح "الموقع الأخير"، فنحن ليس لنا موقع أخير أبدًا. حيث نكون، تكون هناك مواقع. وسقوط المواقع لا يشكّل سقوطًا للفكرة أو انهيارًا للمسيرة. الضربات العسكرية التي تصيبنا في تعدّد الأمكنة، التي حاولنا فيها العمل، يجب أن لا تدفعنا إلى مراجعة الصواب

.indd 313 29/07/2019 12:13:13

في التجربة كلّها. ولكن أشدّ ما عانينا منه في مرحلة الانشقاق وما بعدها، ومن جرّاء اللغة السياسية الفلسطينية بمعناها الانحطاطي - وهي لغة تخوينية، تقسم الفلسطينيين إلى خونة ووطنيين، أو إلى رافضين وقابلين - هو تحقّقنا من عدم تكوّن سلّم للقيم والمفاهيم، الناتجة عن تماسك أيّ مجتمع. إنّ هذا التمزّق، الذي يقترب من إصابة الروح، ناتجٌ عن أنّ الفلسطينيين في الخارج لا يعيشون في مجتمع، بل في تجمّعات، يتأثّرون بالمجتمعات التي يعيشون فيها، وخاضعون لتأثيراتها السلبية أيضًا. أسجّل، إذن، وجود ظاهرة سلبية وخطرة جدًّا، وهي أنّ كلّ شيء في حياتنا مستباح، وأنّ السياج الوطني، كما يعبّر عنه بعض المسؤولين الفلسطينيين في بعض الفصائل، أو "الفسائل"، كما سميتُها ذات مرّة، غير مصان من قبلهم، بتبعيتهم الفائقة للنُّظم العربية التي يعيشون فيها. كما أنّني أسجّل أيضًا أنّ الشعب الفلسطيني كان أكثر وحدانية من هؤلاء الانشقاقيين. أرى بأنّ الطعن بشرعية التمثيل السياسي الفلسطيني لا يصلح إلاّ للمحاكمة على مستوى آخر، وهو أنّ المستوى السياسي لا يعبّر تمامًا عن مدى

.indd 314 29/07/2019 12:13:13

حيويــة الــروح الفلســطينية، أي أنّ الــروح النضاليــة لــدى الشــعب الفلســطيني هــي أكــثر تقدّمًــا مــن المســتوى الســياسي الــذي يعــبّر عنهــا. حيويــة الشــعب الفلســطيني ألغــت مثــل هــذه المخــاوف، بتفوّقهــا عــلى حالــة الشرذمــة، التــي تســود قيادتهــا. الشــعب هــو الذي حمــى الشرعيــة، وليــس المعــبرون عنهــا. الشرعيــة هــي في حراســة الحيويــة التــي يعــبّر عنهــا الشــعب الفلســطيني يوميًّــا، في كلّ مــكان، في مخيّماتــه بالخــارج أو في ســجنه بالداخــل. أنــا، إذن، حــين أتحــدّث عــن "انخــداش" الروح الفلســطينية، أحــاول أن أســتنفر حاسّــة الانتبــاه التــي افتقدهــا السياســيون، غــير أنّ الشــعب الفلســطيني، بصمــوده الخــارق، قــدّم التعبــير الســاطع عــلى أنّــه هــو الشرعيــة، وليــس الشرعيــة السياســية.

• قيادة فلسطين "متبرجزة"؟

-هــذا لا يمنــع مــن القــول بــأنّ الحالــة الفلســطينية، كحالــة سياســية، تخدّشــت بوصفهــا حالــة ثوريــة، في تنظيماتها نفســها، وفي الصــورة العربيــة عنهــا. النــزاع الفلســطيني

.indd 315 29/07/2019 12:13:13

الداخلي هو شكل من الاقتتال الأهلي، الذي تعرفه مجتمعاتنا العربية بصورة معلنة أو مضمرة. ماذا تقول؟

- لا نستطيع أن نتهرّب كثيرًا من الحقيقة. نتجنّب مواجهتها ربّما، ولكن لا يمكن أن نغيبها تمامًا. ليس هنالك شكّ في أنّ الصورة الفلسطينية قد تشوّهت كثيرًا، ولا يكفي أن نقول إنّ النظام العربي هو المسؤول عن هذا الاقتتال، وعن هذا التشرذم، بل علينا أن نقدّم نقدًا ذاتيًّا، وأن نعترف بأنّ نجاح النظام العربي في العثور على قوى سياسية من داخل البيت الفلسطيني، تمارس محاولة تدمير الروح الفلسطينية، هو فشلٌ لنا. نحن مسؤولون أيضًا عمّا حصل، ولا أستطيع أن أخفي عن أحد أنّ وضعنا قد ساء وتدهور نتيجة هذا الانقسام.

ولكن، بودّي أن أطرح المسألة على صعيد آخر: كيف نقيس الوحدة الوطنية؟ ما هي معاييرها؟ هل المنظمات وحدها هي دليل الحكم على وجود هذه الوحدة من عدمها، أم الشعب الفلسطيني نفسه؟ لأنّ للكثير من الدول العربية ممثّلين في منظمة

.indd 316 29/07/2019 12:13:13

التحريـر الفلسـطينية، وبعـض المنظمـات الفلسـطينية ليـس نتـاج الكـدح والنضـال الفلسـطيني بقـدر مـا هـي تعيـين مـن مخابـرات بعـض الـدول العربيـة. ولكـن أن تطغـى علينـا هـذه الصـورة فـإنّ في الأمـر مـا يؤلـم حقًّـا، ويصعـب علينـا الـشرح والتفسـير.

هنـاك تراجـع في صورتنـا، وتراجـع أيضًـا في التطابـق التمثيـلي والحيويـة الفلسـطينية. هـذا يثبـت، في نهايـة المطـاف، فشـلَ بعـض مسـتويات الخطـاب الفلسـطيني الـذي كان يبالـغ في إقليميتـه بدافـع حاجتـه إلى تأكيـد هويتـه الوطنيـة المعرّضـة للطعـن والتدمـير، وأن يميّـز نفسـه عـن الوضـع العربـي العـام. لا يسـتطيع الفلسـطينيون إلا أن يكونـوا عربًـا، ولا يسـتطيعون أن ينجـوا مـن التأثـيرات السـلبية لمـا يحـدث عـلى السـاحة العربيـة. فـإذن، نحـن مشروطـون في تطورنـا وتراجعنـا بالتطـور والتراجـع العربيـين. أمـا إذا نظرنـا إلى الفلسـطينيين عـلى أسـاس أنهـم اسـتثناء، فذلـك يدفعنا إلى التشـاؤم وإلى كراهيـة الـذات. أمـا إذا نظرنـا إليهـم كعـرب، مثـل غيرهـم، فإننـا نسـتطيع أن نفهـم المسـألة بطريقـة علميـة وأكـثر هـدوءًا.

.....indd 317 29/07/2019 12:13:13

-لست في موقع القاضي لحساب المسؤوليات المختلفة في التشرذم الفلسطيني، بين الشرعيين والانشقاقيين، ولا أطالبك بأن تكون هذا القاضي العادل، ولكن ألا تقرّ معي بأن الجهتين تتحملان قدرًا مشتركًا من المسؤولية فيها، حتى الجهة الشرعية منها، التي "تبرجزت"، حسبما يقولون، بعيدًا عن الهموم اليومية للشعب الفلسطيني؟

• لا أستطيع أن أقبل هذا الحكم بسهولة، ولا أدَّعي أنني حاكمٌ عادل. إن أي قيادة، في أي مجتمع أو في أي تجمّع بشري، تتحمل مسؤولية ما يجري. وفق هذا القانون العام تتحمل الشرعية الفلسطينية الكثير من المسؤولية عما حدث، من دون أن تتحمل ذلك وحدها. الانشقاق – كما أراه وفق اجتهادي الشخصي، وقد أُخطئ في هذا أو أصيب – هو عملية عربية مبرمجة منهجية؛ أي أنه لم يكن أبدًا اختلافًا حرًّا على الآراء بين الفلسطينيين، بقدر ما كان تدخلًا سافرًا من بعض الجهات العربية في شؤون البيت الفلسطيني. أما لماذا نجح هذا النظام العربي في أن يجرَّ بعض الفلسطينيين إلى مثل هذا الانشقاق، فهو

.indd 318 29/07/2019 12:13:13

بعـض مـا تتحمـل القيـادة الفلسـطينية مسـؤوليته. لكننـي لا أحمِّلهـا مسـؤولية الانشـقاق، بـل للنظـام العربـي المعـين، الـذي لا أريـد أن أسـميه!

أنـا لا أتقبـل بالمقابـل اتهـام المنشـقين للشرعيـة الفلسـطينية بـ "البرجـزة" لأنهـم ليسـوا أكـثر التصاقًـا أبـدًا بهمـوم الشـعب الفلسـطيني، خاصـة أن هـذه الشرعيـة تحظـى بتأييـد الشـعب الفلسـطيني، وكل الاسـتفتاءات تؤكـد ذلـك. كمـا أن الشرعيـة الفلسـطينية لـم تـزل تدافـع عـن الأداة السياسـية التمثيلية لشـعبها، أي منظمـة التحريـر الفلسـطينية، أو "الوطـن المعنـوي"، كمـا أسـميه. مـا هـو البديـل عنهـا غـير الالتحـاق والتبعيـة لأنظمـة عربيـة؟ إنهـا أداة سياسـية ليـس إلا، وهـي لـن تكـون متعارضـة مـع أي مـشروع قومـي عربـي... إذا وُجـد.

-سـؤال أخـير لمحمـود درويـش السـياسي: منظمـة التحريـر الفلسـطينية عرفـت سـابقًا هـزات عديـدة، هـل تعتقـد أن وحـدة المنظمـات الفلسـطينية لـم تـزل ممكنـة؟ مـا هـو مسـتقبل العمـل الفلسـطيني؟

.....indd 319 29/07/2019 12:13:13

- أظـن أن الـذي حمـى منظمـة التحريـر الفلسـطينية في السـابق مـن انشـقاقات مماثلـة هـو وجـود مركـز للعمـل الفلسـطيني: مـرة في عَمـان، مـرة في بـيروت، وبالتـالي كان هنـاك ضابـط معنـوي وسـياسي وتنظيمـي وقضائـي ومرجعيـة لنشـاط المنظمـات. أمـا التحـاق بعـض المنظمـات الفلسـطينية ببعـض الأنظمة العربيـة فيجعل بعضهـا أسيـرًا لاعتبـارات هـذا النظـام أو ذاك. أنا لسـت متفائـلًا، إذن، في تحقـق الوحـدة الفلسـطينية، خاصـة وأن فلسـطينيي الخـارج ليسـوا متحرريـن مـن الأوضـاع والسياسـات التـي يعيشـون في ظهرانيهـا، وبالتـالي، أنـا أعتـبر أن شرط الوحـدة الفلسـطينية هـو علاقـات مـن نوعيـة أخـرى بـين منظمـة التحريـر والـدول العربيـة التـي تقـود هـذه الانشـقاقات. أمـا بخصـوص المسـتوى الآخـر للوحـدة، وهـو وحـدة الشـعب الفلسـطيني، فهـو موجـود وراسـخ.

.indd 320 29/07/2019 12:13:13

• لستُ نادمًا على شيء

-حين غادرت الوطن قبل 16 عامًا، كنت ترى طريقًا أمامك، أين أنت منه الآن؟

• إنني أنظر إلى الحاضر بحزن، وإلى الوراء بحنين، ولكنني لست نادمًا على شيء. لم تذهب نشاطاتي، ولا أحلامي، عبثًا، إلا إذا ظنَّ أحدُنا أن طريقنا قصير وسهل. ولكن، ما دام الصراع بمثل هذا الاتساع والتداخل (مع أوضاع عربية) والتعرج والاضطرار (للدخول في معارك جانبية، ضرورية للدفاع عن النفس أمام من يقومون مقام متطلبات الأمن الإسرائيلي في تدمير الطريق الفلسطيني)، فإن المسألة تبدو أكثر تشابكًا والتباسًا. أما بخصوص أحلامي فإنني أنظر إلى الأمور بواقعية، وأترك التعبير عن الحزن والإحباط للشعر. طبيعة الشعر أن ترى ما يوجع، الشعر لا يفرح.

نعرف الآن أن طريقنا التحرري أصعب، وأن الرحيل عكس الوطن لم يكن دائمًا رحيلًا في اتجاه الوطن.

.indd 321 29/07/2019 12:13:13

ونعـرف أيضًـا أننـا لسـنا مـن فئـة الخـارق الخـارق، بـل مـن فئـة الخـارق البسـيط، وأننـا لا نسـتطيع أن نكـون بديـلًا عـن قـوى عربيـة أكـبر وأكـثر. الفلسـطينيون وحدهـم لا يسـتطيعون إلا أن يحمـوا روحهـم، ولا يسـتطيعون أن يحـرروا وطنهـم مـن دون مـشروع عربـي كبـير. ولكـن، هـل أن علينـا أن ننتظـر ميـلاد ذلـك المـشروع؟ لا، علينـا أن نُبقـي الفكـرة الفلسـطينية حيـة، وأن نبنـي أنفسـنا، وأن نـزداد التحامًـا بالسـؤال الديمقراطـي في العالـم العربـي ونتحالـف معـه. الجامعـة العربيـة لا تحـرر فلسـطين، أمـا كيـف أُقيِّـم السـنوات الماضيـة؟ فهـي سـنوات عرفنـا فيهـا انتصـارات كبـيرة، عـلى المسـتوى السـياسي والمعنـوي، وقـد شـهدت تبدلات في الوعـي، واختلاطـات في تحالفـات شـبه سرياليـة، واقعيـة أحيانًـا، ورجعيـة أحيانًـا أخـرى. إنهـا مسـيرة عمـر، بـكل مـا فيـه مـن تعرجـات وخيبـات، ومـن صعـود وهبـوط. أمـا في المسـار التاريخـي البعيـد، فإننـي أراه في خـط تصاعـدي، رغـم السـفوح المنكـسرة التـي تشـهدها اللحظـة الراهنـة.

-"سـجل أنـا عربـي"، قلتَهـا فيمـا مـضى في وجـه الحاكـم

.indd 322 29/07/2019 12:13:13

الإسرائيـلي، ألا تشـعر بأنـك مضطـر لقولهـا في هـذه الأيـام في وجـه الحاكـم العربـي؟

- هـذه مفارقـة جارحـة جـدًّا. نعـم، للأسـف الشـديد، عندمـا التقيـتُ بالعالـم العربـي عـن كثـب، لقـاءً مباشـرًا، كنـت أرفـض أن أسـجّل أننـي عربـي، لأن عروبـة العـرب عندي كانـت بديهيـة، أمـا، الآن، فهـي تحتـاج لبراهـين، وإلى دعـم عمـلي، وبالتـالي أسـمح لنفـسي الآن في أي مـكان عربـي أن أحـزن عندمـا أجـد نفـسي مضطـرًا للقـول، مـرة أخـرى: سـجّلْ أنـا عربـي. لأن العديـد مـن الأنظمـة العربيـة لا تتـصرف راهنًـا عـلى أسـاس أنهـا عربيـة بالمعنـى الإيجابـي للكلمـة. نحـن مطالبـون بـأن نبرهـن تجـاه الغـرب وتجـاه أنفسـنا أيضًـا: مـن هـو العربـي؟ إنـه سـؤال سـاذج. الفرنـسي لا يطرحـه عـلى نفسـه لأنـه أمـر بديهـي عنـده، أمـا العربـي فهـو بحاجـة لأن يتأكـد، عـلى مسـتوى مصالحـه القوميـة الكـبرى، مـن المضمـون الإيجابـي لعروبـة الكثـير مـن العـرب. فأنـت تـرى الآن حربًـا تـدور: قـوة عربيـة وعـدوان أجنبـي، وينحـاز بعـض العـرب إلى العـدوان الأجنبـي. في هـذه الأمكنـة أتمنـى أن أقـف وأقـول: سـجّلْ أنـا عربـي.

.....indd 323 29/07/2019 12:13:13

-هنـاك عبـارة شـعرية شـهيرة أخـرى في شـعرك، تحولـت إلى ملصـق فـوق الجـدران في المـدن العربيـة: "وطنـي ليـس حقيبـة وأنـا لسـت مسـافر"، تقـول في ديوانـك الجديـد: "ورد أقـل" ("دار توبقـال للنـشر" في المغـرب): "وطنـي بقجتـي". وأنـت مسـافر أكـثر فأكـثر... إنهـا مفارقـة أخـرى.

- لا أسـتطيع أن أُخضـع الواقـع لتعبـيري عنـه. فتعبـيري هو انعـكاس عنـه. عندمـا قلـتُ: "وطنـي ليـس حقيبـة..."، كنـتُ أُعـبِّر عـن علاقـة وعـي بواقـع، وكنـت أرى أن الثبات هـو البقـاء، والـلا سـفر والـلا رحيـل هـو كينونتـي. بعـد ذلـك تطـور وعيي بنشـوء المـشروع الثـوري الفلسـطيني فالتحقـتُ بـه، واضطـررتُ، تحـت الضغـط الإسرائيلي، إلى الخـروج مـن الوطـن، عندهـا قلـتُ: "وطنـي ليـس جـدارْ، وأنـا لسـت حجـرْ". الواقـع، في تغـيّره، في تدهـوره أو في تطـوره، يغيرنـا، ومـن لا يتغـير هـو الحجـر. لا أسـتطيع أن أُخضـع نفـسي لجملـة قلتُهـا، فنحـن نعيـش مسـيرة رحيـل لا تنتهـي.

إنهـا مفارقـة جارحـة أخـرى، وأنـا أعـبّر عـن الواقـع، وهـو أقـوى منـي، ويسـدد، بالتـالي، اتجاهـات تعبـيري.

.indd 324 29/07/2019 12:13:13

أمـا أن يكـون في ذلـك مـا يُديـن شـعري ووعيـي، فـإن هـذا صحيـح، ولكننـي لسـت كالمتنبـي، الـذي دافـع عـن بيـت شـعر و... قُتـل. المسـألة مختلفـة طبعًـا، فأنـا لسـت فارسًـا، بـل جـزء مـن هـذا الشـعب المترحـل دائمًـا. حتـى إننـي أقـول عـن نفـسي أيضًـا إننـي لـم أسـافر. فهنـاك فـارقٌ بـين الرحيـل والسـفر: المسـافر هـو العائـد إلى مـكان مـا، إلى الوطـن، وأنـا، بهـذا المعنـى، لسـت مسـافرًا أبـدًا في كل هـذا السـفر! أنـا راحـل، أو تائـه، أو ضائـع، لا المسـافر أبـدًا، لأن هـذا يعـود دائمًـا إلى بيتـه، أمـا أنـا ففـي ترحـال دائـم!

• التعبير عن إنسانية الفلسطيني

-ألاحـظ في ديوانـك الأخـير "ورد أقـل" ملمحَـين اثنَـين: لـم تعـد معنيًّـا أساسـيًّا بكتابـة الحالـة الفلسـطينية، بـل بالحـوار مـع الشـعب الفلسـطيني نفسـه، كمـا أنـك تعـود إلى غنائيـة عُرفـتَ بهـا في بداياتـك الشـعرية.

• طـرأ عـلى شـعري تغـيرٌ واضـح. الملاحظـة الأولى التـي عـبرتَ عنهـا دقيقـة جـدًّا. لـم أعـد أُعـبِّر عـن اللحظـة

.indd 325 29/07/2019 12:13:13

السياسية الفلسطينية، بل عن إنسانية الفلسطيني، وانتقلتُ بالتالي من النمط إلى الإنسان. أي أنني أطرد من صياغتي الخطاب السياسي، البطولي، وأتعمق في تراجيدية الشرط الفلسطيني، وفي جمالية هذه التراجيدية. انتقلتُ من الحماسة، التي كانت تميّز مرحلة من مراحل الشعب الفلسطيني، إلى التأمل الذاتي، وإلى "أنسنة" الموضوع الفلسطيني. الآن لا أقوى على الصراخ... كانت هناك لحظات تقتضي الصراخ، ولكن طول الرحيل لا يسمح لمغنِّي القوافل بأن يصرخوا، لأن المدى سيمتص أصواتهم... يستطيعون أن يقدموا شجنًا أو تأملًا، في الذات أو في علاقة هذه الذات بالوجود، وبأسئلة خارجة عن السؤال الوطني، أو ربط السؤال الوطني بالسؤال الوجودي العام. أعتبر أنني أقترب من لحظة نضجٍ ما في نظرتي إلى الإنسان وإلى الشعر نفسه. قد يبدو للقارئ المستعجل أو الحماسي أنني أتراجع، أو أنني أيأس... أنا لا أرى ذلك، لأن تعميق إنسانية الإنسان في الشعر تخدم حتى المسألة الوطنية الظرفية خدمة أفضل، لأن الصراخ المشروط بانفجار اللحظة ينطفئ بانطفاء هذا الانفجار. الفلسطينيون محتاجون،

.indd 326 29/07/2019 12:13:13

برأيـي، إلى تقديـم هويتهـم الروحيـة، التـي لـم يقدمهـا الأدب الفلسـطيني كثيـرًا. لقـد كنـا نقـدِّم شـهادات ويوميـات عـن الحيـاة السياسـية الفلسـطينية، لا عـن حيـاة الشـعب الفلسـطيني نفسـه، أي أن الأولويـة كانت للموضـوع وليـس للإنسـان أو للشـعب.

-ماذا عن العودة إلى الغنائية؟

• كثيـرًا مـا أدَّعـي – ومـا زلـتُ – أمـام أي محاولـة نقديـة، أننـي لـم أنفصل أبـدًا عن صوتـي، أي أن المغنـي الأول فيّ، عـلى الرغـم مـن كل محاولاتـه الملحميـة أو التسـجيلية، لـم يسـتطع أن يتحـرر مـن الطفـل الأول فيـه، وهـو طفـل الغنـاء. مـررتُ بمراحـل تجريبيـة أوحـتْ بـأن صوتـي الغنائـي اختفـى، غـير أن تجريبيتـي هـذه جعلتنـي أتوصـل إلى هـذا المفهـوم الشـعري، وهـو أن الشـعر لا يسـتطيع أن يكـون ذاتـه، وأن تكـون علاقتـه بالذائقـة العامـة، إلا إذا حافـظ عـلى أحـد مسـتوياته الأساسـية، وهـو الغنـاء. أنـا منحـاز للغنـاء في الشـعر، أكـثر منـي للتجريـب، لأننـي أمتلـك، ربمـا أدوات الشـعرية العربيـة والذائقـة الشـعرية العربيـة، وأرى أننـا لـم نُقـدِّم حتـى الآن بديـلًا مـبررًا عـن الغنائيـة عـلى مسـتويين: مسـتوى جمـالي، ومسـتوى العلاقـة بالجمهـور.

.indd 327 29/07/2019 12:13:13

إن المحاسبة، سواء أكانت سياسية أم شخصية، تقتضي نوعًا من الغناء مع النفس، لأنها قصائد تأملات ومراجعة علاقة الماضي بالحاضر، وعودة معنوية إلى خطواتي الأولى، وإلى المكان الذي أشتاق إليه، وإحساس بوحشة عميقة في النفس... هذا المناخ الإنساني الحزين يقتضي الشفافية في التعبير، وأحيانًا لا أجدها إلا في الغناء، ولكنه غناء مختلف، ويقترب من الحكمة، أي من معرفة النفس والطبائع البشرية بصورة أفضل من الهتاف القديم. إذا كان الغناءُ يستطيع أن يتحمل الصراخ والحماس، فهو يستطيع أيضًا أن يتحمل التأمل الفكري والعاطفي الهادئ. أنا لم أنفصل عن مراحلي، وقد يكون في ملاحظتك الذكية ربط مع بداية حديثنا، عن الرغبة في العودة إلى المكان الأول، أي أنها وجدتْ معادلَها الجمالي، وعادت القصيدة إلى طفولتها.

-يختفي تدريجيًّا الصراخ القوي والمنشط لصالح الكثافة، أليس كذلك؟

• هذا صحيح ودقيق، بنقصه الهامش الاستقلالي بين الموضوع وبين الفن المعبّر عنه. حتى لو عادت الحالة

.indd 328 29/07/2019 12:13:13

الفلسطينية إلى هديرها الثوري الأوضح السابق لن يكون شعري حماسيًّا. الإنسان الفلسطيني، والموضوع الفلسطيني المتحول إلى أعماق تراجيدية منّي وفي شعري، قد وجد لغته، وهذه اللغة تنفصل أحيانًا عن ذبذبات اللحظة السياسية المعبّر عنها. أنا، شعريًّا وجماليًّا، لم تعد لي علاقةُ تطابقٍ مع تحولات الظرف السياسي، إذ إن الاستقلال النسبي للقصيدة عن واقعها حين تُعبِّر عنه قد بلغ صياغةَ "كثافةٍ"، كما تقول، أرى أنها هي مجال الشعر. أمتلئ بكل هذا الصخب والهدير والحماسة، لكنني أصفِّيه بشكل أكثر شفافية وكثافة، لأنني أرى أن الشعر هنا، وليس هناك. قد تقف التطورات السياسية وراء أسباب هذا التحول، ولكنني بلغتُ هذا الوعي الفني، وما دمتُ أنني بلغتُه فهو لن يعود إلى سابق عهده مهما تبدلت الأوضاع. أنا لن أعود إلى الهتاف من جديد! هذا أنا من الآن وصاعدًا.

-تمامًا. المسألة شخصية. كنا نشعر سابقًا كما لو أنك كنتَ مع الكتلة، في الشارع، بانفعالاتها العنيفة والقوية، وبتنا نشعر، الآن، وكأننا معك، في مكتبك، حيث تبلغك الأصداء الخارجية.

.....indd 329 29/07/2019 12:13:13

• لـن أعـبِّر بطريقتـي الأولى حتـى لـو كان عـليّ أن أعـبِّر عـن حركـة الشـارع. مـا تغـير عنـدي ليـس هـو العلاقـة بالشـارع أو الموضـوع، بـل مفهومـي للشـعر نفسـه. أنـا لـن أصرخ بعـد اليـوم. أجتهـد في تأكيـد مفهومـي هـذا للشـعر، وهـو الغنائيـة المكثفـة. سـأتخذ مثـلًا عمـا أقـول، هـو موضـوع اليـأس والأمـل في الشـعر: قـوة الأمـل لا تأتـي دائمًـا مـن قـوة التعبـير عـن نهايـة متفائلـة لمجـزرة إنسـانية. إن قـوة الحـزن، وحتـى قـوة اليـأس، إذا عُـبِّر عنهـا بإبـداع، تخلـق أمـلًا، وهـو أمـل القـدرة البشريـة عـلى الإبـداع. أي أن الأمـل أو اليـأس يأتـي مـن قـوة البرهنـة عـلى الطاقـة الإبداعيـة لـدى الإنسـان. ففي اليـأس أحيانًـا قـوة أمـل.

-في هـذا كلـه نتبـين أكـثر عزلتـك، توحّـدك بـين أسـوار النفـس واشـتغالك عليهـا.

• كل كاتـب منعـزل بالـضرورة، وأنـا أثـير فضيحـة سياسـية كلمـا بلغـت منعطفًـا جماليًّـا. شـعري يثـير تأويـلات سياسـية فضائحيـة، خصومـي – والحمـد اللـه - كـثر، وأُراقَـب مراقبـة بوليسـية. غير أننـي أملك الجـرأة الدائمة

.indd 330 29/07/2019 12:13:13

عـلى أن أصـدم الـرأي العـام، وخاصـة الفلسـطيني منـه. مـا ينقصنـا عربيًّـا هـو أن نتطـور مـن هـواة إلى محترفـين. أنـا فعـلًا مشـغول في اللغـة، وفي تطـوري الشـعري، لكننـي لا أفهـم لمـاذا يوضـع ذلـك في تضـادّ مـع المصالـح الوطنيـة للشـعب الفلسـطيني والأمـة العربيـة. النقـد المسـبَق والمنحـط الـذي يُعـبِّر عنـه بعـض الفلسـطينيين الجهلـة يعتـبر أن أي جمـال تعبـيري مضـاد للثـورة، وأن أي تعبـير عـن عزلـة إنسـانية، أو عـن عزلـة المبـدع في علاقتـه بمجتمعـه، يعتـبر ردة سياسـية. بلغنـا مـن النضـج، وعـلى سـائر المسـتويات، مـا يسـمح للكاتـب بـأن يتخصـص. ليـس مطلوبًـا أبـدًا أن يبقـى الكاتـب هاويًـا إلى الأبـد! إذا لـم يعـادل التطـور في الواقـع نفـس الجهـد والبطولـة عـلى مسـتوى اللغـة فهـو سـيكون انعكاسًـا هتافيًّـا لا معنـى لـه. أريـد أن أسـجل عـلى النقد نقـدًا شـديد الجـرأة. إن تطـور القضيـة الفلسـطينية لـم يرافقـه تطـور في الأدب الفلسـطيني، للأسـف الشـديد! وإن نمـو الظاهـرة الفلسـطينية في "الفاكهانـي" (مقـر قيـادة المقاومـة في بـيروت)، عـلى المسـتويات العسـكرية والسياسـية والإعلاميـة، رافقَـه هبـوط في الأدب

.indd 331 29/07/2019 12:13:13

الفلسـطيني. لا أسـتطيع أن أُسـمِّي أديبًـا واحـدًا مـن نتـاج الثـورة الفلسـطينية: إمـا جـاؤوا قبـل، أو متأخرين. لأن مـا ينقصنـا هـو مفهـوم اسـتقلال الإبـداع النسـبي عـن موضوعنـا. يكفـي أن يكتـب الكاتـب أي شيء عـن الـدم الفلسـطيني لكـي يصبـح كاتبًـا جديـرًا بالاهتمـام. في الأدب نحتـاج إلى ثوريـة في علاقتنـا باللغـة وبالـتراث تضاهـي الثوريـة المبذولـة لتغيـير الواقـع. هـذه الأمـور تحتـاج إلى معلمِـين عديديـن، وإلى دروس في علـم الأدب، لكـي يفهمهـا بعـض النقـاد السـطحيين، وخاصـة في الوسـط الفلسـطيني: إنهـم يعتـبرون الـوردة في القصيـدة عيبًـا، ويجـب أن تبـدأ القصيـدة بالجماجـم لكـي تكـون ثوريـة.

لذلـك فـإن علاقتـي بالقضيـة الفلسـطينية ملتبسـة، فأنـا أدَّعـي علاقـة أكـثر عمقًـا معهـا.

.indd 332 29/07/2019 12:13:13

• حالة عاطفية خاصة؟

-أنت كنت وستظل ربما "حالة عاطفية خاصة" في وجدان الشعب الفلسطيني. أنت الرمز الشعري لشعبك، فيما تُكال عليك التهم من الكتّاب "الانشقاقيين" الفلسطينيين. قرأتُ بعض هذه التهجمات، لكنني لم أسمع أو أقرأ ردّك عليهم.

• إذا شئنا الدقة فإنني محظوظ منذ البداية وحتى الآن بعداء حلفاء القبح، منذ كنّا معًا قبل الانشقاق في بيروت، وبعداء أُمِّيي الأدب، الذين يعتبرون أدبي برجوازيًّا، وأي تجريب في قصيدتي نوعًا من الحيرة الفكرية، لأن بين يقين الشعب الفلسطيني في حقه وبين يقين الأدب لا يستطيع الأدب أن يعثر على جماله من اليقين. الأب الشرعي للأدب هو الشك والتردد، ليس تجاه الحق أو الشعب، بل تجاه سائر الأسئلة الكبرى، على مستوى الفكر والوجود والشكل. كنتُ دائمًا عرضة للاتهامات، غير أنها أصبحت معكوسة الآن: لماذا أتدخلُ في الشؤون العامة للشعب

.indd 333 29/07/2019 12:13:13

الفلسطيني، بعد أن كانوا ينتقدونني فيما مضى لقلة تدخلاتي هذه؟ لقد اعتدتُ هذا الهجاء، ولكن ما يُقوِّيني ويحميني ويطورني، هو أن شعبي بريء من التحالف مع الترويج للقبح والبشاعة في الأدب والحياة. إن بعض المنشقين، وغير المنشقين أيضًا، الذين يربطون الحق بالبشاعة، والثورية بالقبح، لا يتحملون أي قصيدة جميلة، وأي غناء خارج الجماجم. خلافي معهم فني، وقبل أن يصبح سياسيًّا، الآن يتخذ الخلاف الفني شكل التعبير عن خلاف سياسي. ما هو الخلاف السياسي بيني وبينهم؟ من كلِّ من أقرأ لم أفهم ما هو موضوع الخلاف. أنا معرَّض دائمًا للهجاء والتهم: يقولون عني إنني مدّاح الأنظمة، أنا لا أعرف متى وأين مدحتُ أي نظام، وكلُّ شعري يشير إلى عكس ذلك؟ يُقال إنني شاعر بلاط: أي بلاط، أنا شاعره؟ يقال عني إنني أسعى للتصالح مع إسرائيل: لا أعرف أين عثروا على أي تصريح مماثل؟

السمة المميزة لكل هذه التهم هي الهجاء، لا المناقشة. أنا أعرف هؤلاء الهجائين المرتزقة من زمان: بعضهم يعتاش من زبد نباحه، وقد أصبحوا حالة

.indd 334 29/07/2019 12:13:13

فولكلورية في حياتنا. يُعدُّون على الأصابع. الآن يكتبون في قبرص، أو في دمشق، في بعض مطبوعاتهم، وأسجل – للأمانة – أن أي صحيفة سورية لم تشتمني. فالذين يشتمونني هم بعض المرتزقة المصريين، من أمثال أحمد فؤاد نجم، أو بعض سكان مقاهي دمشق القادمين من بيروت، وبعض الفاشلين الفلسطينيين، الذين لا يستطيعون أن يصوغوا عبارة عربية سليمة واحدة، أو ينجحوا في امتحان إملاء يتمُّ فيه تحاشي الهمزة!

ليس هناك جدل أو نقاش، بل أحقاد قديمة وجدت الآن فرصة للتعبير عنها. وأنا أعتبر أن الصراع فنّي في العمق، لأنهم أصحاب موقف بدائي عن الأدب والثورة، وهم ليسوا أدباء، ولا ثوريين. لي أمنية وحيدة في هذا المجال، وهو أن ترتفع لغة الخلاف إلى الحد الأدنى من الأخلاق، الذي بتنا نفتقده. فاللغة الفلسطينية الانشقاقية تفتقر إلى حسن تربية، وأزمتها أخلاقية ايضًا.

-تعرف، منذ إقامتك بباريس، نشاطًا أدبيًّا غزيرًا، يتمثل بإصدار عدة دواوين، وبكتابة شبه منتظمة

.indd 335 29/07/2019 12:13:13

في الصحافة الأسبوعية، بالإضافة إلى مساهمات في الندوات والمؤتمرات... يبدو أنك أصبحت أكثر انضباطًا وتنظيمًا، وأكثر احترافًا بالتالي.

- على الأديب، مهما كان وعيه الثوري وارتباطه عميقًا، أن يحافظ على هامش ما مع العمل السياسي، أي أن لا ينخرط انخراطًا كاملًا فيه. لأن الأدب يحتاج إلى وقت وتخصص وجدّية، لا يسمح لها بالانغماس الكلي في العمل الوطني الوظيفي. أنا أُعبِّر عن ارتباطي بالعمل العام، في آخر الأمر، ليس في زحمة عملي النقابي، بل في نصي الأدبي. إن وعي هذه المسألة يوفر علينا الكثير من الجدل، خاصة مع بعض المثقفين الفلسطينيين. هناك فهم خاطئ لطبيعة عمل الأديب في المجال الوطني، أو العمل الوطني في مجال الأدب. لهذا كنّا نفتقد دائمًا للاحتراف. كنّا دائمًا نسرق الوقت لكي نكتب، أما الوقت الأساسي فهو منفقٌ على عمل، يتقنه سواك أكثر منك. ماذا يعنيني العمل النقابي؟ أو ماذا يعنيني إذا كنت مديرًا ناجحًا لمؤسسة تجارية؟ أنا أحاكَم، وشعبي يحتاج إلى أن يحاكِمني على ما أقدِّم له من تعبير عن

.indd 336 29/07/2019 12:13:13

روحـه. أي أن كل عمـل آخـر غـير هـذا التعبـير الأدبـي هبـاء. نحـن العـرب نتـصرف أيضًـا مـع الأدب كهوايـة، لأننـا مسـكونون بوعـي قديـم أن الشـعر إلهـام، ومـا دام الشـعر إلهامًـا، فـلا شـأن لنـا بـه. هـو يأتـي أو لا يأتـي... هـذا ليـس صحيحًـا، عـلى الأديـب العربـي أن يـصرف سـاعات عمـل يوميـة، وبجـدّ وانضبـاط، لإنتـاج أدبـه.

ظـروف منفـاي وفـرت لي مناخًـا أفضـل للانتبـاه إلى الأدب. أكتـب بغـزارة ربمـا لإحسـاسي بأننـي خـسرت كل شيء. أنـا سـعيد جـدًّا لأننـي تخلصـت مـن طاحونـة العمـل في بـيروت، هـي ليسـت سـعادة سياسـية، بـل أدبيـة، فأنـا لا عمـل لي الآن غـير الأدب. توصلـت إلى تحقيـق أهـم إنجـاز في حياتـي، وهـو أننـي أصبحـت كاتبًـا منضبطًـا. أقـدّس سـاعات العمـل تقديسًـا كامـلًا. وعنـدي سـاعات عمـل لا يمكـن أن أقابـل فيهـا أحـدًا، أو أن أقـوم بـأي عمـل آخـر فيهـا غـير الكتابـة. الآن بـتُّ أطـرح عـلى نفـسي مثـل هـذه الأسـئلة: كيـف أمـلأ المنفـى؟ كيـف أبـرر منفـاي أو كيـف أبـرر احـترام النـاس لي إذا لـم أقـدِّم لهـم أدبًـا؟

.indd 337 29/07/2019 12:13:13

• مسكون بهاجس النثر

-يصدر لك قريبًا كتاب جديد بعنوان "الزمان: بيروت، المكان: آب – سيرة يوم"، ما هو؟

• أريد أن أعترف بأنني مسكون بهاجس النثر، وأريد أن أعترف أيضًا بأنني أحبه أكثر من الشعر، وأحب الرواية أكثر من القصيدة. وأستطيع أن أقول بجرأة شديدة إن الشاعرية تتجلّى أحيانًا في النثر أكثر منها في القصيدة. أنا منحاز أصلًا للنثر، ولكنني جبان، وأخشى أن أُقدِم على مشروع نثري كبير. أما في موضوع بيروت فالأمر مختلف: كتبتُ عنها قصائد عديدة، وشعرتُ دائمًا بأن التجربة لم تزل ناقصة في تعبيرها، خاصة أن الأسئلة كلها (الموت، الحياة، الحب، البحر، الآخر...)، كانت تتجمع في لحظة واحدة: بيروت، لا أتعرض فيها للجانب العسكري، ولا للبطولات، بل لحياة شخص عارٍ أمام نفسه في الحصار، وتحت القصف، خاصة أن كل واحد منا في بيروت المحاصرة أثناء الغزو الإسرائيلي كان يشعر بأنه يعيش آخر لحظات حياته. تحت ضغط هذا

.indd 338 29/07/2019 12:13:13

الإحساس كتبتُ كتابًا عن يوم واحد، كنتُ أودِّع فيه كل حياتي، وهو كتاب يصعب عليّ تصنيفه، فهو ليس ريبورتاجًا، أو رواية... إنه كتابة ملأى بالشعر... إنه كتاب مثير، في جرأته الفكرية والنفسية، وأقدِّم فيه نقدًا واضحًا وقاسيًا لعلاقتنا وحياتنا في بيروت، وأعرّي فيه أيضًا شهواتنا الإنسانية.

-إذا كان الجدل قائمًا حول فرادتك الشعرية، فإن الإجماع معقود حول تميّزك النثري، ومع ذلك فأنت لم تكتب النثر إلا لمامًا... لماذا؟ هل أنت محافظ جدًّا؟

• أنا سعيد بتقدير الناس لنثري، وسمعت من بعضهم أيضًا أنهم يفضّلون نثري على شعري، وأنا لا أغضب من ذلك أبدًا.

أنا أحلم بكتابة رواية، لكنني أخاف. يبدو عليّ أنني مندفع، ولكنني شديد الحساب. نعم، أنا محافظ بهذا المعنى، ولا أدخل في تجربة أو في معركة إلا إذا ضمنت بعض النجاح فيها. لا أستطيع أن أدخل في تجربة الرواية بعد، لأن نماذجي في الرواية عالية جدًّا. أنا قارئ رواية جيد، وأحب الرواية الموسوعية.

.indd 339 29/07/2019 12:13:13

سـؤالك مصيـب، وقـد يكـون محفـزًا لإيـلاء النـثر أولويـة أكـثر.

- سـؤال عـن المراسـلات بينـك وبـين سـميح القاسـم: هـي تتطـرق إلى هـذا النـوع الكتابـي الجميل، ولكـن المهمل من الكتّـاب العـرب، لكنهـا لا تقـوم عـلى البـوح والمكاشـفات الحميمـة، خاصـة في الرسـائل الأخـيرة.

• مـا يعنينـي في كل هـذه المراسـلات هـو أنهـا شـكل مـن أشـكال عودتـي إلى بـلادي. عـدت عـلى المسـتوى العاطفـي، وعلى مسـتوى اسـتعادة بدايـات الطريق الأول والصـوت الأول والشـارع الأول... وأنـا أشـاركك الـرأي في أن الرسـائل تعـرف مأزقًـا الآن. يجـب إنقـاذ شـكل الرسـائل الحـالي ممـا تشـعبت إليـه. طبعًـا مـن حـق أي رسـالة أن تتنـاول اللحظـة الحـاضرة، ولكـن أن تشـبكها بأزمـات أخـرى. أحيانًـا لـم ننجـح في ذلـك، وكأن الحـوار انقطـع. لأن الهـدف الثانـي، بعـد تحقيـق عودتـي إلى بـلادي، هـو أن نسـجل سـجلًا عاطفيًّـا وفكريًّا وسياسـيًّا مشـتركًا. لـم ننجـح في ذلـك، وأنـا مقتنـع بأننـا نحتـاج إلى تدخـل فرقـة إنقـاذ أدبيـة لكـي نعيدهـا إلى مسـارها. مـن المفيـد أن يكتـب بعـض الأصدقـاء الذيـن شـاركوا في هـذه

.indd 340 29/07/2019 12:13:13

التجربـة، لكـي يرشـدنا إلى المسـار السـابق. أنـا أوافقـك الـرأي بشـأن الرسـائل: خرجـت عـن ضفافهـا وتحولـت إلى مقـالات، ولكـن مـن الممكـن تـدارك هـذه المسـألة.

-السؤال الأخير أبيض، متروك لك.

• أريـد أن أقـول إننـي لـم أكتـب حتـى الآن شـيئًا، وإن تجربـة المـوت التـي عشـتُها في فيينـا قـد أكـدت لي أن المـوت حتميـة بديهيـة يهـرب مـن الاعـتراف بهـا أي إنسـان. وهـذا حسـن، لأن نسـيان المـوت هـو أحـد دوافـع تطـور الحيـاة. وإذا كنـتُ أكـثر صراحـة سـأقول لـك: هـذا هـو الـذي يفـسر هـذا الانكبـاب عـلى الكتابـة، لأننـي أريـد أن أسرق الكتابـة مـن المـوت، وأن أعـوِّض عـن كل مـا فاتَهـا مـن وقـت ضائـع، وقـد يكـون كل مـا قلنـاه إعـلانَ مقدمـةٍ للبـوح بهـذا الاعـتراف.

أكتب لأنّني سأموت!

.indd 341 29/07/2019 12:13:13

ملحق الصور

(من تصوير المؤلف، من محفوظاته):

.indd 343 29/07/2019 12:11:43

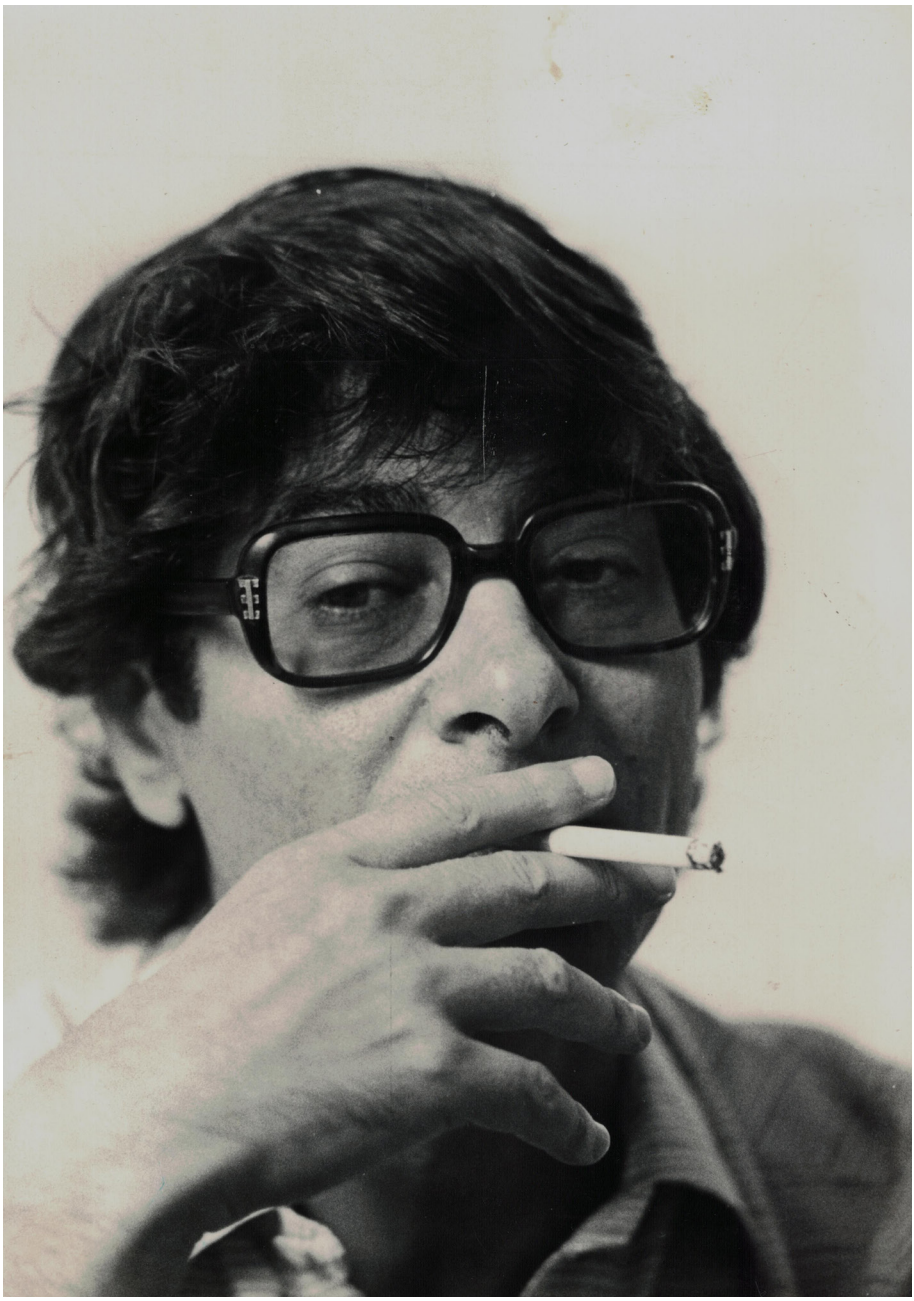

محمود درويش، زمن التدخين، باريس، 1979

.indd 345 29/07/2019 12:11:45

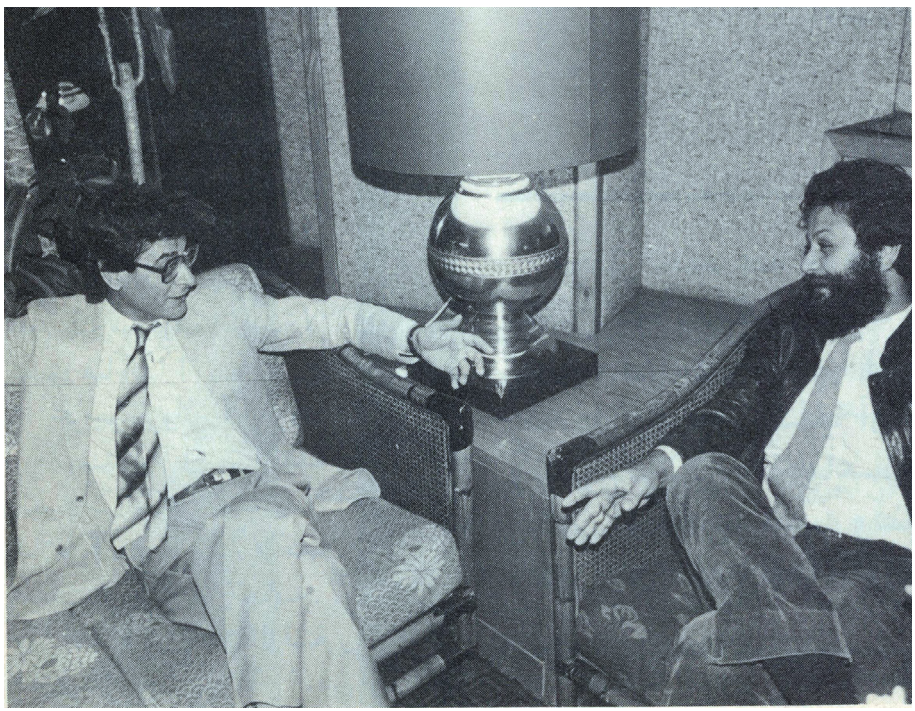

مـع محمـود درويـش في فندقـه الباريـسي (Château de Frontenac)، في الدائـرة الثامنـة، في تشريـن الأول-أكتوبـر مـن سـنة 1982.

.indd 346 29/07/2019 12:11:45

محمود درويش، غداة وصوله إلى باريس، في خريف 1982

.indd 347 29/07/2019 12:11:46

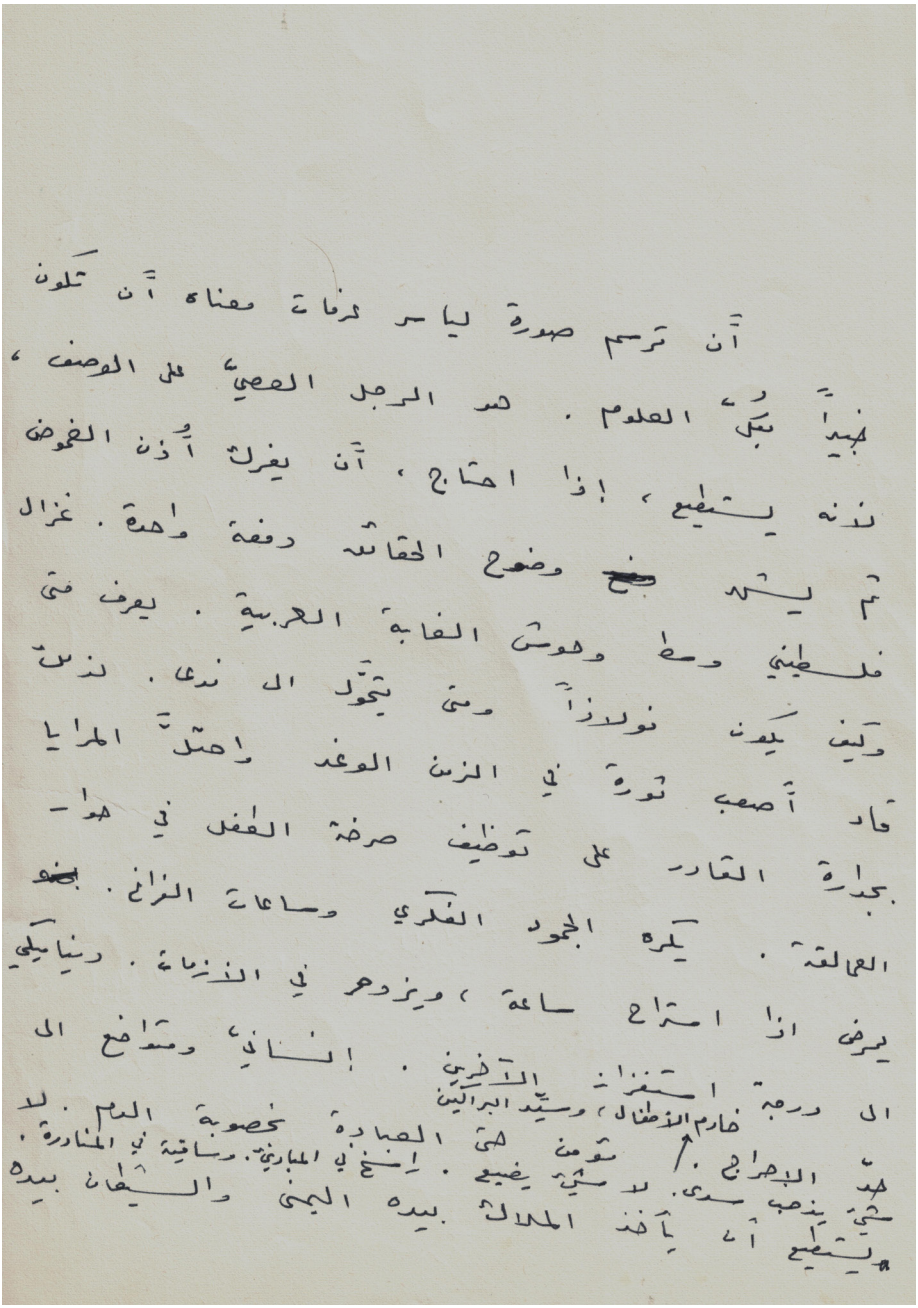

بخط يده: "بورتريه" ياسر عرفات، خريف 1982

.indd 348 29/07/2019 12:11:48

غلاف مجلة "كل العرب"، العدد السابع، الأربعاء 13 تشرين الأول-أكتوبر 1982

.indd 349 29/07/2019 12:11:50

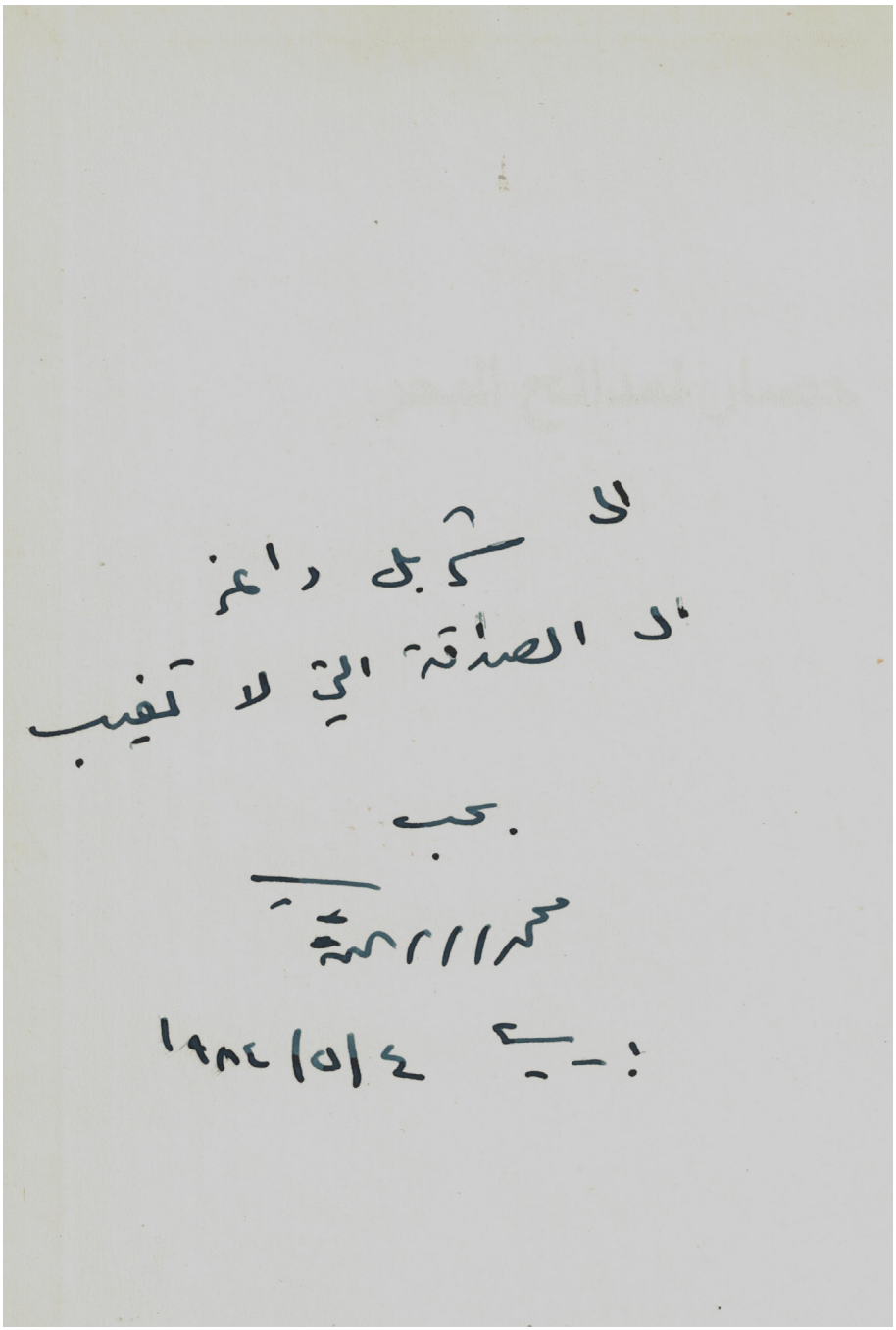

إهداء مجموعته: "حصار لمدائح البحر"، 1984

.indd 350 29/07/2019 12:11:51

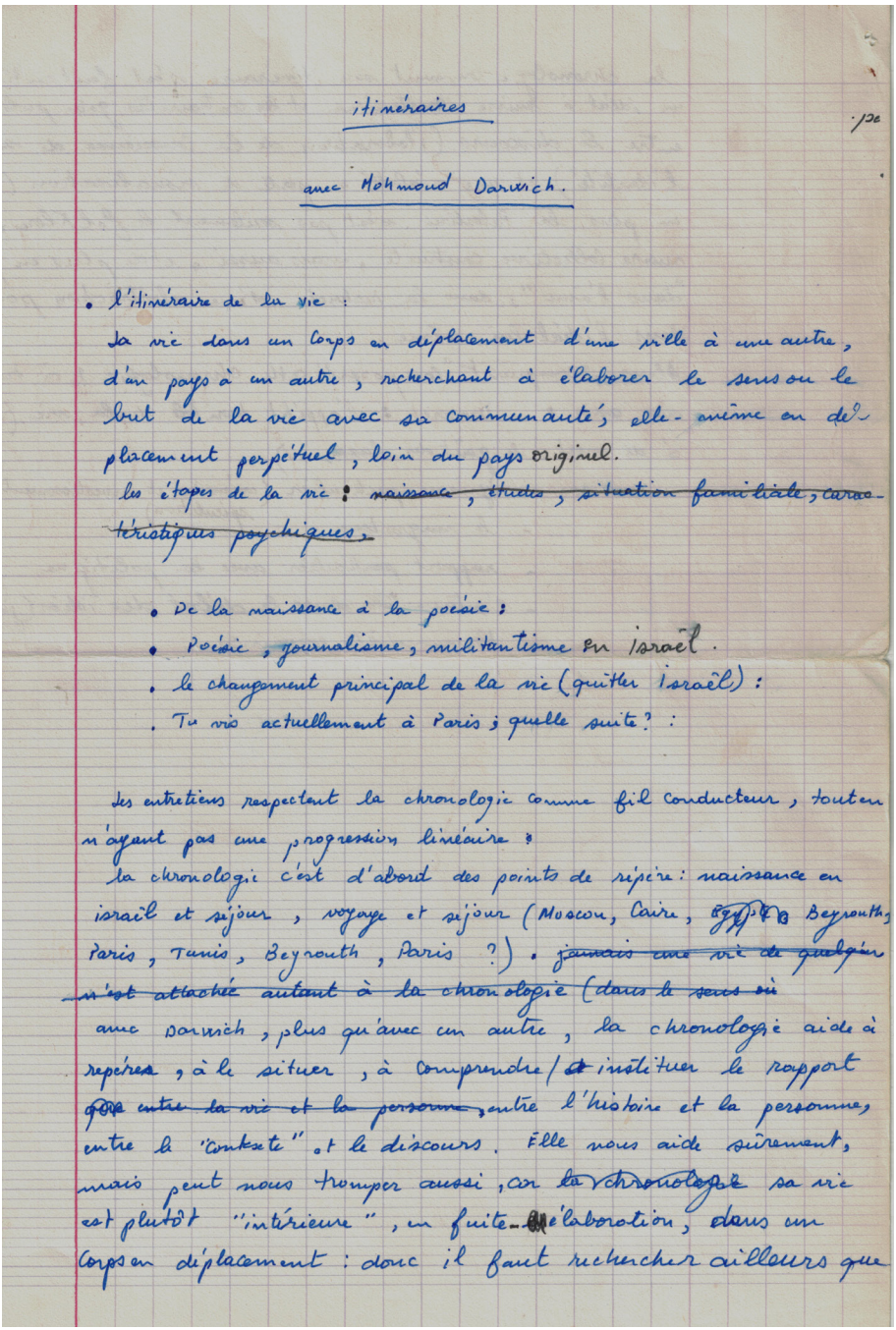

itinéraires

avec Mahmoud Darwich.

• l'itinéraire de la vie :
la vie dans un corps en déplacement d'une ville à une autre, d'un pays à un autre, recherchant à élaborer le sens ou le but de la vie avec sa communauté; elle-même en déplacement perpétuel, loin du pays originel.
les étapes de la vie : ~~naissance, études, situation familiale, caractéristiques psychiques,~~

• De la naissance à la poésie :
• Poésie, journalisme, militantisme en Israël.
• le changement principal de la vie (quitter Israël) :
• Tu vis actuellement à Paris ; quelle suite ? :

les entretiens respectant la chronologie comme fil conducteur, tout en n'ayant pas une progression linéaire :
la chronologie c'est d'abord des points de repère : naissance en israël et séjour, voyage et séjour (Moscou, Caire, ~~Beyrouth~~ Beyrouth, Paris, Tunis, Beyrouth, Paris ?). ~~jamais une vie de quelqu'un n'est attachée autant à la chronologie (dans le sens où~~
avec Darwich, plus qu'avec un autre, la chronologie aide à repérer, à le situer, à comprendre / ~~et~~ instituer le rapport ~~entre la vie et la personne,~~ entre l'histoire et la personne, entre le "contexte" et le discours. Elle nous aide sûrement, mais peut nous tromper aussi, car ~~la chronologie~~ sa vie est plutôt "intérieure", en fuite ~~de~~ élaboration, dans un corps en déplacement : donc il faut rechercher ailleurs que

من أوراقي بالفرنسية: "مسارات، مع محمود درويش"

[illegible].indd 351 29/07/2019 12:11:53

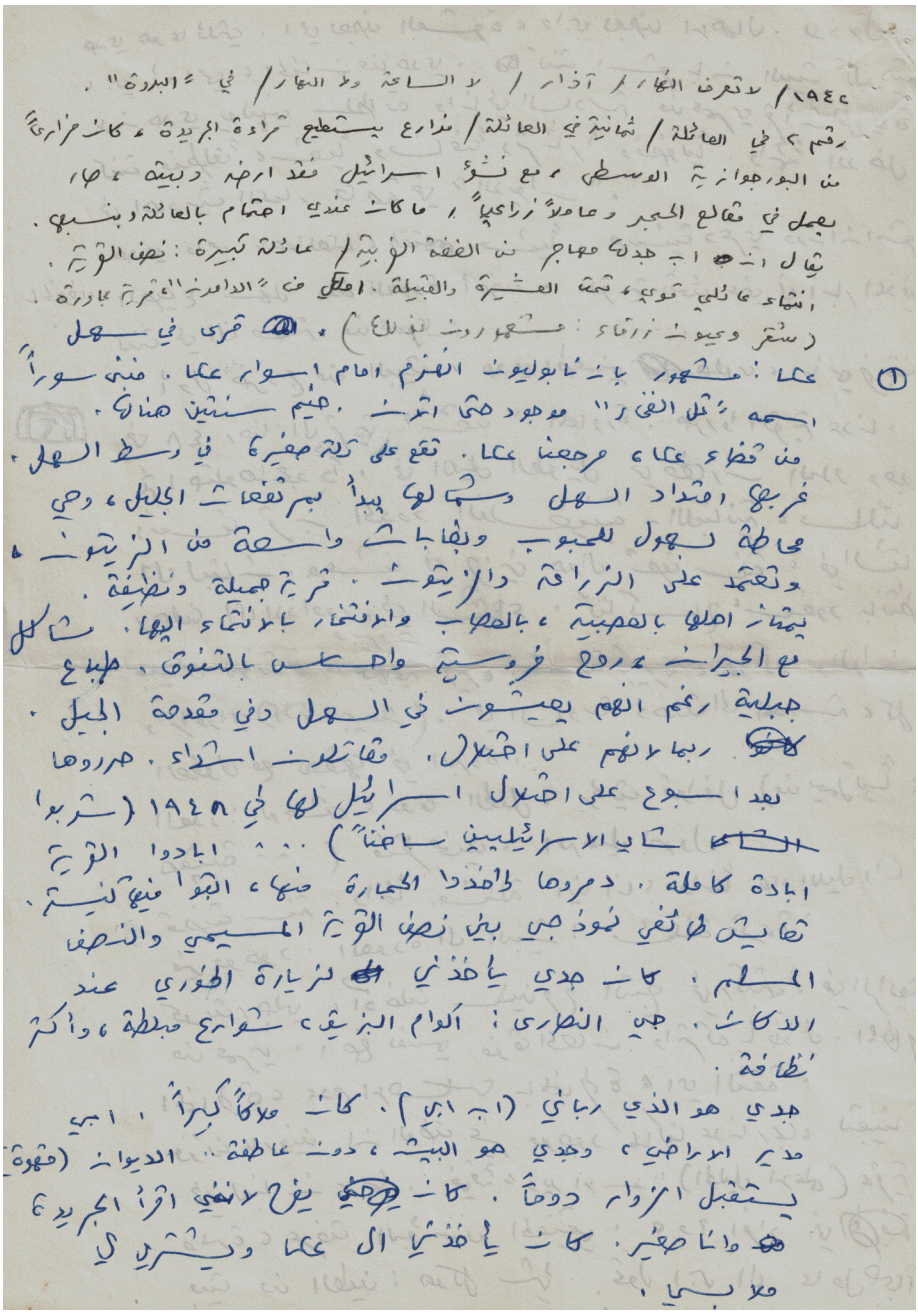

من أوراق كتابي مع درويش الذي لم يكتب

.indd 352 29/07/2019 12:11:55

مع درويش في شقته الباريسية، في العام 1986

.indd 353 29/07/2019 12:11:55

في مكتبه، في شقته الباريسية، بباريس، 1986: لا يكتب إلا قبل الظهر

.indd 354 29/07/2019 12:11:57

في دارة رافع الناصري ومي مظفر، في بغداد، في مهرجان "المربد" 1986 (من اليمين): نزار قباني، محمود درويش، جبرا إبراهيم جبرا، مي مظفر، رافع الناصري، فؤاد التكرلي، نهاد التكرلي، أحمد دحبور، وظلي الماثل، إذ ألتقط هذه الصورة النادرة

محمود درويش ونزار قباني: وجهًا لوجه

355 .indd 29/07/2019 12:11:58

الأدباء الفلسطينيون الثلاثة: محمود درويش وأحمد دحبور وجبرا إبراهيم جبرا

.indd 356 29/07/2019 12:11:58

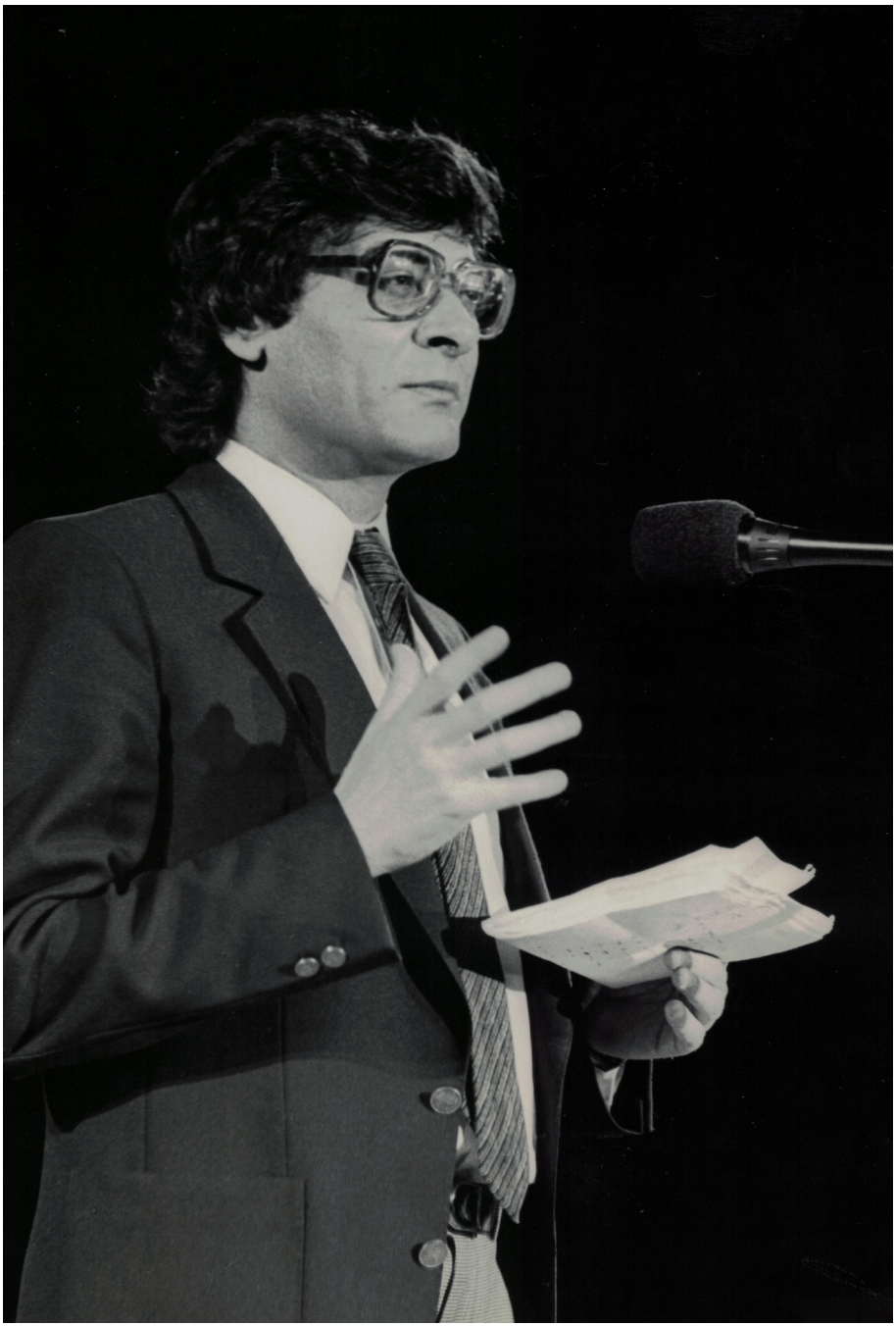

في أمسية شعرية، في الأونيسكو، بباريس

.indd 357 29/07/2019 12:12:00

مع محمود درويش ومحمد بنيس، في "مهرجان الشعر العربي"، القاهرة، 23 - 11 - 1996

مع رئيس جامعة البلمند السابق، د. إيلي سالم، في رحاب الجامعة (الكورة، لبنان)، صيف 2001

358 .indd

• ثبت المراجع

محمود درويش:

- "أوراق الزيتون" (1964)، "عاشق من فلسطين" (1966)، "آخر الليل" (1967)، "حبيبتي تنهض من نومها" (1970)، "العصافير تموت في الجليل" (1970)، "أحبكِ أو لا أحبك" (1972)، "محاولة رقم 7" (1974)، "تلك صورتها، وهذا انتحار العاشق" (1975)، "أعراس" (1976)، "مديح الظل العالي" (1983)، "حصار لمدائح البحر" (1984)، "هي أغنية هي أغنية" (1986)، "مأساة النرجس وملهاة الفضة" (1989)، "ورد أقل" (1990)، "أرى ما أريد" (1990)، "أحد عشر كوكبًا" (1992)، "لماذا تركتَ الحصان وحيدًا؟" (1995)، "سرير الغريبة" (1999)، "جدارية" (2000)، "حالة حصار" (2002)، "لا تعتذر عما فعلت" (2004)، "كزهر اللوز وأبعد" (2005)، "في حضرة الغياب" (2006)، "أثر الفراشة" (2008)، "لا أريد لهذي القصيدة أن تنتهي: الديوان الأخير" (بعد وفاته، 2009).

- "يوميات الحزن العادي" (طبعة جديدة ومنقحة، 2007)، "ذاكرة للنسيان: الزمان: بيروت، المكان: أب" (1987)، و"حيرة العائد"

.indd 359 29/07/2019 12:12:01

(مقالات مختارة)، رياض الريس للكتب والنشر، بيروت، 2007.

- "محمود درويش/سميح القاسم: الرسائل"، دار العودة، 1990، بيروت.

- "الأعمال الأولى الكاملة"، المجلدان الأول والثاني، رياض الريس للكتب والنشر، بيروت، 2005.

-"الأعمال الشعرية الكاملة"، المجلد الأول، 1964 - 1982، مؤسسة محمود درويش، رام الله، الأهلية للنشر والتوزيع، عَمان، دار الناشر، رام الله، 2014.

- "الأعمال النثرية"، بيروت، دار العودة، 2009.

- "أنقذونا من هذا الشعر"، مجلة "الكرمل"، بيروت، ربيع 1982، العدد السادس.

أدونيس:

- "زمن الشعر"، دار العودة، بيروت، 1972.

- "تأسيس كتابة جديدة"، مجلة "مواقف"، بيروت، 1971.

- (تحرير) عبد الإله بلقزيز: "هكذا تكلم محمود درويش: دراسات في ذكرى رحيله" (مجموعة مؤلفين)، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، 2009.

نوري الجراح:

- "بيت بين النهر والبحر: محاورات حول الفلسطينيين والعودة"، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، 2001.

.indd 360 29/07/2019 12:12:01

شربل داغر:

-"الشـعر العربـي الحديـث: كيـان النـص"، دار منتـدى المعـارف، بـيروت، 2014.

-"الشـعر العربـي الحديـث: القصيـدة المنثـورة"، دار منتـدى المعـارف، بـيروت، 2015.

امتياز دياب:

- "ميـلاد الكلمـات"، وزارة الثقافـة الفلسـطينية، ونـون للأفـلام والنـشر، رام اللـه، 2019.

رشيد القريشي :

-(مـع: محمـود درويـش، وحسـن المسـعودي، وعبـد الكبـير الخطيبـي): "أمَّـة في المنفـى"، دارة الفنون-مؤسسـة عبـد الحميـد شـومان، عَمـان، 1997.

نازك الملائكة:

- "قضايا الشعر المعاصر"، مكتبة النهضة، بغداد، 1967.

عبده وازن:

"محمـود درويـش: الغريـب يقـع عـلى نفسـه: قـراءة في أعمالـه الجديـدة"، ريـاض الريـس للكتـب والنـشر، بـيروت، 2006.

.indd 361 29/07/2019 12:12:01

(مجموعة مؤلفين):

-"المختلف الحقيقي"، دار الشروق، عَمّان، 1996.

(مجموعة مؤلفين):

-"محمود درويش: أمشي كأني واحد غيري"، مجلة "البيت" (عدد خاص)، الدار البيضاء، العدد 32، خريف 2018.

عباس بيضون:

-"محمود درويش: من يكتب حكايته يرث أرض الحكاية"، مجلة "مشارف" الفلسطينية، العدد 103، أكتوبر 1995.

-"الشاعر لا يطل على التاريخ إلا من بعيد"، جريدة "الحياة"، لندن، العدد 192، 2 تشرين الأول-أكتوبر 1996.

-"لو أعدت كتابة دواويني لاكتفيت بخمسة"، جريدة "السفير"، بيروت، الجمعة في 22 تشرين الثاني-نوفمبر، 2002.

سليمان جبران:

- "نظمٌ كأنه نثر: التباس الحوار بين محمود درويش وقصيدة النثر"، موقع "الحوار المتمدن" الإلكتروني، العدد 3009، 19 - 5 - 2010.

حسين بن حمزه:

- "متقدمًا من الموت... بشعرية فتية: محمود درويش: لستُ الناطق الرسمي باسم الشعب الفلسطيني"، جريدة "الأخبار"، بيروت، العدد 214، 28 نيسان-إبريل 2007.

.indd 362 29/07/2019 12:12:01

محمود زيباوي:

- "بدايات محمود درويش وزمن التخوين"، موقع "المدن" الإلكتروني، بيروت، 11 - 8 - 2017،

ريتا عوض:

- "خروج محمود درويش: هل قتل الشاعر أم بعثه؟"، مجلة "شؤون فلسطينية"، بيروت، العدد 25، أيلول-سبتمبر 1972.

فؤاد مطر:

- مقابلة في "ملحق" جريدة "النهار"، بيروت، 13 آذار-مارس 1971.

سلوى النعيمي:

- حوار مع يوسف إدريس: "أنا، أنا، أنا فقط""، مجلة "الكرمل"، قبرص، العدد 13، 1984.

مجلة "نقد" (زينب عساف وماهر شرف الدين):

- عدد خاص عن محمود درويش، بيروت، العدد الثالث، يوليو 2007.

(من دون ذكر المؤلف):

- "مقابلة أدبية مع محمود درويش"، مجلة "الآداب"، بيروت، 1970، العدد التاسع.

.indd 363 29/07/2019 12:12:01

مقابلة:

- "بحثًا عن الخلاص الجمالي"، مع مجلة "آفاق مغربية"، الدار البيضاء، عدد 57، 1995.

مقال عن سيرة محمود درويش:

- "الغارديان" البريطانية (8 حزيران-يونيو من سنة 2002) في ترجمة تكفلت بها جريدة "الدستور" الأردنية، ونشرتها في 28 حزيران-يونيو من السنة 2002.

• الجوائز التي فاز بها محمود درويش

- جائزة "اللوتس"، اتحاد كتّاب آسيا وإفريقيا، الهند، 1969.
- "جائزة البحر المتوسط"، المركز الثقافي المتوسط، باليرمو، 1980.
- "درع الثورة الفلسطينية"، منظمة التحرير، 1981.
- "جائزة أبي علي بن سينا الدولية"، الاتحاد السوفييتي، 1981.
- "لوحة أوروبا للشعر"، إيطاليا، 1982.
- "جائزة لينين"، الاتحاد السوفييتي، 1983.
- "جائزة شعراء من أجل السلام"، المجلس البلدي لفيلا ديمادوف، إيطاليا، 1987.

.indd 364 29/07/2019 12:12:01

- شهادة تقدير من جامعة التشيلي، مركز الدراسات العربية في جامعة التشيلي، 1990.
- وسام الاستحقاق الوطني الفرنسي برتبة فارس، وزارة الثقافة الفرنسية، 1997.
- الصنف الأول من وسام الاستحقاق الثقافي بتونس، 1998.
- وسام الكفاءة الفكرية، المغرب، 2000.
- وسام القديس بطرس وبولس، بطريركية أنطاكية وسائر المشرق للروم الأرثوذوكس، 2001.
- جائزة جامعة البلمند التقديرية، البلمند، 2001.
- "جائزة الحرية الثقافية"، فيلادلفيا، 2001.
- جائزة سلطان بن علي العويس للإنجاز الثقافي والعلمي، الإمارات العربية المتحدة، 2003.
- جائزة الأمير كلاوس، القصر الملكي، هولندا، 2004.
- جائزة لودوميا بونامي الأدبية الدولية، محافظة لاكولا (إيطاليا)، 2005.
- جائزة الوردة الفضية من اتحاد كتّاب البلغار، بلغاريا، 2006.
- جائزة القاهرة للإبداع الشعري العربي، القاهرة، 2007.
- جائزة "ملك الشعر" (جائزة جولدن ريث العالمية)، مهرجان الشعر العالمي في مقدونيا، 2007.
- جائزة "الأركانة" العالمية للشعر، بيت الشعر في المغرب، 2008.

.indd 365 29/07/2019 12:12:01

- جائـزة "الشـاهد" البوسـنية، مهرجـان أيـام سراييفـو في البوسـنة، 2008.
- جائزة ناظم حكمت، تركيا، 2008.
- "وسام القدس"، رام الله، 2008.
- جائــزة البحــر الأبيــض المتوســط للســلام، مؤسســة البحــر الأبيــض المتوســط للســلام، إيطاليــا، 2009.
- شهادة دكتوراه فخرية: جامعة بير زيت، 1996.
- شــهادة دكتــوراه فخريــة: جامعــة لوفــان الكاثوليكيــة، بلجيــكا، 1998.

.indd 366 29/07/2019 12:12:01

المحتويـات

• استهلال 5

الباب الأول: سَجِّلْ، صوتِي صوتان

• اتَّجَهَ إلى الكتاب 13

• آه من وطن في جسد! 27

• بين اسمه وهالته 37

• العاشق الدائم والزوج ... المستحيل 53

• "لستُ ملكَك وحدك، يا أبي" 67

• بين المتنبي وياسر عرفات 87

• "أريد أن أكتب شعرًا من مكان آخر" 101

الباب الثاني: المغنِّي، الخَشَبة والقصيدة

• "حَربُك حَرْبان" 125

• "مَسْرَحة" الذات 141

• "أنقذونا من هذا الشعر" 155

• مع القصيدة "المارقة" 163

• "مَسْرَحة" الكتابة 175

.indd 367 29/07/2019 12:12:01

• "نظمٌ كأنه نثر" 183
• نوبل: درويش وغيره 201
• لا أريدها أن تنتهي 215

الباب الثالث: عندما ينهض من بين الكلمات

• إشارة 227
• كتابي... المؤجَّل (1986) 229
• اشتقتُ إلى نفسي (1979) 239
• أصبحتُ قادرًا على القتل (1982) 261
• أكتب لأنّني سأموت (1986) 309

ملحق الصور 343

.indd 368 29/07/2019 12:12:01

إصدارات المؤسسة

.indd 369 29/07/2019 12:12:01

المؤلف في سطور

- البروفيسور شربل داغر (لبنان) حاملُ شهادتَي دكتوراه: في الآداب العربية الحديثة، وفي فلسفة الفن وتاريخه.
- أصدر أكثر من ستين كتابًا، بالعربية والفرنسية: له ما يزيد على اثنتي عشرة مجموعة شعرية، ومختارات وأنطولوجيات لشعره، بالعربية وبغير لغة.
- كتبَ الرواية، وترجمَها، ودرسَها، وحقق نقديًّا روايات "مجهولة" في بدايات السرد العربي الحديث في القرن التاسع عشر.
- له كتب مرجعية في الفن الإسلامي والفن العربي الحديث، وقد ترجم بعضها إلى الإنكليزية.
- له في درس الأدب الكتب التالية:

- "التقاليد الشفوية العربية" (بالفرنسية)، منظمة اليونسكو، باريس، 1985.

- "الشعرية العربية الحديثة: تحليل نصي"، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء، 1988، طبعة ثانية، دار أزمنة للنشر، عَمان، 2006، طبعة ثالثة، دار أزمنة للنشر، عَمان، 2018.

.indd 371 29/07/2019 12:12:02

- "العربيـة والتمـدن: في اشـتباه العلاقـات بـين النهضـة والمثاقفـة والحداثـة"، دار النهـار للنـشر، بـيروت، مـع منشـورات جامعـة البلمنـد، لبنـان، 2009.
- "الشـعر العربـي الحديـث: القصيـدة العصريـة"، منتـدى المعـارف، بـيروت، 2012.
- "الشـعر العربـي الحديـث: كيـان النـص"، منتـدى المعـارف، بـيروت، 2014.
- "الشـعر العربـي الحديـث: القصيـدة المنثـورة"، منتـدى المعـارف، بـيروت، 2015.
- "الشـعر العربـي الحديـث: قصيـدة النـثر"، منتـدى المعـارف، بـيروت، 2018.
- "القصيـدة والزمـن: الخـروج مـن نظـام الواحديـة التماميـة"، دار رؤيـة للنـشر، القاهـرة، 2015.

• (إشراف) "سـنغور: صاحـب النزعـة الإنسـانية" (بالفرنسـية)، دار إيديفـرا، باريـس، 1991.
• (إشراف) "العربية في لبنان"، منشورات جامعة البلمند، لبنان، 1999.
• (إشراف) "عـصر النهضـة: مقدمـات ليبراليـة للحداثـة"، المركـز الثقـافي العربـي، بيروت-الـدار البيضـاء، 2000.
• (إشراف) "برفقـة جرجـي زيـدان: النهضـة في عهـدة الحـاضر"، منشـورات جامعـة البلمنـد، 2015.

.indd 372 29/07/2019 12:12:02